

مصر في عصر الولاة

من الفتح العربي إلى قيام الدولة الطولونية

تأليف

الدكتورة سيدة اسماعيل كاشف
أستاذة التاريخ المساعدة بكلية البنات الجامعية
جامعة عين شمس

الناشر
مكتبة النهضة المصرية
٩ شارع عدلي -- القاهرة

الألف كتاب (٢٤١)

مصر في عصر الولاة

من الفتح العربي إلى قيام الدولة الطولونية

بإشراف إدارة الثقافة العامة
بوزارة التربية والتعليم

تصدر هذه السلسلة

بمعاونة المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية

الألف كتاب (٢٤١)

مصر في عصر الولاة

من الفتح العربي إلى قيام الدولة الطولونية

تأليف

الدكتورة سيدة اسماعيل كاشف

أستاذة التاريخ المساعدة بكلية البنات الجامعية

جامعة عين شمس

الناشر

مكتبة النهضة المصرية

٩ شارع عدلي — القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير الكتاب

يتناول هذا الكتاب البحث فى تاريخ مصر الإسلامية فى عصر الولاة . وهذا العصر يبدأ من فتح العرب لمصر البيزنطية فى سنة ٢١ هـ (٦٤٢ م) وينتهى بقدوم أحمد بن طولون إلى مصر فى سنة ٢٥٤ هـ (٨٦٨ م) وتأسيسه لأول دولة مستقلة فى مصر الإسلامية . وقد اصطلحنا على تسمية هذه الفترة الطويلة من تاريخ مصر باسم عصر الولاة لأن مصر كانت حينذاك ولاية تابعة للخلافة يحكمها ولاة من قبل الخلفاء فكانت الخلافة تبعث بالولاة من مقرها فى المدينة المنورة زمن الخلفاء الراشدين ، ومن الكوفة زمن على بن أبى طالب ، ومن دمشق زمن الأمويين ، وأخيرا من بغداد وسامرا زمن العباسيين .

وكان هؤلاء الولاة عربا حتى نهاية الدولة الأموية حين كان الحكم والحرب والسيادة للعرب دون غيرهم ، وأعنى بالعرب آنذاك أبناء القبائل العربية شمالية كانت أو جنوبية .

وحين أسقطت أسرة بنى العباس حكم الأمويين وتربعت على عرش الخلافة دونهم ، كان بعض ولاة مصر على عهدهم من العرب . وكان آخر

وال عربي هو عنبسة بن إسحق الذى حكم بضع سنين فى أواخر هذا العصر (٢٣٨—٢٤٢ هـ) .

أما بقية ولاة مصر فى العصر العباسى فكانوا من الفرس والخراسانية والأتراك ، ذلك أن الدولة العباسية قامت على أكتاف الفرس وخاصة الخراسانيين ، ولم تكن الدولة العباسية دولة عربية بحتة كما كانت سابقتها ، وإنما كانت دولة جميع الشعوب الإسلامية ، ولم يكن العرب فيها سوى عنصر من العناصر الكثيرة التى احتوتها الإمبراطورية الإسلامية ، فكانت الدولة العباسيه أشبه شىء بجامعة دول إسلامية . واحتل الفرس فى بداية العصر العباسى ، المناصب الرفيعة فى الدولة بعد أن كان استخدام الموالى فى الوظائف نادرا .

وقد حلت محل الأرستقراطية العربية طبقة من الموظفين أخذت من كافة الأجناس التى دانت لسلطان الخلافة . ولكن العباسيين الأوائل قربوا إليهم الخراسانيين بصورة خاصة من دون عناصر الدولة الأخرى وأطلقوا عليهم الأنصار والأبناء واعتبروهم شيعتهم وكونوا منهم زهرة جيوشهم . لكن منذ عهد الخليفة المعتصم (٢١٨—٢٢٧ هـ) فى أواخر العصر العباسى الأول ، أخذ الأتراك يحتلون مكان الصدارة فى الجيوش العباسية ، بل إن المعتصم أبعد العرب نهائيا عن جيوش الخلافة وأسقط من كان منهم مثبتا فى الديوان وبعث بذلك إلى كافة الأمصار الإسلامية . وما لبث الأتراك بعد ذلك أن تحكموا فى شئون الخلافة العباسية المدنية كما تحكموا فى شئونها الحربية من قبل .

ولما كانت مصر ولاية تابعة للخلافة فى عصر الولاة فقد ارتبط

تاريخها بتاريخ الخلفاء الراشدين والأمويين والعباسيين حتى نهاية هذا العصر ارتباطا له قيمته وخطره كما سيتبين من فصول هذا الكتاب .

ولا شك أن عصر الولاة له أهمية بالغة فى تاريخ مصر الإسلامية إذ تكونت فيه الأسس التى قامت عليها مصر الإسلامية ، فتحولت مصر خلال هذه الفترة التى تقرب من قرنين ونصف قرن من الزمان إلى دولة إسلامية الدين عربية اللغة بعد أن تخلت عن ماضيها وحضارتها القديمة إلى حد كبير ، ورمت بنفسها فى أحضان الإسلام . وقد شاركت مصر الإسلامية منذ هذا العصر بنصيب كبير فى الحضارة الإسلامية التى بلغت شأوا كبيرا زمن الخلفاء الفواطم وسلاطين المماليك .



مقـــدمة

نهاية الحكم البيزنطى فى مصر

كانت مصر قبيل قدوم العرب إليها ولاية بيزنطية . ونعرف أن الأباطرة البيزنطيين لم يدخروا وسعا للحصول على أكثر ما يمكن من الضرائب التى كان يقع عبؤها على كواهل المصريين دون غيرهم ممن كانوا يقيمون فى مصر . وقد عومل الشعب المصرى بوجه عام معاملة المغلوب على أمره فلم يكن له حق الاشتراك فى حكم بلاده أو فى جيش بلاده ، ولم تكن اللغة المصرية هى اللغة الرسمية وإنما كانت اللغة اليونانية هى اللغة الرسمية للحكومة منذ عهد البطالسة حتى الفتح العربى .

وكانت المسائل الدينية قبيل الفتح العربى هى مشكلة المشاكل آنذاك . والمعروف أن مصر كانت فى طليعة البلاد التى تسربت إليها المسيحية فى القرن الأول الميلادى ، وأخذت فى الانتشار تدريجيا فى جميع أنحاء مصر منذ القرن الثانى الميلادى . إلا أن الأباطرة الوثنيين ناصبوا المسيحية العداء ، وظلت المسيحية فى مصر تلقى اضطهادا كثيرا وتسامحا قليلا إلى أن ولى عرش الإمبراطورية الإمبراطور دقلديانوس Diocletianus (٢٨٤-٣٠٥م) فبلغ فى عهده اضطهاد المسيحيين أقصاه . وقد قابل المصريون ذلك الاضطهاد من جانبهم بقوة وإصرار . وبدأت

الكنيسة القبطية تقويمها الذى سمته تقويم الشهداء بالسنة الأولى من حكم دقلديانوس (٢٨٤ م) نتيجة لما ترك هذا الاضطهاد من أثر عظيم فى نفوس الأقباط .

وحينما اعترف الأباطرة بالدين المسيحى منذ بداية القرن الرابع الميلادى لم تخف المشكلة الدينية بل زادت تعقيدا . إذ تدخل الأباطرة فى المنازعات التى قامت بين المسيحيين حول طبيعة المسيح وصفته وعقدوا من أجل ذلك المجامع الدينية ، وبلغ ذلك النزاع الدينى بين كنيستى الإسكندرية والقسطنطينية (أو بيزنطة) أقصاه منذ حوالى منتصف القرن الخامس الميلادى حينما اختلفت الكنيستان حول طبيعة المسيح ، وقد عقد الإمبراطور البيزنطى من أجل ذلك مجمعا دينيا فى خلقدونية Chalcedon بآسيا الصغرى سنة ٤٥١ م ، وقد أقر ذلك المجمع ماذهبت إليه كنيسة القسطنطينية بأن للمسيح طبيعتين ، وقرر أن مذهب الكنيسة المصرية القائل بأن للمسيح طبيعة واحدة كفر وخروج على الدين الصحيح ، كما قرر حرمان بطرك الإسكندرية من الكنيسة . ولم يقبل البطرك الإسكندرى ولامسيحيو مصر ما أقره مجمع خلقدونية وأطلقوا على أنفسهم « الأرثوذكسيين » وهى كلمة يونانية معناها أتباع الديانة الصحيحة . ولا زال سواد أقباط مصر يعرفون بذلك الاسم إلى يومنا هذا . أما أتباع الكنيسة البيزنطية فقد عرفوا بعد الفتح العربى باسم الملكانيين وذلك لاتباعهم مذهب الملك أو الإمبراطور .

وقد أطلق مسيحيو الشرق على الأقباط الأرثوذكس أيضا اسم اليعاقبة ، كما أطلقوا على الكنيسة القبطية الأرثوذكسية اسم الكنيسة

اليعقوبية ، وذلك نسبة إلى يعقوب البرادعى Jacob Baradeus أسقف مدينة الرها Edessa (أورفه الحالية فى تركيا) الذى كان يقول بمذهب الطبيعة الواحدة فى النصف الثانى من القرن السادس الميلادى والذى زار مصر ضمن بلاد الشرق التى زارها لتنظيم الكنائس المونوفيزتية أى القائلة بمذهب الطبيعة الواحدة Monophysite . ولكن يظهر من الحوليات المصرية أن الأقباط لم يطلقوا على أنفسهم اسم يعاقبة .

وقد قابل المصريون الاضطهاد الاقتصادى والدينى بالمقاومة الإيجابية أحيانا . ولكن الغالبية من الشعب المصرى لجأت إلى المقاومة السلبية وذلك بالفرار إلى المعابد والأديرة ، وبهجر مزارعهم وقراهم مما أدى إلى انتشار الفوضى فى البلاد وإلى اضطراب جميع المرافق الاقتصادية .

وفى وسط تلك الفوضى الضاربة أطنابها غزا الفرس مصر سنة ٦١٦م فى عهد ملكهم كسرى الثانى وظلوا يحتلون مصر إلى أن حارب هرقل ، إمبراطور الروم ، بلاد الفرس نفسها سنة ٦٢٩م فاضطروا للجلاء عنها .

وقد رأى هرقل بعد أن أنقذ الدولة البيزنطية من الفرس ، أن ينقذها من الخلاف الدينى فأصدر أمرا أوصورة توفيق Mono Thelma تقضى بأن يمتنع الناس عن الكلام فى طبيعة المسيح وصفته وأن يعترفوا جميعا بأن له إرادة واحدة . وأسند هرقل الرئاسة الدينية والسياسية لشخص واحد هو قيرس ، ويعرف عند مؤرخى العرب باسم المقوقس. وقبل أن يصل قيرس إلى الإسكندرية فى سنة ٦٣١ م هرب البطرك القبطى بنيامين توقعا لما سيحل به وبطائفته من الشدائد من جراء فرض

المذهب الجديد . وكان اضطهاد قيرس للمصريين عظيما فاق كل اضطهاد ، وبذلك تمهد السبيل لفتح مصر على يد دولة ناشئة قوية ، تلك هى دولة العرب .

وفى سنة ١٨ هـ (٦٣٩ م) عندما قدم الخليفة عمر بن الخطاب إلى الجابية بالقرب من دمشق للإشراف على آخر ماوصلت إليه الفتوحات الإسلامية فى بلاد الشام وفلسطين ، تظهر لأول مرة فى المصادر العربية فكرة غزو مصر .

والواقع أن فتح مصر أصبح ضرورة بعد فتح الشام وفلسطين وذلك لتأمين الفتوح الإسلامية فى الشام ، ولتأمين المدينة نفسها مركز الخلافة لأنها قريبة من القلزم وهى السويس الحالية . ولا يبعد أن يرسل الروم (أى البيزنطيون) حملة من تلك الناحية تنتقم لما حل بممتلكاتهم فى الشام .

والواقع أن مصر والشام ربطتهما من أقدم العصور مصالح سياسية وحربية وتجارية واحدة ، وغالبا ما خضعت مصر والشام فى العصور المختلفة لحكم دولة واحدة . ولم يكن العرب بغافلين حينئذ عن ثروة مصر الطبيعية ولا عن موقعها الجغرافى الممتاز فقد جاءها كثير منهم للاتجار فى أيام الجاهلية ، نذكر منهم عمرو بن العاص ، وعثمان بن عفان ، والمغيرة بن شعبة .

وقد وفد إلى صعيد مصر منذ أقدم العصور كثير من التجار العرب وذلك عن طريق البحر الأحمر ووديان الصحراء الشرقية حتى إن المؤرخ

والجغرافى اليونانى سترابون المتوفى نحو سنة ٢٥ م قال عن مدينة قفط Koptos فى الصعيد إنها مدينة نصف عربية .

ونلاحظ أن مصر فى القرن السادس الميلادى وأوائل السابع لم تعد إقليما بيزنطيا بالمعنى الصحيح ، فقد كانت السلطة البيزنطية عليها ضعيفة وأخذت البلاد من الوجهات السياسية والاقتصادية والإدارية والدينية تتهيأ لهذا الحادث الكبير ، وهو الانتقال من أيدى البيزنطيين إلى أيدى العرب . فقد كانت العلاقة بين بيزنطة وبين مصر علاقة مادية بحتة بمعنى أن مصر تؤدى الخراج المفروض عليها سنويا ، قمحا وغلالا وأموالا ترسل من الإسكندرية إلى القسطنطينية ، ولا يعنى البيزنطيون بغير ذلك . أما عن كيفية جباية الضرائب وهل كانت تجبى بالعدل ؟ فقد كان ذلك متروكا للسلطة المحلية . وكانت الضرائب مصدر شكوى للفلاحين وكانت تقع مظالم كثيرة فى جباية تلك الأموال ولا سيما على الفلاح الصغير بحيث وجد فى مصر نظام الحماية ، فلكى يهرب الفلاح من كثرة الضرائب كان يضع نفسه تحت حماية أحد كبار الملاك ، ولكنه كان فى الواقع كالمستجير من الرمضاء بالنار . فبمضى الزمن كانت تصبح أرضه ملكا للكبير الذى وضع نفسه تحت حمايته ويتحول الفلاح من مالك صغير إلى مجرد عامل أجير لهذا الكبير ، وبذلك وجد ما يسمى بالأبعاديات يملكها ملاك كبار أشبه بأمراء إقطاعيين ، بحيث أصبحت البلاد موزعة بين عدة أسر كبيرة قوية وغنية ، وغالبا ما كانت هذه الأسر من اليونان المستوطنين ، وبذلك انتهت البلاد فى القرن السابع الميلادى إلى نظام أشبه بالنظام الإقطاعى .

أما من الناحية الإدارية فقد كانت البلاد مقسمة إداريا إلى خمسة أقسام كبرى وهى :

١ ــ الإسكندرية ويقيم فيها الحاكم البيزنطى .

٢ ــ شرقى الدلتا ويحكمه دوق .

٣ ــ غربى الدلتا ويحكمه دوق .

٤ ــ مصر الوسطى ويدخل فيها الفيوم ويحكمها دوق .

٥ ــ مصر العليا ويحكمها دوق .

ولم تكن هناك وحدة إدارية تربط بين كل هذه الأقسام إذ كانت سلطة الحاكم البيزنطى المقيم فى الإسكندرية ضعيفة ، وكان كل دوق مستقلا تقريبا وتحت إمرته قوة عسكرية . وجدير بالذكر أن الدولة البيزنطية غيرت سياستها التى اتبعتها فى أول الأمر وهى عدم تجنيد المصريين فى الجيش ، إذ دلت أوراق البردى على أن معظم الجنود فى هذا الجيش قبيل الفتح كانوا من الأقباط ــ أى سكان البـــلاد الأصليين ــ وكانت مهمة هذا الجيش الرئيسية هى مساعدة الموظفين فى أعمالهم والقضاء على قطاع الطرق وإخماد الثورات الدينية والاشتراك فى جباية الضرائب .

أما من الناحية الدينية فقد كان الأقباط كما ذكرنا على خلاف مستحكم مع الدولة البيزنطية . ولنر كيف تم فتح العرب لمصر .

أرسل الخليفة عمر بن الخطاب قائده عمرو بن العاص لفتح مصر ، فسار عمرو بن العاص من فلسطين على رأس جيش قيل إنه كان مكونا من أربعة آلاف محارب وذلك فى سنة ١٨ هـ (٦٣٩ م) .

وقد سلك عمرو بن العاص فى الفتح الطريق الذى سلكه أغلب غزاة مصر وفاتحيها ، وهو طريق الصحراء الشرقية مساحلا للبحر الأبيض المتوسط ثم مبتعدا عن فروع نهر النيل ، فوصل إلى العريش ومنها إلى الفرما[1] ، وظل يواصل السير حتى بلغ أم دنين[2] ؛ ونلاحظ أنه فى الطريق من العريش إلى أم دنين ، اشتبك عمرو بن العاص مع الحاميات البيزنطية فى مواقع مختلفة . وفى أم دنين كان القتال عنيفا بين المسلمين وبين البيزنطيين الذين تحصنوا فى حصن بابليون ، وقد اضطر عمرو ابن العاص إلى أن يستنجد بالخليفة عمر بن الخطاب الذى أمده بقوة كبيرة قيل إن عدتها كانت أربعة آلاف رجل وقيل اثنا عشر ألفا من الرجال .

وبعد مفاوضات ، ومشقة فى القتال ، وبسالة فائقة من البطل الزبير ابن العوام فتح العرب حصن بابليون عنوة ، وبعدها عقد العرب مع المصريين معاهدة تعرف باسم معاهدة بابليون الأولى سنة ١٩ هـ (٦٤٠ م) . وهذه المعاهدة كان لها أهمية بالغة ، فلم تكن بابليون حاضرة مصر ولكنها كانت أهم مركز فيها نظرا لموقعها على رأس الوجه القبلى والدلتا ، وكونها على الطريق الموصل إلى الإسكندرية حاضرة

(١) الفرما هى مدينة بلوز Pelusium القديمة وكانت على البحر الأبيض المتوسط شرقى بور سعيد الحالية .

(٢) أم دنين أو تندونياس قرية كانت تقع شمال حصن بابليون الذى توجد بقاياه الآن فى مصر القديمة بجوار كنيسة مارجرجس .

البلاد منذ عصر البطالسة إلى أن حكم العرب مصر . أى أن بابليون كانت بمثابة قلب مصر وعاصمتها الحقيقية ، ولو أن العاصمة الفعلية كانت الإسكندرية . وحوادث التاريخ ترينا أنه إذا سقط قلب الدولة كان ذلك معناه سقوط الدولة كلها مثل سقوط روما سنة ٤٧٦ م الذى كان إيذانا بسقوط الدولة الرومانية الغربية فى أيدى البرابرة ، وسقوط باريس فى سنة ١٨٧٠ م الذى كان إيذانا بسقوط فرنسا فى أيدى الألمان.

ونلاحظ أن معاهدة بابليون الأولى هذه حددت مركز المصريين ، أما فيما يتعلق بالبيزنطيين أو الروم فقد اشترط قيرس ضرورة موافقة الإمبراطور هرقل وإلا عادت الحالة بين الروم والعرب إلى ما كانت عليه . وبمقتضى هذه المعاهدة أصبح المصريون أهل ذمة يؤدون الجزية ونصت المعاهدة على أن قيمة الجزية تتوقف على مقدار ارتفاع أو انخفاض ماء النيل فى كل عام وأن تدفع الجزية على ثلاثة أقساط فى السنة .

وقد وافق الخليفة على هذه المعاهدة أما الإمبراطور فإنه وبخ المقوقس على قبولها وطلب من الروم أن ينهضوا لمحاربة العرب ، واستجاب الروم لنداء الإمبراطور واستعدوا استعدادا عظيما لقتال العرب فى الإسكندرية ، واستعد هرقل لمباشرة هذه الحرب بنفسه ، ولكن شاءت الأقدار أن يموت هرقل وأن يكون لموته أكبر الأثر فى إضعاف شوكة الروم إلى حد كبير . وقد كان فتح الإسكندرية من الصعوبة بمكان إذ كان الروم مسيطرين على البحر بأساطيلهم وكان المدد يأتى إليهم عن هذا الطريق . أضف إلى ذلك أن حصون الإسكندرية

كانت منيعة وكان يحميها من جهة البر الغياض والبحيرات وترعة الإسكندرية . واستبسل العرب لكن مقاومة البيزنطيين كانت عنيدة ، واستبطأ الخليفة عمر بن الخطاب فتحها ، وفي الوقت نفســـه كانت الإمبراطورية البيزنطية يسودها النزاع والفتن الداخلية التي نشبت من أجل العرش بعد موت هرقل . وتأزمت الظروف ولجأ البيزنطيون إلى إنهاء الحرب مع المسلمين بعقد صلح حتى يتفرغوا هم للمشاكل الداخلية الخطيرة ، فذهب قيرس إلى بابليون حيث كان عمرو بن العاص — وهناك طلب الصلح فرحب عمرو به وعقد معاهدة في سنة ٢٠هـ(٦٤١م) اصطلحنا على تسميتها معاهدة بابليون الثانية وذلك لانعقادها في بابليون وتمييزا لها عن بابليون الأولى ، أومعاهدة الإسكندرية لأنها كانت خاصة بأهل الإسكندرية وحاميتها . وقد نصت هذه المعاهدة على عقد هدنة بين الروم والعرب مدتها أحد عشر شهرا تنتهي في سبتمبر سنة ٦٤٢م وأواخر سنة ٢١هـ يكف في أثنائها الروم والعرب عن القتال كما يتم خلالها جلاء حامية الروم عن الإسكندرية حاملين أمتعتهم وأموالهم . واشترط ألا يعود جيش رومي ثانية إلى الإسكندرية وألا يستولي المسلمون على كنائس المسيحيين أو يتدخلوا في أمورهم وأن يباح لليهود الإقامة في الإسكندرية . ولضمان نفاذ هذه الشروط نصت المعاهدة على أن يأخذ المسلمون مائة وخمسين من الجند وخمسين من غير الجند رهائن .

وعقب معاهدة الإسكندرية امتد نفوذ العرب تدريجيا إلى سائر الأقاليم في مصر . والثابت في المصادر القديمة أن فريقا من الأقباط

ساعدوا الجيش العربى فى العمليات الحربية ضد البيزنطيين . ووقف فريق آخر موقف الحياد لأنهم يعرفون أن مساعدتهم للعرب معناها انتقالهم من تبعية إلى تبعية أخرى ، ولم يكن هذا الفريق فى موقف يستطيع معه طرد البيزنطيين والعرب فى وقت واحد . وهناك أقلية من الشعب المصرى حاربت فى صفوف البيزنطيين ظنا منها بأن النصر سيكون حتما للبيزنطيين وليس للعرب .

ولم يقف العرب عند فتح مصر بل اتجهوا إلى برقة[1] لتأمين فتح مصر ، فسار عمرو بن العاص إليها وفتحها وفرض عليها الجزية . ثم غزا عمرو طرابلس[2] وقيل إنه فكر فى غزو بلاد المغرب كلها لكن الخليفة نهاه عن ذلك ، ولا ريب أن الخليفة تخوف من تفرق المسلمين فى بلاد كثيرة ، ولما تثبت أقدامهم فيها بعد .

وكان فتح برقة خاتمة لفتح وادى النيل كله اللهم إلا إذا تذكرنا تأمين الحدود الجنوبية ، فإن عمرا لم يغفل تأمين هذه الحدود ، فبعث عبد الله بن سعد بن أبى سرح على رأس حملة إلى النوبة فى سنة ٢٠ هـ أو فى سنة ٢١ هـ ، وكانت النوبة فى ذلك الحين مملكة قوية مستقلة استعصى غزوها على عبد الله بن سعد فكتب إليه عمرو يأمره بالرجوع.

لكن عبد الله بن سعد عاد ثانية إلى غزو النوبة فى سنة ٣١ هـ أثناء ولايته على مصر من قبل الخليفة عثمان بن عفان ووصلت حملته إلى

---

(١) كانت برقة تسمي فى العهد العربى باسم انطابلس .

(٢) كانت طرابلس تعرف فى العهد العربى باسم اطرابلس .

دنقلة(١) واشتدت فيها وطأة القتال من الجانبين وانتهت هذه الحملة بعقد هدنة بين مصر وبين ملك النوبة عرفت بالبقط(٢) . وكان البقط عبارة عن معاهدة سياسية وتجارية بين مصر ومملكة النوبة المسيحية كان أهم نصوصها ألا تعتدى إحداهما على الأخرى وأن تؤدى النوبة إلى مصر عددا معينا من الرقيق كل سنة وأن تؤدى مصر إلى النوبة قدرا معينا من القمح والعدس وغيره من منتجات مصر كل سنة أيضا .

ولم يتمسك الروم بمعاهدة الإسكندرية طويلا إذ بدأت الدولة البيزنطية تفيق من أحداثها الداخلية فى عهد الإمبراطور قنسطانز الثانى حفيد هرقل الذى أرسل إلى الإسكندرية أسطولا كبيرا لإجلاء العرب عن مصر إجلاء تاما وذلك فى سنة ٢٥ هـ (٦٤٥ م) . وتم استيلاء الجيش البيزنطى على الإسكندرية وزحف من بعدها إلى مايليها من بلاد الوجه البحرى ، وتحرج مركز العرب فى مصر وكان واليها إذ ذاك هو عبد الله بن سعد بن أبى سرح من قبل الخليفة عثمان بن عفان . وقد بعث أهل مصر إلى عثمان يسألونه أن يرسل عمرا لمحاربة الروم لأن له معرفة وخبرة بحربهم . وقد تم إجلاء الروم عن مصر على يديه واستولى عمرو بن العاص فى هذه المرة على الإسكندرية عنوة وقتل قائد جيش الروم . وهكذا تم فتح العرب لمصر .

---

(١) كانت تعرف فى العهد العربى باسم دمقلة .

(٢) الراجح أن كلمة بقط من كلمة Pactum اللاتينية ومعناها عقد أو اتفاق وقيل إنها كلمة مصرية قديمة بمعنى عبد ، وقيل أيضا إنها كلمة عربية بمعنى نبذة أو قطعة أو فرقة .

الباب الأوّل

نظم الحكم فى عصر الولاة

١ — النظام الإدارى

جرى العرب على سياسة إدارية حكيمة فى معظم البلاد التى فتحوها والتى كانت تتمتع بحضارات قديمة ، وهى الإبقاء على النظم الإدارية لتلك البلاد وعلى الموظفين من أبناء تلك البلاد واحتفظوا هم بالمناصب الرئيسية للإشراف على الإدارة بوجه عام ولتنفيذ ما يتطلبه الاحتلال العربى الجديد .

فكان يمثل الخليفة فى مصر الوالى أو الأمير وكان مقر الوالى فى مصر هو « دار الإمارة » وكان الوالى هو الرئيس السياسى لمصر ولم يكن مسئولا عن عمله إلا أمام الخليفة وكان الوالى يؤم المسلمين فى المسجد الجامع فى صلاة الجمع والأعياد بوصفه نائبا عن الخليفة ولذا كان يطلق عليه لقب « أمير الصلاة » وكانت الولاية تعرف أيضا باسم « ولاية الصلاة » ونستدل على أهمية هذا اللقب من أن المسلمين كانوا يعتبرون أن إمامة الصلاة مما يختص به الخلفاء وكانوا يطلقون على الخليفة لفظ إمام .

وكان بيد الوالى أيضا الحرب أى رئاسة جيش الولاية ولأهمية ذلك كان يقال أحيانا : ولى فلان الحرب كناية عن ولايته لمصر . فكان والى مصر يشرف على شئون الحامية الموجودة فى مصر ويقود بنفسه الجيش فى الحملات التأمينية لمصر أو لصد الأعداء عنها أو يرسل من يقود الجيش نيابة عنه . وكان مثل تلك الحملات فى السنوات الأولى بعد

الفتح بوجه خاص ، فقد قاد عمرو بن العاص الحملات لفتح برقة وطرابلس كما أرسل عبدالله بن سعد لفتح النوبة . كذلك خرج عبد الله بن سعد أثناء ولايته على مصر على رأس الحملات التى سارت لغزو أفريقية والنوبة كما غزا الروم فى غزوة ذى الصوارى .

وكان الوالى يشرف أحيانا على إدارة المالية المعبر عنها « بالخراج » مما يجعله مطلق التصرف فى الدولة . ولكن كان الخلفاء يخشون فى معظم الأحيان عظم ازدياد نفوذ الوالى فيسندون الخراج إلى شخص آخر هو « عامل الخراج » ويكون مسئولا أمام الخليفة مباشرة لا أمام الوالى ، وكان هذا يحد من سلطة الوالى كثيرا إذ يصبح عاجزا عن التصرف فى الأمور المالية كما يشاء ، ولذا كان لعامل الخراج أهمية كبيرة ؛ وكثيرا ما يكون منافسا للوالى مع أن الوالى هو رئيس الولاية بالنيابة عن الخليفة . وحسبنا دليلا على أهمية عامل الخراج أنه عندما هزم عمرو بن العاص الروم وطردهم من الإسكندرية فى سنة ٢٥ هـ أراد الخليفة عثمان بن عفان أن يولى عمرا على الصلاة وأن يولى عبد الله ابن سعد على الخراج فقال عمرو : « أنا إذا كماسك البقرة بقرنيها وآخر يحلبها »[١] ورفض ما أراد عثمان بن عفان وترك ولاية مصر .

وكان للوالى أيضا الإشراف على الشرطة ، وكان مقر الشرطة فى مدينة الفسطاط التى بناها عمرو بن العاص . ولما بنى العباسيون مدينة العسكر التى كانت تقع شمالى الفسطاط عملت شرطة أيضا فى العسكر وقيل لها

---

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر (طبعة تورى) ص ١٧٨

الشرطة العليا . ولا ترجع تسميتها الشرطة العليا إلى أنها أعظم شأنا من شرطة الفسطاط كما قد يتبادر إلى الذهن ، ولكن منذ عهد إنشاء العسكر سنة ١٣٣ ﻫ قسمت الفسطاط إلى « عمل فوق » « وعمل أسفل » بل إن صاحب الشرطة السفلى فى الفسطاط كان أعلى شأنا وأعظم اختصاصا من زميله بوصفه حاكم القسم الرئيسى الأصيل فى الحاضرة[١] وكان الوالى هو الذى يعين صاحب الشرطة وفى حالات نادرة جدا كان الخليفة هو الذى يعين صاحب الشرطة . وكان صاحب الشرطة يؤم الناس فى الصلاة إذا مرض الوالى ويحكم الولاية إذا خرج الوالى من مقر ولايته ، ولذا نجد أنه كثيرا ما كان الخليفة يعين صاحب الشرطة واليا على البلاد إذا ما عزل الوالى أو مات أو تنحى عن أمور الولاية . وكان الوالى يعهد إلى صاحب الشرطة بتنفيذ العقوبات التأديبية التى يفرضها ، وبنشر الأمن فى البلاد ، كما كانت وظيفة صاحب الشرطة فى الخلافة نفسها . ومن المحتمل أن صاحب الشرطه فى الحاضرة كان له أعوان فى سائر أنحاء البلاد ، ولكن الراجح عندنا أن ولاة المدن والأقاليم فى ريف مصر كان لكل منهم شرطة يتخذها لإقرار الأمن والمحافظة على النظام فى منطقة حكمه .

وكان أصحاب الشرطة يهتمون أيضـــا بنشر الفضيلة والمحافظة على الأخلاق .

ومن الوظائف الرئيسية الهامة فى تلك الفترة أيضا وظيفة صاحب

---

(١) راجع خطط المقريزى ج ١ ص ٥ و ٢٩٩ والكندى : الولاة والقضاة ص ١٠٢ و١٠٦ و١٠٧ و١١٨ .

البريد ، ولم تكن تلك الوظيفة قائمة فى عهد الخلفاء الراشدين ، إنما بدأتها الدولة الأموية ثم تقدم نظام البريد فى عهد الدولة العباسية . ويقال : إن معاوية بن أبى سفيان هو أول من وضع البريد لوصول الأخبار بسرعة وتبعه فى ذلك الأمويون ، ومن بعدهم العباسيون ، ولذا نجدهم يهتمون بعمارة الطرق لتقصير المسافات ولوصول الأخبار بسرعة. وزاد اهتمام العباسيين بالطرق زيادة كبيرة حتى أصبحت بغداد مركزا تتشعب منه الطرق إلى جميع الجهات ، فكانت جميع الطرق تؤدى إلى بغداد كما كانت جميع الطرق تؤدى إلى روما . هذا ولم يكن البريد نظاما يستعمله الشعب إنما كان نظاما رسميا حكوميا . وقد استعمل الخلفاء نظام البريد فى أول الأمر لنقل الأخبار بسرعة من مقر خلافتهم إلى الولايات المختلفة ولتلقى الأخبار ، ثم ما لبث هذا النظام أن تطور واستعمله الخلفاء العباسيون للتجسس على ولاة الأقاليم وعمالها .

وكانت مهام وظيفة صاحب البريد تعنى الخلافة وتعنى عمال الخليفة أكثر مما تعنى مصر نفسها ، ولذا لم أجد فى المصادر القديمة ذكرا لأصحاب البريد الموفدين من الخلفاء إلى مصر إلا فى موضع أو موضعين .

وكانت مصر بعد الفتح مباشرة مقسمة إداريا إلى قسمين رئيسيين : مصر العليا ومصر السفلى ، وكان هذان القسمان مقسمين إلى أقسام أو كور ، ونلاحظ أن كورة لفظ يونانى احتفظ به العرب ، وكان فى مصر حينذاك نحو ثمانين كورة . وكانت الكور مقسمة بدورها إلى قرى . والوقع أن العرب احتفظوا إلى حد كبير بنظم البيزنطيين الإدارية ، بل إنهم أبقوا على الأسماء والألفاظ اليونانية التى كانت تستعمل من قبلهم

فنجد مثلا قرة بن شريك والى مصر زمن الخليفة الوليد بن عبد الملك (٩٠ — ٩٦ هـ) يرسل كتابا إلى بسيل صاحب اشقوه [1] يطلب منه أن يرسل التعليمات الخاصة بدفع الجزية إلى جسطال كورته وإلى موازيت القرى . ونلاحظ أن كلمة جسطال كانت تعنى حينذاك الموظف المشرف على مالية الكورة أى مندوب ديوان الخراج والأموال ، أما موازيت فمعناها رؤساء أومشايخ القرى . وهاتان الكلمتان لا تمتان بصلة إلى اللغة العربية وإنما هما مشتقتان من البيزنطية ، فكلمة جسطال مقابلة للكلمة البيزنطية أوجستاليوس ، أما كلمة مازوت فهى مقابلة للكلمة البيزنطية ميزوتروس .

ومع أن مصر كانت مقسمة إداريا إلى هذه الأقسام إلا أنها كانت جميعا تحت سلطة الوالى العليا مباشرة ، ولم يعط الولاة فرصة لعمال الأقاليم للتمكين لأنفسهم وللاستقلال محليا بأمور أقاليمهم ، فكان الحكم فى مصر مركزيا إلى أقصى حد ، وكانت كل كبيرة وصغيرة ترجع إلى والى مصر ، وكما كان للخليفة صاحب بريد يخبره بأعمال الوالى كان للوالى صاحب بريد يخبره بأعمال عمال الأقاليم فى مصر ، وكان للوالى كتبة كثيرون يستعين بهم فى تحرير رسائله ، وبالتالى كان فى مصر منذ ذلك العهد ديوان رسائل أو ديوان إنشاء .

وكان والى مصر بعد الفتح العربى يشرف على بلاد برقة وما يليها

---

(١) كانت اشقوه كورة من كور الصعيد واسمها الآن كوم اشقاو بين أبوتيج وطهطا فى مديرية أسيوط وقد عثر فيها سنة ١٩٠١ م على مجموعة من الأوراق البردية التى ألقت شعاعا من النور على حكم الأمويين عامة فى مصر وعلى حكم الوالى قرة بن شريك خاصة .

من شمال إفريقية ، على أن هذا الإشراف لم يمنع من أن يكون لبرقة والمغرب عمالها وولاتها فى كثير من الأحيان . وفى سنة ٨٦ هـ (٧٠٥م) أرسل الخليفة إلى إفريقية موسى بن نصير واليا على البلاد يحكمها من القيروان ويتبع الخليفة مباشرة ؛ ومنذ ذلك الحين أصبحت إفريقية ولاية مستقلة فى حكمها عن مصر بعد أن كانت تتبعها فى الإدارة وتتلقى منها الجيوش الفاتحة .

ونلاحظ أن ولاة مصر فى عهد الخلفاء الراشدين والأمويين كانوا من العرب ، ولا عجب فقد كانت الدولة حينذاك عربية فى سيادتها وسياستها ، وكان الإشراف السياسى والحربى والرياسة العليا ، للعرب دون سواهم من الشعوب المحكومة . وقد أعطى الخلفاء الأمويون لعمالهم على الولايات قسطا كبيراً من الحرية ، ولذا ظهر فى الدولة الأموية شخصيات بارزة مثل عمرو بن العاص ، وزياد بن أبيه ، والحجاج بن يوسف الثقفى ، وخالد بن عبد الله القسرى ، وعبد العزيز بن مروان ، وموسى بن نصير وغيرهم . ففى مصر نجد الخليفة معاوية بن أبى سفيان يولى عمرو بن العاص صلاة مصر وخراجها ويجعلها طعمة له بعد عطاء جندها والنفقة على إدارتها ، فظل عمرو بن العاص فى ولايته الثانية على مصر من سنة ٣٨ هـ إلى سنة ٤٣ هـ حين وفاته . وظل مسلمة بن مخلد واليا على مصر خمس عشرة سنة (٤٧ — ٦٢ هـ) وتوفى وهو وال عليها . وكذلك بقى عبد العزيز بن مروان فى ولايته على مصر حوالى إحدى وعشرين سنة (٦٥ — ٨٦ هـ) وتوفى وهو وال عليها ، وكان عبد العزيز شبه ملك مستقل فى حكم البلاد من مقره

فى الفسطاط — أولا ، ثم من حلوان — ثانيا — التى أمر ببنائها فى سنة ٧٠ هجرية واتخذها عاصمة له .

أما فى العصر العباسى فقد تأثرت مصر بالسياسة العامة للدولة ، ذلك أن العباسيين أشركوا غير العرب فى الحكم وساووهم بالعرب ففقدت القبائل العربية امتيازاتها وزال الفرق بين العرب و بين المسلمين من غير العرب ، وكان السبب الرئيسى لذلك هو اعتماد العباسيين على الفرس فى دعوتهم وفى قيام دولتهم ، فأصبحت الدولة العباسية أشبه شىء بجامعة دول إسلامية ، بعكس ما كان عليه الحال فى العصر الأموى إذ كانت الدولة عربية بحتة . وقد احتل الفرس المناصب الرفيعة فى الدولة العباسية بعد أن كان استخدام الموالى فى الوظائف نادرا قبل ذلك . وحلت محل الأرستقراطية العربية طبقة من الموظفين أخذت من كافة الأجناس التى دانت لسلطان الخلافة. أى أن الدولة العباسية لم تكن دولة عربية وإنما كانت دولة جميع الشعوب الإسلامية ، ولم يكن العرب فيها سوى عنصر من العناصر الكثيرة التى احتوتها الإمبراطورية الإسلامية .

ولذلك نلاحظ مجىء ولاة من الفرس إلى مصر زمن الخلافة العباسية ، وكان آخر وال عربى على مصر هو عنبسة بن إسحق الذى حكم بضع سنين فى نهاية عصر الولاة تقريبا (٢٣٨ - ٢٤٢ ﻫ) .

كما نلاحظ أن الخلافة العباسية سارت على سياسة الاعتماد على الأتراك والاستكثار منهم منذ زمن الخليفة المعتصم (٢١٨ — ٢٢٧ ﻫ) ، وقد كان المعتصم من أم تركية ، ورأى فى الأتراك قوما يحبون القتال والحرب وليست لهم عصبية العرب ، وليس لهم وطن قديم يريدون إحياءه

كالفرس . لكن نفوذ الأتراك سرعان ما تغلغل فى الدولة العباسية وأصبح بيدهم شئونها الحربية والمدنية ، وتأثرت مصر بذلك الاتجاه الجديد فى الدولة فوليها ولاة من الترك كان أولهم يزيد بن عبد الله التركى (٢٤٢ — ٢٥٣ هـ) .

كذلك نلاحظ فى العصر العباسى كثرة تغيير الولاة ، وقد يكون هذا راجعا إلى بعد مقر الخلافة العباسية ، أعنى بغداد وسامرا ، عن مصر . فلم يأمن الخلفاء أن يتركوا ولاة مصر فى الحكم طويلا لئلا يطمعوا فى الاستقلال بالبلاد ، وقد يكون ذلك راجعا أيضا إلى ضعف الخلفاء العباسيين الحقيقى بالرغم من مظاهر العظمة الخارجية ، وخاصة منذ عهد المعتصم ، ولذا سار هؤلاء الخلفاء على سياسة تغيير الولاة فى مدد متقاربة قصيرة كيلا يتمكن أحدهم من الاستقلال بها أو التمكين لنفسه فيها ، كذلك استخدم الخلفاء العباسيون البريد للتجسس على أعمال هؤلاء الولاة . على أن ما كانت تخشاه الدولة العباسية من استقلال الولاة قد تحقق نتيجة لسياسة الإقطاع التى اتبعتها ، فمنذ عهد الخليفة هارون الرشيد (١٧٠ — ١٩٣ هـ) اتبع الخلفاء العباسيون سياسة إقطاع بعض أقاليم الدولة العباسية لبعض الشخصيات على أن يؤدوا مالا معينا للخلافة . ولا ريب فى أن النظام الإقطاعى فى الشرق كان يختلف اختلافا كبيرا عنه فى الغرب ، ولعل أكبر فرق بين النظامين الشرقى والغربى أن الإقطاع الأوربى كان يتوارث فى أسرة صاحب الإقطاع وفق تقاليد وراثية معروفة ، أما فى الشرق فلم يكن من حق صاحب الإقطاع أن يورث إقطاعه ، كذلك كان السكان فى الغرب يقطعون مع الأرض بعكس النظام فى الشرق .

وقد عرفنا من أوراق البردي أن المعتصم أقطع القائد التركى أبا جعفر أشناس مصر فى سنة ٢١٩ هـ ثم أذن له بأن يولى الحكام بنفسه ، وكان اسم أشناس يذكر فى خطبة الجمعة مع الخليفة وقد ضربت السكة باسمه أيضا كما نقش اسمه على الموازين والمكاييل ، وظل أشناس صاحب إقطاع مصر ويعين ولاتها من قبله إلى أن توفى سنة ٢٣٠ هـ ، وأقطعت مصر بعد ذلك لنفر من الترك . على أن سياسة إقطاع الأتراك ، ولاية مصر أدت إلى نتيجة لم تكن فى الحسبان ، إذ كان هؤلاء القواد الترك يؤثرون البقاء فى عاصمة الخلافة خشية أن تدبر ضدهم الدسائس ، كما كان الخليفة نفسه يرحب ببقائهم خوفا من أن يستقلوا بالبلاد التى كانوا يحكمونها فكان هؤلاء الأترك لا يحكمون بأنفسهم بل يستخلفون من يقوم بالأمر نيابة عنهم على أن يحمل إليهم هؤلاء النواب الأموال ويدعون لهم على المنابر كما يدعى للخليفة . وإذا كان الخلفاء يراقبون أصحاب الإقطاع لئلا يستقلوا بالبلاد فإنه لم يكن فى استطاعتهم أو لم يدر بخلدهم أن يراقبوا نوابهم ، ولم يكن من العسير على نائب وال له شخصية بارزة وله آمال واسعة أن يستقل بأمور البلاد بعد أن تطرق الضعف إلى مركز الخلافة نفسها . وهذا ما حدث فى عهد أحمد بن طولون الذى استقل بمصر عن الخلافة وأسس بها دولة مستقلة عرفت باسم الدولة الطولونية كانت أول دولة مستقلة فى تاريخ مصر الإسلامية (٢٥٤ - ٢٩٢ هـ : ٨٦٨ - ٩٠٥ م)

٢ — النظام المالى

كانت سياسة الخلفاء بوجه عام ترمى إلى استغلال مصر ، وإن اختلف بعضهم عن البعض الآخر من حيث درجة الاستغلال ، إذ بينما نرى بعض الخلفاء أو ولاتهم يشتط فى جمع الضرائب ، نرى البعض الآخر يرى أن من مصلحة الراعى أن يقص صوف غنمه ، وليس من مصلحته أن يسلخها ، وذلك كيلا يجف معين البلاد وتتأثر بذلك مالية الدولة ، ولعل الخليفة الأموى سليمان بن عبد الملك (٩٦ — ٩٩ هـ) يمثل النظرية الأولى أبلغ تمثيل حين يكتب إلى متولى خراج مصر أسامة ابن زيد التنوخى قائلا : « احلب الدر حتى ينقطع واحلب الدم حتى ينصرم »[1] أما الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان (٦٥ — ٨٦ هـ) فيمثل النظرية الثانية التى تنطوى على عدم المبالغة فى جمع الضرائب فقد كتب إلى الحجاج بن يوسف عامله على العراق « لا تكن على درهمك المأخوذ أحرص منك على درهمك المتروك ، وأبق لهم لحوماً يعقدون بها شحوماً »[2]

الجزية والزكاة :

كانت الجزية من أهم الضرائب فى مصر فى عصر الولاة . والجزية معناها ضريبة الرأس التى فرضها العرب على أهل الذمة .[3] وقد فرضت

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ١ ص ٢٣١

(٢) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ١٤٣

(٣) أهل الذمة معناها المسيحيون واليهود الذين يقطنون ديار الإسلام .

الجزية على أهل مصر بعد معاهدة بابليون الأولى . وهاك نص ماذكره المؤرخون : « فاجتمعوا على عهد بينهم واصطلحوا على أن يفرض على جميع من بمصر أعلاها وأسفلها (١) من القبط ديناران عن كل نفس شريفهم ووضيعهم ومن بلغ الحلم منهم ، ليس على الشيخ الفانى ولا على الصغير الذى لم يبلغ الحلم ولا على النساء شيء . . . وأحصوا عدد القبط يومئذ خاصة من بلغ منهم الجزية وفرض عليهم الديناران ، رفع ذلك عرفاؤهم (٢) بالأيمان المؤكدة فكان جميع من أحصى يومئذ بمصر أعلاها وأسفلها من جميع القبط فيما أحصوا وكتبوا ورفعوا أكثر من ستة آلاف ألف نفس وكانت فريضتهم يومئذ اثنى عشر ألف ألف دينار فى كل سنة » (٣) ويذكر البلاذرى (٤) فى رواية له عن عبد الله ابن عمرو بن العاص أنه وضع على كل حالم دينارين جزية إلا أن يكون فقيراً.

ولا نفهم من هذا إذا كان الفقراء قد أعفوا من الجزية أم قدرت عليهم جزية أقل من غيرهم .

أى أنه إذ استثنينا النص الذى ذكره البلاذرى بأن الفقراء

---

(١) أعلاها أى الوجه القبلى وأسفلها أى الوجه البحرى .

(٢) العريف : العالم بالشيء ومن يعرف أصحابه والجمع عرفاء .

ويذكر De Sacy أن عريف مقابلة للكلمة اليونانية جرافس أى كاتب .

أنظر Sur la nature et les révolutions du droit de propriété p. 179

(٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر (طبعة المعهد الفرنسى (ص ٦٣ — ٦٤) ، خطط المقريزى ج ١ ص ٢٩٢ — ٢٩٣)

(٤) فتوح البلدان ص ٢١٤

لم يدفعوا الدينارين نفهم مما ذكره المؤرخون أن المصريين تساووا في دفع الجزية .

ونحن نستبعد أن يكون العرب قد ساووا بين جميع المصريين في دفع الجزية . إذ أن هذا لا يتفق وسياسة العرب التي كانت ترمي إلى التحبب إلى أهل البلاد وإلى توطيد سلطانهم فيها وخاصة في أول عهدهم بالفتح . ولو كان العرب قد فعلوا هذا لثار عليهم المصريون من أول الفتح ولكان العرب قد عادوا بعد ذلك إلى تعسف الحكم الروماني والبيزنطي الذي كان يعفي ذوي النفوذ والثراء من الأعباء المالية أو من أغلبها بينما يقع عبؤها على الطبقات الفقيرة من السكان . كما أن هذا لا يتفق والإسلام الذي يدعو إلى الإنصاف والعدل .

وقد أيدتنا الأوراق البردية فيما نذهب ونفت ما ورد في المصادر من القول بمساواة الذميين في دفع الجزية ، وأثبتت أن الجزية كانت تتناسب مع ثروة الشخص . ففي كتاب من قرة بن شريك إلى صاحب كورة أشقوة نجده يأمره بأن يرسل كشفاً بالأماكن المختلفة لمعرفة عدد الرجال في كل مكان ، والجزية الواجب عليهم أداؤها وما يملكه كل رجل من الأراضي وما يقوم به من الأعمال . ويطلب من صاحب الكورة ألا يوجد أي مجال للشكوى أو الاستياء منه ويذكره بأنه مصمم على مكافأة من يسير سيراً حسناً ومعاقبة من يتنكب طريق العدل(١).

---

(١) Bell : Translations of the Greek Aphrodito, der Islam, II. p.272

ونحن نرى من هذا الكتاب أنه لو كان كل فرد يدفع جزية مساوية لما يدفعه الآخر لما طلب والى مصر كشفاً بما يملكه كل شخص وما يقوم به من عمل وبالجزية الواجبة عليهم ، ولما طلب من صاحب الكورة أن يكون عادلا فى عمله ، ولما هدده إذا هو لم يتبع طريق الحق أو أوجد أى مجال للشكوى أو الاستياء من جانب أهل كورته ، ولاكتفى الوالى بمعرفة عدد رجال كورته وبذلك يعرف الجزية الواجبة عليهم .

وقد حفظت لنا أوراق البردى أيضاً كشوفاً من القرن الثالث الهجرى دونت فيها أسماء أشخاص مختلفين ، وذكر فيها مقدار الجزية الواجبة على كل ، وقد اختلفت هذه الجزية باختلاف كل شخص ، وقلما نجد شخصين يدفعان جزية متساوية ، فشخص يدفع ديناراً وثان ديناراً ونصف دينار وثالث ثلثى دينار ورابع ديناراً وثلثاً . وهكذا (١)

وأما الفقهاء المسلمون فيجمعون على أنه كانت هناك ثلاث فئات بخصوص الجزية فيؤخذ من الموسر ثمانية وأربعون درهما ومن الوسط أربعة وعشرون ومن دون الوسط اثنا عشر درهما (٢)

وطبيعى أن كلام الفقهاء يوحى إلينا — بعكس كلام المؤرخين — بأن تقدير الجزية كان فيه شىء من العدل وإن لم يكن العدل كله . فقد نستطيع تقسيم فئات الشعب إلى ثلاث طبقات بصفة عامة

---

(١) Grohmann : Arabic Papyri in the Egyptian Library vol. III. pp. 197-198, 201-203, 217, 219, 220-221

(٢) أبو يوسف : كتاب الخراج ص ٦٩ ، ويحيى بن آدم القرشى : كتاب الخراج ص ٥١ ، والماوردى : الأحكام السلطانية ص ١٣٨

ولكن من الطبيعي أن هناك اختلافات وفروقا كثيرة فى الثروة والإمكانيات بين أفراد الطبقة الواحدة . وعلى أية حال فإن كلام الفقهاء كان فى معظم الأحيان نظرياً لا يعدو أن يكون أمانى وأملا فى السير نحو المثل العليا . فالفقهاء هنا يؤيدون فكرة تقدير الجزية حسب ثروة الشخص بصفة عامة .

والواقع أن العرب لم يحددوا قيمة الجزية على أهل الذمة فى مصر ، وإنما اكتفوا بفرضها عليهم كما يظهر ذلك من نص معاهدة بابليون الأولى (١)

ويذكر المؤرخون أن صاحب إخنا (٢) قدم على عمرو بن العاص وقال له : « أخبرنا ما على أحدنا من الجزية ... فقال عمرو وهو يشير إلى ركن الكنيسة : لو أعطيتنى من الأرض إلى السقف ما أخبرتك ما عليك إنما أنتم خزانة لنا إن كثر علينا كثرنا عليكم وإن خفف عنا خففنا عنكم » (٣)

أى أن تقدير الجزية فى مصر ترك للوالى أو الخليفة . كذلك روعى فى الجزية تناسبها مع ثروة الشخص كما أثبت ذلك فى أوراق البردى التى ترجع إلى هذا العصر .

---

(١) انظر الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ج ٤ ص ٢٢٩ ، وابن خلدون : كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ج٢ص١١٥ ، القلقشندى : صبح الأعشى ج١٣ص٣٢٤، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ١ ص ٢٤ ــ ٢٥

(٢) إخنا بالكسر ثم السكون كورة بالقرب من الإسكندرية . انظر ياقوت : معجم البلدان ج ١ ص ١٦٦

(٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر (طبعة تورى) ص ١٥٣ — ١٥٤ ، خطط المقريزى ج ١ ص ٧٧

وكانت الجزية فى مصر تدفع بالدنانير وكسورها .

وكما كانت الجزية تجبى من أهل الذمة كان يجبى من المسلمين الزكاة أو الصدقة . ويقول المقريزى[1] إن أول من جبى الزكاة بمصر السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب .

ولكن أوراق البردى أثبتت غير ذلك . إذ تبين منها أن الولاة فى مصر كانوا يقومون بجباية الزكاة ويتسلم الأهالى إيصالا أو براءة بعد تأدية ما يجبى عليهم من الزكاة بمقتضى الشريعة الإسلامية . ولدينا إيصال يرجع إلى القرن الثانى الهجرى (سنة ١٤٨ هـ) عن زكاة بعض الأشخاص[2]

الخراج والملكلية العقارية:

ومن الضرائب الهامة فى عصر الولاة الخراج ، والخراج معناه ضريبة الأرض أو الضريبة العقارية . والمعروف أن مصر فتحت عنوة ولكن العرب أبقوا أراضى مصر على حالها ولم يتعرضوا لها ، ومنحوا المصريين عهداً عرف باسم صلح بابليون الأول إذ أن العرب كانوا يعتبرون أنفسهم محاربين للروم لا للمصريين ، كذلك عند ما فتح العرب الإسكندرية سنة ٢٥ هـ عنوة كان فتحها انتصاراً على الروم ولم يؤثر ذلك فى عهد الصلح الذى أعطاه العرب للمصريين فى معاهدة بابليون الأولى .

وهناك فرق بين الأرض التى تفتح صلحاً والتى تفتح عنوة . أما الأرض التى تفتح صلحاً أى بدون قتال وبمقتضى عهد فيتفق اهلها

(١) الخطط ج ١ ص ١٠٨

(٢) Grohmonn : Arapic Papyri vol III. p· 177

مع الفاتحين على مقدار الجزية والخراج الذى يؤخذ منهم دون أن يمس الفاتحون الأرض أو يأخذوها عنوة وقهراً . وأما الأرض التى تفتح عنوة فتكون فى حكم الغنيمة ، وتقسم بين الفاتحين طبقاً للآية الكريمة (واعلموا أنما غنمتم من شىء فأن لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل) [١] ويفسر الفقهاء المسلمون ذلك بأن الخمس الذى لله عز وجل مردود من الله تعالى على الذين سمى الله (للرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل) لا يوضع فى غيرهم ويوزع الرسول أو الإمام ذلك بين من يحضر من هؤلاء بعد أن يجتهد ويتحرى العدل أما الأربعة الأخماس فيقسمها الإمام بين المسلمين الغانمين الفاتحين .

وقد أبقى العرب أرض مصر على حالها وأجريت مجرى البلاد المفتوحة صلحاً بالرغم من فتحهم لمصر عنوة كما ذكرت ، وهذا مما يجيزه الفقهاء للفاتحين . ولا ريب فى أن عمر بن الخطاب أظهر حكمة بالغة باتباعه تلك السياسة وهى عدم تقسيم الأراضى بين الفاتحين ، ولا سيما أنه لم يفعل ذلك فى مصر وحدها بل فى العراق والشام ، فإنه لم يرد أن يشغل جنده بالزراعة والأراضى بينما الجهاد يناديهم فى كل مكان ، كما أن العرب فى جملتهم لم يكونوا أمة زراعية . ومن جهة أخرى رأى عمر بن الخطاب ألا يثير عليه سخط أهالى البلاد المفتوحة حتى يعاونوه على تثبيت سلطان المسلمين ، كما أن أهل مصر وغيرها كانوا أعلم بزراعتهم وريهم . ولابد أن الخليفة عمر كان يسترضى جنده

---

(١) سورة الأنفال آية ٤١

ويعوضهم عن امتلاك الأرض بمنحهم الأموال والغنائم الأخرى غير الأرض .

وكان الخراج فى مصر يجبى نقداً وعينا وتعرف الضريبة العينية باسم ضريبة الطعام ، وكان القمح أهم ما يجبى من ضريبة الطعام ولكن هذه الضريبة كانت تشمل أحيانا غير الغلال ، الزيت والعسل وأنواع الطعام الأخرى ، وكان يصرف من المال الذى يجبى عطاء الجند المرابط فى مصر كما أن أرزاق الجند فى مصر كانت تعتمد على ضريبة الطعام .

وكان الخراج فى مصر يجبى على أساس مساحة الأرض التى يملكها الشخص كما كان الحال فى عهد الرومان والبيزنطيين ، كما أنه كان يراعى فى تقدير تلك الضريبة حالة فيضان النيل فى كل عام لارتباطه بالزراعة ، وكمية المحصول التى تنتجها الأرض .

ونلاحظ أن الضرائب التى ترسل إلى الخلافة كانت عيناً ونقداً أيضا . وعقب الفتح مباشرة بدأت مصر ترسل القمح إلى المدينة المنورة عاصمة الخلافة الإسلامية كما كانت ترسله لروما ومن بعدها لبيزنطة . وقد كانت الغلال ترسل أولا إلى المدينة بوصفها مقر الخلافة ولكن إرسالها لم يبطل إلى يومنا هذا — إذا استثنينا فترات معينة — بالرغم من أنه حل محل المدينة عواصم أخرى للخلافة ، وبالرغم من التغيرات السياسية التى حدثت فى مصر وفى الخلافة نفسها .

ولدينا بعض النصوص التى تشير إلى مقدار ماكان يرسل نقداً إلى بيت الخلافة . فيقال : إنه فى زمن معاوية أرسل واليه على مصر

مسلمة بن مخلد (٤٧ — ٦٢ هـ) ستمائة ألف دينار [1] إلى بيت المال بعد أن دفع عطاء الجند وأنفق على البلاد ما تحتاج إليه وبعد إرسال القمح إلى الحجاز .

ويذكر ساويرس [2] ، المؤرخ المصرى القبطى ، أن ما كان يحمل إلى بيت المال ماتتا ألف دينار بعد النفقة على الأجناد وما تحتاج إليه البلاد .

ونلاحظ أنه وجدت فى مصر منذ الفتح العربى أراض امتلكتها حكومة العرب ، إذ كان هنالك قبل الفتح أراض يمتلكها الأباطرة امتلاكا خاصا غير تلك الأراضى التى كان يمتلكها سائر أفراد الشعب سواء أكانوا من الروم أم من المصريين ، فهذه الأراضى التى كانت ملكا خاصا للأباطرة أو التى هرب أهلها أو ماتوا زمن الفتح آلت إلى الخليفه وارث الأباطرة فى مصر ، فكان له حق التصرف فيها وكان تصرفه هذا لا يمس حقوق الأهالى ولا ينقض الصلح الذى أعطاه العرب للمصريين . وكانت حكومة العرب تتبع فى الانتفاع بالضياع التى استولت عليها طريقة الإقطاع ، وكان أقدم إقطاع فى مصر ذلك الذى أقطعه عمر بن الخطاب للصحابى ابن سندر فى مكان عرف باسم منية الأصبغ وموقعه الآن شمالى القاهرة قرب ضاحية الدمرداش الحالية .

---

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر (طبعة تورى) ص ١٠٢

(٢) سير الآباء البطاركة (Patr. Orient. T. V.) ص ١٨٩

وقد زادت الضياع التابعة للحكومة زيادة كبيرة بما أضيف إليها من الموات[1] أو الأرض المهجورة أثناء الحكم العربى .

ونلاحظ أن إقطاع الأرض بدأ فى عصر الولاة فى مصر ولكن بدءه وتطوره يختلفان عن نظام الإقطاع فى الغرب ، لأن من العوامل الأساسية فى نشأة الإقطاع فى الغرب وفى أسباب منحه ، رغبة الأمير أو الملك فى أن يحصل على عون حربى ممن دونه من الأمراء والأشراف بينما لم يدخل العنصر الحربى فى نظام الإقطاع الإسلامى فى مصر إلا فى نهاية العصور الوسطى على يد الأيوبيين ثم المماليك ، ودخل بأسلوب آخر ، يتلخص فى انتفاع الجند بدخل الإقطاعات المختلفة بغير منحهم الأراضى للإقامة فيها وزراعتها وبغير أن يكون لهم حق الوراثة فى الانتفاع بها .

وكان يدفع عن الأرض التى امتلكها المسلمون بعد الفتح العربى العشر زكاة لها كما يزكى المسلم عن أنواع الأموال الأخرى . ومن الوجهة النظرية كان القبطى الذى يعتنق الإسلام تصبح أرضه عشرية ، ولاشك أن هذه النظرية طبقت بعض الوقت ثم رأت الحكومة أن فى هذا جلل الخطر على مالية القطر فأصبح نوع الضريبة متصلا بالأرض نفسها وأصبح القبطى إذا اعتنق الإسلام لا تعفى أرضه من الخراج . والواقع أن هذه العملية يمكن الدفاع عنها من وجهة النظر المالية والاقتصادية لأن دخل الحكومة وماليتها يجب أن يكونا مستقلين إلى حد كبير عن الظروف الخاصة غير المنظورة كاعتناق الأشخاص الدين الإسلامى وما إلى ذلك مما يصعب

(١) الموات بعكس العامر من الأرض أى الأرض التى تحتاج إلى تعمير وإصلاح

على الحكومة تقدير أثره فى ماليتها . والواقع أن نظام الأرض فى مصر بعد الفتح العربى وما عليها من ضرائب عشرية أو خراجية كان نظاما مطاطا مرنا ولم يستقر الا بعد مدة طويلة . والمعروف أن الأرض فى مصر فى عصر الولاة أصبح يفرض عليها الخراج بمضى الوقت سواء أسلم مالكها أو كانت ملكا لأحد المسلمين . ونعرف أن الأقباط والمسلمين على السواء ثاروا فى العهد العباسى فى عصر الولاة من أجل زيادة الخراج زيادة أجحفت بهم .

ضرائب الصناعة والتجارة .

فرض العرب بعد الفتح ضرائب على الصناع والعمال وكانت تقدر بقدر احتمالهم . وكذلك فرض العرب على التجار فى مصر أى على التجارة الداخلية ضرائب عرفت بالمكوس [1] وكان مقر ادارة هذه الضرائب فى الجهة التى عرفت باسم المقس ، وهى قرية أم دنين التى كانت تقع شمالى الفسطاط وانما سميت المقس لأن صاحب المكس كان مقره هناك فقيل المكس وقلب فقيل المقس .

كذلك فرض العرب ضرائب على التجارة الخارجية التى تمر بثغورها أو التى ترد إليها أو تصدر منها فكانت المكوس تجبى من التجار فى الثغور المصرية وهى دمياط وتنيس ورشيد وعيذاب وأسوان والإسكندرية.

---

(١) المكس فى اللغة الجباية يقال مكسه يمكسه مكسا . ويقال للماكس أو صاحب المكس العشار أو العاشر ، وعشر القوم معناه أخذ عشر أموالهم والعشار هو قابض العشر .

وقد قرب المسلمون ضرائب التجارة من نظام الزكاة أو العشور .

الضرائب الأخرى :

كانت حكومة العرب تفرض ضرائب أخرى غير عادية تبعا لازدياد مصروفات الدولة عن إيراداتها وقد ورد ذكر مثل تلك الضرائب فى الأوراق البردية التى ترجع إلى عهد الأمويين فى مصر .

كذلك لجأ العباسيون إلى فرض مثل تلك الضرائب التى زادت زيادة كبيرة فى عهدهم ، ففرضت ضرائب على أهل الأسواق والدواب وغير ذلك . وزادت الضرائب غير العادية زيادة فاحشة منذ أن ولى أحمد بن محمد بن المدبر خراج من مصر فى سنة ٢٤٧ هـ ففرض ضريبة على الكلأ الذى ترعاه البهائم سماها المراعى ، وفرض ضريبة على ما يستخرج من البحر سماها المصايد وذلك بين سنتى ٢٤٧ و ٢٥٣ هـ . كذلك حجر ابن المدبر على النطرون بعد ما كان مباحا لجميع الناس . وانقسمت ضرائب مصر منذ مجيء ابن المدبر إلى ضرائب خراجية وهى التى تجبى سنويا ، وضرائب هلالية وهى التى تجبى شهريا ، وعرفت الضرائب الهلالية باسم المرافق والمعاون .

الالتزامات أو الليتورجيا Leiturgia

وجدت أنواع من الضرائب فى العهد العربى يمكننا أن نسميها الالتزامات، وهذا النوع وجد قبل الفتح العربى. وعرف نظام الالتزامات فى العالم القديم باسم الليتورجيا Leiturgia ومعناه التزام الشخص أو الجماعة ببعض الخدمات للدولة . ففى أثينا فى بلاد اليونان كان كل مواطن

يمتلك نصيبا معينا من الأملاك يقـــدم إلى الدولة بعض الخدمات الشخصية(١) . ولكن هذا النظام لم يكن فى العصر الإسلامى عاما كما كان عند الإغريق القدماء ، بمعنى أنه كان ظاهرا فى الضرائب وما يتصل بها ، فكانت الكورة تلزم بأداء نوع من الخدمة للدولة أو بدفع مبلغ فى مقابل إعفائها من ذلك . وفى بعض الأحيان كان الوالى يوصى عماله على الكورات بجمع الأشخاص أو المواد اللازمة لهذه الخدمات وبعدم قبول المال مقابل الإعفاء من أدائها .

ومن أهم أنواع الالتزام أو الليتورجيا فى عصر الولاة :

١ — تقديم العمال والأدوات اللازمة لتشييد الطرق وحفر الترع أو كريها .

٢ — تقديم مواد غذائية مختلفة مما تشتهر بإنتاجه الكورات .

٣ — إيواء الجند وضيافتهم ،فقد اشترط على القبط بعدفتح العرب لمصر أن من نزل عليه ضيف واحد أو أكثر من المسلمين وجبت عليه الضيافة لهم ثلاثة أيام، ولعل السبب الذى حدا بالعرب إلى ذلك هو أنهم فى أول عهدهم بمصر كانوا جنودا ، وكانت إقامتهم قاصرة على العاصمة التى بنوها لأنفسهم ، أو فى الثغور لحمايتها ضد الأعداء . وقد أخذ العرب واجب الضيافة هذا من الرومان والبيزنطيين فى مصر .

---

(١) كانت هذه الخدمات كثيرة النفقات وكانت فى البداية نتيجة طبيعية للامتيازات السياسية التى ينعم بها الأثرياء فكانوا يؤدونها للجمهورية ليكون نصيبهم من الضرائب أثقل من نصيب الفقراء . ولكن لما ازدهرت الديموقراطية فى أثينا وأصبح المواطنون متساوين فى الحقوق السياسية تغيرت طبيعة تلك الامتيازات ، وصارت نوعاً من ضرائب الدخل .

٤ — من الالتزامات أيضا تقديم الموظفين ذوى الخبرة لبعض الأعمال الحكومية .

٥ — تقديم المواد والأيدى العاملة اللازمة لتشييد المبانى العامة فى مصر، بل ولعمارة المساجد فى الشام وبلاد الحجاز .

٦ — تقديم البحارة ومواد بناء السفن .

ونلاحظ على وجه الإجمال أن النظام المالى العربى كان مأخوذا إلى حد كبير من النظام البيزنطى ، ولم يكن أخف منه وطأة إلا أنه كان يمتاز بتبسيطه بعض الشيء ؛ فقد أبطل العرب وخاصة فى أول عهدهم بالفتح بعض الضرائب التافهة التى استحدثها البيزنطيون ، إلا أن النظام المالى فى مجمله لم يكن سوى صورة مماثلة للنظام البيزنطى . وقد زادت وطأة هذا النظام خاصة فى عهد أصحاب إقطاع مصر من الأتراك كما يتبين من أوراق البردى .

نظام جباية الضرائب :

كان حاكم مصر فى العهد البيزنطى يقدر الضرائب على أساس المعلومات التى يقدمها إليه الحكام المحليون ، وقد اتبع العرب بعد فتحهم لمصر النظام نفسه ، فكان كل صاحب كورة يتصل بالوالى أو عامل الخراج لتأدية الضرائب الواجبة على كورته وعلى القرى التى تدخل فى دائرة هذه الكورة ، وكان يشرف على تقدير هذه الضرائب رؤساء القرى وذوو النفوذ فيها تحت إشراف صاحب الكورة .

ولدينا ورقة بردية خاصة بجباية الضرائب فى عصر الولاة زمن الأمويين ، نرى فيها والى مصر قرة بن شريك يرسل إلى صاحب كورة

أشقوه تعليمات خاصة بجباية الضرائب فيأمره بجمع رؤساء كل قرية وذوى النفوذ فيها كى يختاروا رجالا أمناء أذكياء ليكلفهم بتقدير ما على كل قرية من الضرائب بقدر استطاعتهم . وبعد أن يقوموا بمهمتهم هذه تحت إشراف صاحب الكورة ، يطلب منه أن يرسل إليه نتيجة عملهم بعد أن يحتفظ بنسخة لنفسه ، ويطلب منه أيضا أن يكتب أسماء وألقاب ومحل إقامة هؤلاء الذين قاموا بتقدير الضرائب ، وينذره بأنه إذا وجد أن قرية حملت أكثر مما تحتمل من الضرائب أو أقل فإنه سيعاقب هؤلاء الذين قاموا بتقدير الضرائب وصاحب الكورة أيضا أشد عقاب .

وقد وجد فى مصر فى العصر العباسى نظام آخر لجباية الضرائب عرف باسم « قبالات الأراضى » ومعناه أن أحد الأشخاص يضمن دفع ضريبة معينة لمنطقة معينة أو يلتزم بتنفيذها وكان مثل هذا النظام موجودا فى العهد البيزنطى .

وكان عامل الخراج فى عصر الولاة زمن العباسيين ، يعقد مزادا فى جامع عمرو بن العاص لتقبل الأرض أو ضمان خراجها ، وكان التقبل لأربع سنوات (حتى تتعادل سنو المحصول الضعيف بسنى المحصول الطيب) وكان المتقبل يخصم من المبلغ المطالب بدفعه ما ينفقه فى كرى الترع وعمارة الجسور وحفر القنوات وما تتطلبه الأراضى الزراعية من أعمال وإصلاح . ولدينا نص من المقريزى[1] عن هذا النظام فيقول :

وكان من خبر أراضى مصر - بعد نزول العرب بأريافها واستيطانهم وأهاليهم فيها واتخاذهم الزرع معاشا وكسبا ، وانقياد جمهور القبط إلى

---

(١) الخطط ج ١ ص ٨٢

إظهار الإسلام واختلاط أنسابهم بأنساب المسلمين لنكاحهم المسلمات ـ أن متولى خراج مصر كان يجلس فى جامع عمرو بن العاص من الفسطاط فى الوقت الذى تتهيأ فيه قبالة الأراضى ، وقد اجتمع الناس من القرى والمدن، فيقوم رجل ينادى على البلاد صفقات صفقات، وكتاب الخراج بين يدى متولى الخراج يكتبون ما ينتهى إليه مبالغ الكور والصفقات على من يتقبلها من الناس ؛ وكانت البلاد يتقبلها متقبلوها بالأربع سنين لأجل الظمأ والاستجارة وغير ذلك ، فإذا انقضى هذا الأمر خرج كل من كان تقبل أرضا وضمنها إلى ناحيته ، فيتولى زراعتها وإصلاح جسورها وسائر وجوه أعمالها ، بنفسه وأهله ومن ينتدبه لذلك ، ويحمل ما عليه من الخراج فى إبانه على أقساط ، ويحسب له من مبلغ قبالته وضمانه لتلك الأرضى ما ينفقه على عمارة جسورها وسعة ترعها وحفر خلجها بضرابة مقدرة فى ديوان الخراج . ويتأخر من مبلغ الخراج فى كل سنة فى جهات الضمان والمتقبلين ، يقال لما تأخر من مال الخراج البواقى . وكانت الولاة تشدد فى طلب ذلك مرة وتسامح به مرة ، فإذا مضى من الزمان ثلاثون سنة حولوا السنة[1] وراكوا[2] البلاد

---

(١) تحويل السنة معناه تحويل السنين القمرية إلى شمسية فاذا جمع الخراج على حسب السنين القمرية فكأننا نجمع الخراج فى مدى ٣٢ سنة شمسية ثلاثة وثلاثين مرة وهذا ضد طبيعة الأشياء وعلى هذا تحذف سنة كل ٣٣ سنة قمرية أى يحذف كل ٣٣ سنة قمرية خراج سنة وهذا ما يسمي التحويل (خطط المقريزى ج ا ص ٧٣ ، De Sacy : Sur la nature et les revolutions . . . . p. 200)

(٢) الفعل راك والفعل روك . معناه تقويم الأراضى ومسحها De Sacy : op. cit. p. 200)

كلها وعدلوها تعديلا جديدا فزيد فيما يحتمل الزيادة من غير ضمان البلاد، ونقص فيما يحتاج إلى التنقيص فيها، ولم يزل ذلك يعمل فى جامع عمرو ابن العاص إلى أن عمر أحمد بن طولون جامعه وصار العسكر[1] منزلا لأمراء مصر فنقل الديوان إلى جامع أحمد بن طولون.»

وقد ظهرت فى العصر العباسى أيضا مسألة ضمان الوالى لخراج مصر كله فكان الخليفة يجعل الوالى يلتزم بدفع مبلغ معين عن القطر كله. وهناك فرق واضح بين من يلى خراج مصر وبين من يضمن خراجها، فكان يبعد أن يرفض أى شخص ولاية خراج مصر ولكن من المعقول أن يرفض ضمان خراجها وذلك خشية العجز عن القيام بما التزم به نظرا لاضطراب أمور البلاد فى كثير من الأحيان أو لاحتياجه إلى المال للنفقة على الإدارة وعلى الجند.

ديوان الخراج والأموال:

كان فى مصر فى عصر الولاة ديوان للخراج والأموال. ويظهر أن بيت المال فى مصر لم يكن وقفا على حفظ أموال الضرائب فحسب، فإنا نعلم أن الخليفة أبا جعفر المنصور أرسل إلى أبى عون والى مصر (١٣٣ — ١٣٦ هـ) يأمره بإدخال أموال اليتامى فى بيت المال، وربما كان يرد إلى بيت المال أيضا المواريث التى يموت أصحابها دون أن

---

(١) فى الواقع كانت القطائع هى مقر أمراء الدولة الطولونية منذ أن بناها أحمد بن طولون لا العسكر.

يكون لهم ورثة . ولعل خمس الغنيمة التي كان يغنمها المصريون فى فتوحاتهم فى الغرب والجنوب كانت ترد إلى بيت المال أيضا .

وكان يشرف على كل فرع من فروع ديوان الخراج والأموال فى الأقاليم موظف يسمى الجسطال .

أما الضرائب العينيـــة المكونة من الحبوب فكانت ترسل إلى أهراء العاصمة .

النقود الإسلامية فى مصر :

كانت الجزية والضرائب المختلفة وإيجار الأراضى وأجور العمال وعطاء الجند وسائر المعاملات فى عصر الولاة تدفع بالدنانير الذهبية وأقسامها . ولم يكن هذا جديدا فى مصر الإسلامية ، بل كان أساس التعامل قبل الفتح العربى هو العملة الذهبية . وقد وجدت عملة مساعدة إلى جانب الذهب وهى الدراهم الفضية كما كان هناك نقود صغيرة — كالقروش وكسورها الآن — من العملة البرنزية .

والمعروف أن العرب قبل الفتوحات كانوا يتعاملون بالدراهم الفضية الفارسية والدنانير البزنطية الذهبية ، وظلوا يتعاملون بالنقود الأجنبية بعد أن تغلبوا على البلاد المختلفة . إلا أن عمر بن الخطاب ضرب بعض الدراهم على شكل الفارسية ، ونقش عليها عبارات إسلامية مثل «الحمدلله» و « الله أكبر » و« لا إله الا الله وحده » و « محمد رسول الله » .

وكذلك فعل الخليفة عثمان بن عفان إذ ضرب دراهم ونقش عليها « الله أكبر » .

ونعرف أن معاوية بن أبى سفيان سك دراهم ودنانير . وكذلك ضرب عبد الله بن الزبير الدراهم فى مكة حين دعا لنفسه بالخلافة، وضرب أخوه مصعب بن الزبير دراهم بالعراق ، وقد تأثرت مصر بما يجرى فى الخلافة فكان يتعامل فيها بالنقود الإسلامية جنبا إلى جنب مع النقود التى كانت موجودة قبل الفتح .

ولم تثبت النقود الإسلامية على وزن واحد بل كانت متغيرة الأوزان إلى أن ولى عبد الملك بن مروان الخلافة (٦٥ — ٨٦ هـ) وتمهدت له الأمور فى الدولة بعد القضاء على منافسيه والخارجين عليه فأراد أن يصلح النقود ويوحدها فى جميع المملكة الإسلامية وأن يستغنى عن النقود الأجنبية ، وقد تم لعبد الملك ما أراد فى سنة ٦٧ هـ وأرسل إلى الأمصار الإسلامية كلها ومن بينها مصر لتضرب نقودها بمقتضى السكة التى ضربت فى دمشق مقر الخلافة . وكانت هذه الخطوة مظهرا هاما من مظاهر استكمال السيادة العربية حتى إن مؤرخى الإسلام ذكروا أن عبد الملك بن مروان أول من ضرب النقود فى الإسلام مع أنه وجدت نقود إسلامية قبل عبد الملك ، ولكن الخليفة الأموى كان أول من نظم سك النقود وجعلها وزناً واحداً وجعلها تسرى فى جميع أنحاء المملكة الإسلامية كما استغنى عن النقود الأجنبية .

وكان الخلفاء من بعد عبد الملك يضربون سكة على وزن سكته وأحيانا يغيرون فى أوزانها . ولما زالت الخلافة الأموية فى سنة ١٣٢هـ صار الخلفاء العباسيون يضربون سككا أيضا . وظلت السكة فى مصر خاضعة للسكة الإسلامية إلى أن استقلت مصر عن الخلافة فبدأ يظهر فى الأفق سكة إسلامية مصرية خاصة بمصر .

٣ — النظام الحربى

(١) الجيش

بعد أن تم للعرب فتح مصر بقى بها جيش احتلال عربى ، ولم يشرك العرب المصريين فى هذا الجيش ، ولم يرد فى صلح بابليون أية إشارة تدل على السماح للمصريين بالاشتغال بالجندية . وربما دعا العرب إلى انتهاج تلك السياسة خوفهم من أن يحيي المصريون روح القومية المصرية على حسابهم وأن يقوموا بطردهم من بلادهم متى حانت لهم الفرصة فرأوا أن يبعدوهم عن الأعمال الحربية وألا يتركوا لهم إلا الأعمال المدنية ، وربما كان العرب يشكون فى كفاءة المصريين الحربية إذ كان المصريون زمن الفتح قد غمرتهم روح التواكل والاستسلام ، بينما كان العرب حينذاك شعبا يتقد حماسة وشجاعة .

وكان فى مصر ديوان للجند تدون فيه أسماؤهم وأسراتهم لتقرير العطاء والأرزاق اللازمة لهم . وكان عمرو بن العاص هو أول من دون ديوان الجند فى مصر فى زمن الخليفة عمر بن الخطاب . وكان الجند يثبتون فى الديوان على حسب قبائلهم التى ينتمون إليها . ونلاحظ هذا التقسيم فى الجيش الذى فتح مصر ، إذ كان مقسما على حسب القبائل . كذلك روعى هذا التقسيم فى مدينة الفسطاط التى اختطها العرب ، إذ اتخذت كل قبيلة لنفسها خطة مستقلة عن القبائل الأخرى .

وكان الجند فى مصر عربا حتى نهاية الدولة الأموية . أما فى زمن

الدولة العباسية فقد جدت عناصر فارسية دونت فى الديوان مع العرب ثم مالبث أن ظهر عنصر آخر طغى على العنصر العربى والفارسى وقوام هذا العنصر الجديد الجند الأتراك الذين استكثر منهم الخليفة المعتصم وأثبتهم فى الديوان . بل إن المعتصم أمر واليه على مصر كيدر نصر ابن عبد الله بإسقاط العرب من الديوان وقطع أعطياتهم فى سنة ٢١٨ ﻫ ونفذ كيدر هذا الأمر ، وكان من أثر ذلك أن انتشر العرب فى أنحاء مصر يسعون وراء الرزق عن طريق آخر غير طريق الجهاد والحرب ، فاحترفوا الزراعة والتجارة والصناعة وغيرها من المهن والحرف التى كانت إلى ذلك الوقت وقفا على أهل البلاد .

وقد عرفنا من أوراق البردى التى وصلت إلينا أن الوالى كان يطلب المال من أصحاب الكور عند حلول موعد عطاء الجند وأسراتهم ، أو يطلب من أصحاب الكور إرسال ضريبة الطعام لتوزيع الأرزاق على أهل الديوان .

ولسنا نعرف تماما المبادىء التى كانت تقدر على أساسها أعطيات الجند ، وهل كان ينظر إلى القبيلة وسابقتها فى الإسلام وفضلها فى الجهاد أو كان الأساس قدر ما على الشخص من التزامات عائلية . ولكن من المحتمل أن بعض الخلفاء كان يزيد فى أعطيات بعض القبائل استرضاء لها واصطناعا لأبنائها ، ولعل عطاء الفارس كان ضعف عطاء الراجل ليستطيع أن ينفق منه على فرسه .

وكان يراعى فى تقدير العطاء أن يغنى المرء عن الاشتغال بحرفة أخرى تشغله عن القتال والحرب . ومهما يكن فقد كان من الواجب أن

يراعى فى تقدير العطاء ثلاثة وجوه : أولا — عدد من يعوله الفرد وثانيا — عدد ما عنده من الخيل وثالثا — مستوى المكان الذى يعيش فيه ، وهل يسود المكان الغلاء أو الرخص .

أما إذا مات أحد أفراد ديوان الجند أو قتل فالظاهر أن عطاءه كان يصبح إرثا من بعده يأخذه ورثته، وذلك تشجيعا للجنود على التجند. وفى بعض الأحيان كان ورثته يحالون على مال العشر والصدقة باعتبار أن العطاء يسقط بموت صاحبه .

ولم يستمر تقدير العطاء على حال واحدة فبعض الخلفاء كانوا يزيدونه والبعض الآخر كانوا ينقصونه . على أن إنقاص العطاء والأرزاق كثيرا ما كان يثير اضطرابات ومشاكل عدة بين الأجناد العرب المقيمين فى مصر خصوصا فى أواخر الدولة الأموية وفى خلال الدولة العباسية عندما أصبح العرب يملكون أراضى زراعية ،إذ أصبحوا يؤدون خراجا وفى الوقت نفسه يأخذون عطاء ، وإنقاص العطاء أو زيادة الخراج يكون معناه زيادة الأعباء المالية على العرب ، وكان هذا سببا فى ثوراتهم بمصر .

ولسنا نعرف كيف كانت الأعطيات تصرف للجند ، ولكن أكبر الظن أن الجند كانت فيهم رتب مختلفة من أمير وعريف وخليفة وقائد ونقيب وما إلى ذلك من الرتب التى لم نتبين تماما الفرق بين كل منها والآخر فى فجر الإسلام ، ومن المحتمل أن العرفاء كانوا يتسلمون الأعطيات ويتولون تفريقها على الجند . ويظهر أنه كان هناك وقت معين يعرفه الجند أو أهل الديوان ، يتسلمون فيه عطاءهم على رأس كل سنة . ويقال

إن مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية قطع العطاء عن جند مصر سنة فكتب إليهم كتابا يعتذر فيه فى السنة التالية ويقول: « إنى إنما حبست عنكم العطاء فى السنة الماضية لعدو حضرنى فاحتجت فيه إلى المال، وقد وجهت إليكم بعطاء السنة الماضية وعطاء هذه السنة فكلوا هنيئا مريئا وأعوذ بالله أن أكون أنا الذى يجرى الله قطع العطاء على يديه »[1].

وقد سبق أن ذكرت أنه اشترط على المصريين ضيافة الأجناد فمن نزل عليه جندى أو أكثر وجبت عليه ضيافتهم ثلاثة أيام، وهذا كان يوفر على الجند كثيراً من العناء عند انتقالهم من جهة إلى أخرى فى أنحاء مصر.

ونلاحظ أن التجنيد كان تطوعا فى البداية، ثم دخله نوع من الإلزام فى عصر بنى أمية.

وأكبر ظننا أن حال التجنيد من تطوع وإلزام كانت تتغير بين حين وآخر بتغير الأمراء واختلاف ظروف القتال، وقوة الخلافة نفسها، ونوع العناصر التى كانت تعتمد عليها فى تكوين الجيوش الإسلامية.

وكان ملحقا بالجيش طائفة تسمى المطوعة وربما كان أساسها أهل البلاد الذين كانوا فى جيش مصر أثناء الفتح العربى لها. وهذا لا يخالف ما ذكرناه من أن العرب أبعدوا المصريين عن الاشتراك فى الجيش؛ إذ أن هؤلاء المطوعة لم يدخلوا فى صلب الجيش ولم يشتركوا اشتراكا فعليا فيه، ويغلب على الظن أنهم كانوا يقومون بأدوار ثانوية فى خدمة

---

(١) الماوردى: الأحكام السلطانية ص ١٩٥ — ١٩٦

الجيش ، وفى أوقات الضرورة القصوى ، كما كان عملهم مقصورا على مصر وحدها . ولم يكن لهؤلاء المطوعة عطاء ولم يثبتوا فى الديوان ، إنما كان عطاؤهم من الصدقات .

وكان الخلفاء يهتمون اهتماما خاصا بحامية مصر إذ أن موقع مصر يتطلب السهر دائما على شئونها والعناية بالجيش الذى يحميها ؛ فمصر تقع فى منطقة يسهل منها التوسع جنوبا وغربا وشرقا بل وشمالا عن طريق البحر الأبيض المتوسط ، أى أنها قاعدة للفتوحات والتوسع ما دامت محتفظة بقوتها ، أما اذا تطرق إليها الضعف فإن العدو يهددها من هذه الجهات .

وقد روى أن عمرو بن العاص قال فى خطبة له بمصر : « واعلموا أنكم فى رباط إلى يوم القيامة لكثرة الأعداء حولكم ولإشراف قلوبهم إليكم وإلى داركم معدن الزرع والمال والخير الواسع والبركة النامية » .[1]

ولا بد أن حامية مصر قد زادت بعد الفتح زيادة كبيرة إذ تذكر المصادر أن حامية الإسكندرية أو رباطها كان اثنى عشر ألفا بين سنتى ٤٣ و ٤٤ هجرية ولكن قائد هذا الرباط كتب إلى عتبة بن أبى سفيان والى مصر آنذاك يشكو قلة من معه من الجند وأنه يتخوف على نفسه وعليهم[2] . ونحن نستطيع أن نلمس هذه الزيادة الكبيرة إذا تذكرنا أن الجيش الذى قدم إلى مصر لفتحها قبل ذلك بنحو عشرين عاما كان كله يتراوح بين ١٢ ألفا و ١٥ ألفا من الجنود .

(١) خطط المقريزى ج ١ ص ٢٦

(٢) الكندى : الولاة والقضاة ص ٣٦

وقد ظلت مصر طوال عصر الولاة قاعدة للفتوحات والتوسع تخرج منها جيوش الخلافة جنوبا وغربا ، إما لتأمين حدودها مثل تلك الحملات التى ذهبت لفتح النوبة أو لفتح برقة ، وإما لمشاركة جيوش الخلافة فى حملاتها للتوسع غربا .

(ب) البحرية

اشتهرت مصر منذ البداية بصناعة السفن التى كان يحتاج إليها أسطول الخلافة، والمعروف أن العرب عند ظهور الإسلام لم يكونوا شعبا بحريا ولكن عندما اتسعت إمبراطوريتهم وشملت شعوبا وأمما بحرية ، وعندما اضطروا إلى محاربة شعوب بحرية وعملوا على الاستيلاء على جزائر فى البحار ، بدءوا يشعرون بحاجتهم الماسة إلى أسطول يكون عونا لهم فى تحقيق أمانيهم فى مد سلطانهم وغزو الروم فى عقر دارهم . وكان طبيعيا أن يستخدم العرب فى بناء أسطولهم وفى غزواتهم البحرية شعوب الأمم التى فتحوها والتى مرنت على ركوب البحار منذ القدم . وقد أفاد العرب من خبرة المصريين البحرية ، ومن العمال المصريين أيما إفادة وأصبحت مصر عقب الفتح مركزا لصناعة السفن اللازمة لأسطول الخلافة كما كانت تمد هذا الأسطول بخبرة الملاحين والعمال المصريين . والمعروف أن المسلمين بدءوا يغزون فى البحر ويعنون ببناء السفن الحربية منذ عهد الخليفة عثمان بن عفان (٢٣ — ٣٥ هـ) وقد كان عمر ابن الخطاب يخشى على المسلمين من غزو البحار ، ونعرف أن العلاء

ابن الحضرمى ندب أهل البحرين حين كان أميرا عليها إلى غزو فارس عن طريق البحر بغير إذن الخليفة فغرقت سفن المسلمين، وغضب عمر ابن الخطاب على العلاء وأمر بتأمير سعد بن أبى وقاص عليه. ولما فتح المسلمون الشام ألح معاوية بن أبى سفيان — وكان أميرا حينذاك على جند دمشق والأردن — على الخليفة عمر بن الخطاب فى غزو البحر معللا ذلك بقرب الروم من حمص، ولكن الخليفة لم يوافقه على ذلك لأنه خشى على المسلمين من ركوب البحر وقال فى ذلك: «والذى بعث محمدا بالحق لا أحمل فيه مسلما أبدا».

لكن الدولة العربية سرعان ما غيرت سياستها هذه ورأت ضرورة إنشاء أسطول بحرى للغزو فى البحر وذلك فى خلافة عثمان بن عفان، إذ وافق الخليفة على القتال فى البحر على أن يكون الاشتراك فيه تطوعا لا يحمل عليه أحد. وقد ساهمت مصر بنصيب وافر فى إنشاء الأساطيل الإسلامية الأولى، ويمكننا القول بأن عبد الله بن سعد بن أبى سرح الذى خلف عمرو بن العاص فى حكم مصر كان أمير البحر الثانى فى الإسلام. أما أمير البحر الأول فكان معاوية بن أبى سفيان أثناء ولايته على الشام وقبل أن تصير له الخلافة. فكان المسلمون يقومون بغزواتهم البحرية ضد البيزنطيين من الشام بقيادة معاوية ومن مصر بقيادة عبد الله بن سعد. وقد قدم أسطول لغزو الإسكندرية فى سنة ٣٤ هـ بقيادة الإمبراطور البيزنطى قنسطانز الثانى ابن هرقل، وكان والى مصر حينذاك هو عبد الله ابن سعد بن أبى سرح من قبل الخليفة عثمان بن عفان، فخرج الأسطول المصرى بقيادة عبد الله بن سعد لصد الروم، وكان معاوية واليا على

الشام حينذاك فأرسل أسطولا تحت إمرة بسر بن أبى أرطاة اشترك مع الأسطول المصرى فى صد الروم ، وقد أسفرت هذه المعركة عن أول انتصار بحرى عظيم للعرب ضد البيزنطيين فى سنة ٦٥٥ م — ٣٤ ه . وقد سميت هذه المعركة باسم « ذى الصوارى » وذلك لكثرة صوارى السفن التى التحمت فى القتال . وفى هذه المعركة ربط العرب السفن العربية إلى السفن البيزنطية وقلبوا قتال البحر إلى قتال بر . وقد وصف المؤرخ الإغريقى ثيوفانس Theobhanes هذه المعركة بأنها كانت يرموكا ثانيا على الروم . أما الطبرى فقال إن الدم كان غالبا على الماء فى هذه المعركة ، وإن الأمواج طرحت جثث القتلى ركاما . وتسمى موقعة ذى الصوارى أيضا باسم موقعة فينكس Phoenix ويرجح معظم المستشرقين أن هذه الموقعة البحرية حدثت على ساحل ليسيا Lycia جنوبى آسيا الصغرى بجوار ثغر فينكس (فنكى اليوم) . وربما قد تكون حدثت بالقرب من ثغر فونيكة Phoenicus غربى الإسكندرية .

وكانت صناعة السفن الحربية مزدهرة فى وادى النيل . وأصبح اسم « الصناعة » فى مصر يدل على المكان الذى تبنى فيه السفن الحربية . وكانت « الصناعة » موجودة فى جزيرة الروضة وفى القلزم (السويس الحالية) وفى الإسكندرية . ولم يقتصر نشاط المصريين على إعداد الأسطول المصرى بل كان والى مصر يرسل بعض الملاحين المصريين للعمل فى أسطول المغرب أو أسطول المشرق ، والمساهمة فى المشروعات البحرية العامة للدولة الإسلامية .

وتشهد الأوراق البردية التى ترجع إلى العصر الأموى فى مصر أن

الولاة كانوا يطلبون عمالا وصناعا وملاحين للعمل فى دور الصناعة والمساهمة فى إعداد الأسطول المصرى الحربى، وكان الولاة يتفقون مقدما على أجور هؤلاء العمال والملاحين الذين يعملون فى الأسطول ، وكذلك كان يفرض على الكور قدر من الأدوات والآلات المختلفة اللازمة لصناعة السفن ولتنظيفها . كما كان يفرض عليها تموين الملاحين الذين يشتغلون فى إعداد الأسطول . وقد ذكرت قبل ذلك أن هذه الحقوق التى كانت للحكومة على الهيئات أو الأفراد من آثار الليتورجيا أو الالتزامات الاجتماعية التى عرفت فى العالم القديم .

وقد ظلت صناعة السفن الحربية زاهرة فى مصر طوال عصر الولاة . والمعروف أن بناء السفن كان فى البداية بمصر فقط ، وظل كذلك إلى خلافة معاوية بن أبى سفيان حين أمر بإنشاء دار للصناعة فى عكا . وإذا كان الفضل لعظمة الخلافة البحرية يرجع إلى الشعوب التى فتحوها والتى تعلموا منها هذا الفن والتى استخدموها فى حاجاتهم البحرية فلنا أن نقول غير مبالغين بأن الفضل الأكبر والأول يرجع إلى مصر والمصريين .

٤ ــ النظام القضائى

أدخل العرب فى مصر نظاما قضائيا يقوم على أساس الشريعة الإسلامية ويخص الفاتحين من العرب أو الذين يدخلون فى الدين الإسلامى من أهل البلاد . أما الذميون فكان لهم قضاؤهم إلا إذا احتكموا إلى القاضى المسلم فله أن يحكم بينهم بالعدل .

وكان القضاء فى الدولة الإسلامية من الأمور الخاصة بالخلافة فكان الخليفة هو رئيس القاضى المباشر وكان الخلفاء هم الذين يعينون القضاة فى مصر فى عصر الولاة ولكن بعض القضاة كان يعينهم الولاة بتفويض من الخليفة لواليه .

وكان القضاة فى مصر أكثر استقرارا فى مناصبهم من الولاة ، وهذا طبعا مما يستدعيه حسن سير العدالة ؛ ففى كثير من الأحيان كان القاضى يشغل منصبه فى عهود ولاة مختلفين أو فى عهود خلفاء مختلفين ، وكثيرا ما مات القضاة فى مصر وهم فى مناصبهم .

وتشهد النوادر المختلفة للقضاة فى ذلك العصر أن معظمهم كان يتسم بالعدل والنزاهة والشدة فى الحق ولا يخشى لومة لائم . ووجد أيضاً أقلية من القضاة كانوا بعيدين عن النزاهة ، كما جمع بعضهم من الرشوة مالا كثيراً .

ولم يكن هناك محكمة خاصة للفصل فى القضايا ، إنما كانت مجالس القضاء تعقد فى جامع عمرو بن العاص بالفسطاط .

وكانت سلطة القاضى تمتد إلى الأراضى التى كانت تدخل تحت سلطة الوالى السياسية . كما أن الاختصاص النوعى للقاضى كان غير محدود سواء أكان فى الأمور المدنية أم الجنائية .

وكان القاضى يستمد أحكامه القضائية من مصادر التشريع الإسلامى وهى القرآن والسنة والإجماع ، والاجتهاد أو القياس .

وفى زمن الخليفة الأموى عمر بن عبد العزيز (٩٩ — ١٠١ هـ)

كان بعض القضاة يرجع أحيانا إلى الخليفة فى بعض المسائل الدقيقة ، ولعل ذلك لمكانة عمر بن عبد العزيز الدينية وتفقهه فى الدين ، وخوف القاضى من الانفراد بالرأى فى مسألة ربما يخطئ فيها باجتهاده وحده ويرى من الأوفق أن يشترك الخليفة معه فى حلها استئناسا برأيه وضمانا للعدالة .

وكان الخلفاء فى عصر الولاة يرحبون بسماع شكاوى أهل مصر إذا ما انتابهم ظلم أحد القضاة ، وكانوا يتدخلون فى أحكام أمثال هؤلاء القضاة ، فقد صرف الخليفة هشام بن عبد الملك أحد القضاة لعدم إنصافه يتيما تظلم إليه بعد بلوغه (١) ، كذلك نعلم أن الخليفة الأمين فسخ حكم إحدى القضايا حين تبين أن حكم القاضى فيها لم يكن منزها عن الغرض (٢) .

وقد انتشرت بمصر فى العصر العباسى المذاهب الأربعة المعروفة اليوم ، على أن قضاة مصر لم يكونوا ملزمين باتباع مذهب معين يصدرون أحكامهم وفقا له .

وكان القضاة يأخذون رزقا أو مرتبا من بيت المال ، وكان هذا الرزق بسيطا فى أول عصر الولاة ثم أخذ يرتفع تدريجيا ، فبعد أن كان رزق القاضى حتى قرب نهاية القرن الأول الهجرى حوالى مائتى دينار فى السنة أصبح فى النصف الأول من القرن الثانى الهجرى عشرين دينارا فى الشهر

(١) الكندى : الولاة والقضاة ص ٣٤١ .
(٢) المرجع السابق ص ٤١٣ .

ثم صار فى بداية النصف الثانى من هذا القرن حوالى ثلاثين دينارا فى الشهر ، وفى نهاية القرن الثانى الهجرى وصل رزق القاضى إلى مائة وثمانية وستين دينارا فى كل شهر[1] .

وقد بدأ النظام القضائى فى مصر فى عصر الولاة بسيطا ثم ارتقى وتطور تدريجيا ، فلم تكن أحكام القضاة تدون فى بادىء الأمر، ثم بدأ القضاة فى تدوينها على أثر حكم أنكره المتخاصمون . كذلك لم يكن للقاضى فى بادىء الأمر شىء تصان فيه كتبه وأوراقه بل كان كاتب القاضى يحضر ومعه الكتب فى منديل ، ثم اتخذ القضاة قمطرا يحفظون فيه أوراقهم ، وكان القضاة يختمون الأوراق قبل إيداعها القمطر .

وقد عنى القضاة عناية كبيرة بالسؤال عن الشهود والتحقق من استقامتهم ونزاهتهم ، وكان صاحب المسائل يجدد السؤال عن الشهود فى كل ستة أشهر .

ومن التقاليد التى نشأت فى هذه الفترة أيضا خروج القاضى فى نفر من أهل الصلاح لرؤية هلال رمضان وكانوا يخرجون لرؤيته فى الجيزة .

ونلاحظ أن إنشاء ديوان الأحباس أو الأوقاف يرجع إلى هذا العهد منذ سنة ١١٨ هـ ، وكان القضاة هم الذين يشرفون عليه ، وأول قاض بمصر وضع يده على الأحباس هو توبة بن نمر الحضرمى (١١٥ — ١٢٠ هـ) . وكانت الأحباس قبل ذلك فى أيدى أهلها وفى أيدى أوصيائهم .

---

(١) الكندى : الولاة والقضاة ص ٣٠٧ و ٣٥٤ و ٣٦٩ و ص ٤٢١ .

الباب الثانى

موقف مصر من الحركات السياسية والدينية التى قامت فى مقر الخلافة

الحركات السياسية والدينية فى مقر الخلافة

بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام مباشرة ظهر الخلاف بين المسلمين حول مسألة الخلافة ومن الذى يتولاها ، وهل هى إرث فى بيت النبي وفى فرع معين من هذا البيت كبنى هاشم أو بنى أمية ، أم يتقلد أمرها أى فرد كفء لها ، بغض النظر عن القبيلة التى ينتسب إليها . فالدين الإسلامى لم ينص على شكل حكومة معينة للأمة العربية أو لغيرها من الأمم ، ولم يعهد الرسول إلى شخص معين من بعده ليكون زعيما للأمة العربية يتولى الإشراف على أمورها الدنيوية والدينية ، وأقصد بالدينية هنا الإشراف على تنفيذ أحكام الدين ، لا أن يخلف الرسول فى صفته الدينية ، إذ أن النبوة أو الرسالة قد انتهت بوفاة خاتم النبيين والمرسلين سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام .

وكان امتناع العباس عم الرسول ، وعلى بن أبى طالب ، وطلحة والزبير وغيرهم ممن لم يرضوا بمبايعة أبى بكر الصديق بالخلافة إيذانا بما حدث بعد ذلك من انقسام المسلمين إلى سنيين وشيعيين . ثم كثر النزاع حول الخلافة ومن يتولاها، وكان هذا النزاع تارة بالكلام والجدل وتارة بالسيف والحرب. ونشأت الفرق الإسلامية المختلفة وتشعبت تلك الفرق وكان لكل فرقة ولكل نحلة أنصارها، إما إيمانا بعقائدها وبمبادئها وإما كرها فى الخلافة القائمة، وإما رغبة فى منفعة أو مصلحة مادية، كبث بعض تعاليم الديانات والمذاهب القديمة وصوغها فى قالب إسلامى رغبة

فى الإساءة إلى الدين الإسلامى أو رغبة فى إحياء وبعث القوميات والأديان القديمة التى تغلب عليها الإسلام .

ونلاحظ أن الحركات والثورات المختلفة التى انبعثت فى الدولة الإسلامية كانت سياسية فى شكل دينى ، أو دينية فى شكل سياسى ؛ فالدين والسياسة كانا متصلين أشد اتصال ، بل كانا توأمين فى العصور القديمة والعصور الوسطى . وكانت النغمة الدينية تفلح فى التأثير على جمهرة الشعب حين يفشل غيرها من المؤثرات والمحركات ، ولذا اتخذ القادة الدين ستارا وقناعا لمعظم الحركات التى قامت فى الخلافة .

وقد تأثرت مصر بمعظم الحركات الكبرى التى قامت فى الخلافة فى عصر الولاة واشتركت فيها ، ولكن يجدر بنا أن نشير إلى أن الذين اشتركوا فى تلك الحركات لم يكونوا من المصريين وإنما كانوا من الجند العرب الذين استقروا بمصر أو من الأجناد الأخرى الذين أتوا إليها فى عهد الدولة العباسية . أما المصريون أنفسهم سواء أكانوا من الأقباط المسيحيين أم من الذين أسلموا فلم يشتركوا فى تلك المنازعات ، اللهم إلا إذا استثنينا محاولتهم إلى حد ما للعباسيين حين أسقطوا الدولة الأموية .

(١) الحركات السياسية والدينية زمن الخلفاء الراشدين ومدى اشتراك مصر فيها

(٢٠ - ٤٠ هـ / ٦٤٠ - ٦٦٠ م)

(ا) موقف مصر من الثورة التى قامت ضد عثمان بن عفان

لما انتخب عثمان بن عفان خليفة للمسلمين بعد مقتل عمر بن الخطاب

فى آخر سنة ٢٣ هـ (٦٤٤ م) سار على سياسة سلفه فى الفتوح وتم فى عهده فتوحات وغزوات مكملة لما بدأه المسلمون فى عهد أبى بكر وما أحرزوه من انتصارات باهرة فى عهد عمر بن الخطاب . لكن العرب اعترضتهم حواجز وعقبات فى فتوحاتهم منذ أواخر خلافة عمر وبداية خلافة عثمان مثل صحارى وهضبة إيران المرتفعة فى الشرق ، وهضبة الأناضول فى الشمال ، ومقاومة البربر العنيدة فى شمال إفريقية الذين اعتصموا بالجبال والصحارى والبحر ، وأصبحت حروب الفتح بعد أن كانت تتقدم بسرعة أكثر صعوبة وأشد بطئا ، وبدأ القتال يتوقف وبدأت القبائل التى شغلت فترة من الزمن فى الجهاد والحرب ، بدأت تفكر فى مشاكل السلم ، وبدأت روح التذمر تظهر فى مقر الخلافة وفى الأمصار الإسلامية . ولعل تلك الروح ظهرت فى أواخر خلافة عمر بن الخطاب وربما كان من نتيجتها قتل الخليفة عمر بن الخطاب نفسه بيد أحد الموالى الفرس المقيمين فى المدينة المنورة . لكن شدة عمر بن الخطاب وانشغال المسلمين فى الفتوحات ، وفى ضبط الأقاليم المفتوحة ، منع تبلور حركة التذمر واندلاع ثورة عامة . ووجدت حركة التذمر مجالا فسيحاً لها فى خلافة عثمان بن عفان بعد أن بدأت تتوقف الفتوحات الكبرى ، وشجع المتمردين لين الخليفة وتسامحه وكرهه إراقة الدماء . وبدأت تسرى حركة التذمر فى الولايات الإسلامية المختلفة ضد الخليفة ولمّا تمض ست سنوات على حكمه ، وترأس هذه الحركة رجل يهودى فارسى الثقافة يمنى النشأة من أهل صنعاء أسلم زمن عثمان بن عفان واسمه عبد الله بن سبأ وكان يعرف

بابن السوداء لسواد أمه . ويظهر أن عبد الله بن سبأ هذا كان من الذين أسلموا ليضلوا الناس عن الإسلام وليكيدوا لهذا الدين ، فتنقل فى البلاد الإسلامية يحاول ضلالتهم كما يذكر المؤرخون ، فبدأ بالحجاز ثم البصرة والكوفة والشام ، ولكنه لم ينجح فى الحجاز أو الشام كما أنه طرد من البصرة والكوفة ، فجاء إلى مصر ووجد الحالة مواتية فيها لنشر تعاليمه ودعايته ولإعلان الثورة ضد الخليفة ، ذلك أن والى مصر حينذاك وهو عبد الله بن سعد بن أبى سرح كان مشغولا بالحروب الخارجية ، إذ غزا افريقية فى سنة ٢٧هـ ، وغزا النوبة وعقد مع ملكها هدنة فى سنة ٣١هـ ، كما حارب الروم فى وقعة ذى الصوارى سنة ٣٤ هـ ، وبذلك خلا الجو لابن سبأ وللناقمين على الخلافة كى يدبروا مؤامراتهم فى مصر بعيداً عن أعين الرقباء . ولم يعلم عبد الله بن سعد بأمر هذه الثورة فعلا إلا سنة ٣٥هـ بعد رجوعه من غزوة ذى الصوارى .

وكان عبد الله بن سبأ شيعيا يدعو إلى أحقية على فى الخلافة ولكنه كان متطرفا مغاليا فنادى بمذهب الوصاية وهو أن لكل نبى وصيا ، وعلى بن أبى طالب وصىّ محمد صلى الله عليه وسلم ، ولما كان محمد خاتم الأنبياء فإن عليا خاتم الأوصياء ، وذهب إلى أن عثمان قد اغتصب الخلافة من وصى الرسول . وقد اعتقدت فرقة الشيعة السبئية بأن جزءاً إلهياً حل فى الإمام على ، وقالوا كذلك بحلول الجزء الإلهى فى الأئمة بعد على . كذلك نشر ابن سبأ مذهب الرجعة فأخذ يقول : إنه يعجب ممن يقول : إن عيسى يرجع ويكذب برجوع محمد عليه الصلاة والسلام وقد

قال تعالى : (انَّ الذى فَرَضَ عليك القرآن لرادُّكَ إلى مَعَاد)[1] والمعروف أن مذهب الرجعة لا يقر الموت، بل يذهب إلى أن الإنسان يتغيب ثم يعود ثانية . ولا شك أن الآراء المتطرفة التى دعا إليها ابن سبأ متأثرة بتعاليم النحل والديانات المختلفة التى وجدت قبل الإسلام .
ولا بد أن ابن سبأ كان رجلا ذا شخصية قوية جذابة جعلته يؤثر على العامة ، بل إنه استطاع بمهارته أن يجذب إليه رجالا من كبار الصحابة ومن أئمة الحديث، وأن يؤلبهم على عثمان فجذب إليه أبا ذر الغفارى أحد كبار أئمة الحديث الذى كان مقيما بالشام عندما كان ابن سبأ يتنقل فى الأمصار المختلفة ليثير الناس ضد عثمان ، كما جذب إليه الصحابى الكبير عمار بن ياسر الذى كان عثمان قد أوفده إلى مصر للاستفسار عن حقيقة ماقيل بصدد التذمر والثورة فتنكر عمار للخليفة وبقى بمصر ولم يعد إلى المدينة .

وكانت الثورة ضد عثمان بن عفان ، فى الظاهر ، دينية وشخصية فأنكر الثائرون على عثمان أموراً ، منها الدور الفخمة التى شيدها لأهله وبناته بالمدينة ، وتوليته أهله وبنى عمه من بنى أمية على الأعمال والولايات دون غيرهم[2] . كذلك قال الثوار: إن عثمان وسّع على نفسه وعلى أهله بخلاف أبى بكر وعمر اللذين اعتادا التقلل والكف عن أموال المسلمين[3] ، وزعم الثوار أيضاً فيما زعموا أن والى عثمان

---

(١) سورة القصص آية ٨٥.

(٢) ابن قتيبة : الإمامة والسياسة ج ١ ص ٣٦ .

(٣) ابن طباطبا : الفخرى ص ٨٦ .

بالكوفة صلى بالناس الصبح أربع ركعات وهو سكران ثم قال لهم : إن شئتم أن أزيدكم ركعة زدتكم ، فلما بلغ عثمان ذلك لم يسرع إلى إقامة الحد[1] عليه بل أخر ذلك[2] .

والواقع أن الثورة ضد عثمان بن عفان لم تكن دينية أو شخصية كما يبدو فى الظاهر وإنما كان الباعث عليها ، بعد أن بدأت تتوقف الفتوحات، عوامل مختلفة: فمن ثائر يريد بخروجه الكيد للدين الإسلامى والدولة العربية بوجه عام ، ومن طامع فى الخلافة ، ومن عود إلى الجاهلية ونزاع بين القبائل على السيادة ، ومن أنفة بعض القبائل العربية من سيادة قريش ، ومن شيعى خرج مؤمنا بحق على بن أبى طالب فى الخلافة . كذلك كانت الثورة على عثمان ثورة البدو الرحل ضد كل سيطرة مركزية وضد أية حكومة .

وساعدت الظروف فى مصر كما ذكرت على نجاح تلك الحركة . ولعل عمرو بن العاص نفسه — وهو المعروف بدهائه العظيم — كانت له يد فى إثارة الاضطراب بمصر ليفسد الأمر على خلفه عبدالله بن سعد .

---

(١) حد الخمر : كل ما أسكر كثيره أو قليله من خمر أو نبيذ حرام حد شاربه سواء سكر منه أم لم يسكر . وقال أبو حنيفة يحد من شرب الخمر وإن لم يسكره ولا يحد من شرب النبيذ حتى يسكر . والحد أن يجلد أربعين بالأيدى وأطراف الثياب ويبكت بالقول العض (الشديد) والكلام الرادع للخبر المأثور فيه . وقيل بل يحد بالسوط عتباراً بسائر الحدود . ويجوز أن يتجاوز الأربعين إذا لم يرتدع بها إلى ثمانين جلدة .. نظر الماوردى : الاحكام السلطانية ص ٢١٦ .

(٢) ابن قتيبة : نفس المرجع ص ٣٦ .

ولما علم عبد الله بن سعد بأمر هذه الحركة خرج إلى الخليفة فى المدينة وربما كان ذلك للتفاهم على خطة للقضاء على تلك الثورة ، ولكن محمد ابن أبى حذيفة خرج صراحة على الخليفة وقبض على ناصية الحكم فى مصر وطرد نائب عبد الله بن سعد ، واستطاع أن يمنع سعد ابن أبى وقاص الذى أرسله الخليفة ليصلح بينه وبين الثائرين فى مصر ، من الدخول فيها كذلك استطاع أن يمنع واليها عبد الله بن سعد نفسه من دخولها حينما عاد اليها . وتمادى محمد بن أبى حذيفة فأرسل حوالى ستمائه رجل مسلح إلى المدينة كان من بينهم محمد بن أبى بكر الصديق وتظاهرت هذه القوة المسلحة بأنها جاءت إلى المدينة لتقديم شكواها، ولكن ما لبث الثوار أن اقتحموا بيت الخليفة وقتلوه أفظع قتلة فى الثامن عشر من ذى الحجة سنة ٣٥ هـ (١٧ يولية سنة ٦٥٦ م) وربما أسرع الثوار إلى قتله حينما علموا باستنجاده بمعاوية بن أبى سفيان أمير الشام ، وعبد الله بن عامر والى البصرة ، وأمراء الأجناد فأرادوا أن يتموا ثورتهم قبل وصول المدد إلى عثمان خوفا من أن يقضى على حركتهم بالفشل . وكان يدافع عن عثمان فى داره مائة رجل من الصحابة وهو عدد قليل بالنسبة للثائرين ويقال إن محمد بن أبى بكر هو أول من حرض الثوار على قتله وأول من دخل عليه ليقتله .

وكان مصرع عثمان بن عفان على يد جماعة من المسلمين الثائرين سابقة محزنة فى التاريخ الإسلامى أضعفت نفوذ منصب الخليفة الذى كانت تقوم عليه وحدة المسلمين وكانت بداية لتفرق كلمة العرب وبداية للفتن والمنازعات التى حفل بها التاريخ الإسلامى فى العصور الوسطى .

(ب) أثر النزاع بين على بن أبى طالب
ومعاوية بن أبى سفيان فى مصر

بعد مقتل عثمان بويع على بن أبى طالب فى المدينة خليفة فى سنة ٣٥هـ ولكن خلافة على لم تحل مشكلة الخلافة، وبدأت تظهر مشكلة جديدة فوق المشاكل التى ظهرت منذ أواخر خلافة عمر وأثناء خلافة عثمان . ذلك أن عليا بالرغم من عدم اشتراكه فى المؤامرة التى أدت إلى مصرع عثمان إلا أنه كان مدينا إلى حد كبير فى تسليمه زمام الخلافة إلى الثوار الذين هاجموا عثمان فى المدينة . وقد ظهرت فى الحال جماعة تطالب بمعاقبة المجرمين والثأر لعثمان ؛ ولم يكن فى مقدور على أن يقوم بذلك إلا بعد أن تهدأ الأمور ويوافق الجميع على خلافته . وفضلا عن ذلك فقد كان هناك جماعة لا يحبون عثمان ولكنهم لا يرغبون فى الاعتراف بالخليفة الجديد وأضاف علىّ إلى أعدائه أعداء جددا بسبب عزله ولاة عثمان وتعيين ولاة جدد ، وبدأت أول معارضة صريحة حين خرج طلحة والزبير إلى مكة وانضمت إليهم السيدة عائشة أم المؤمنين زوج الرسول عليه الصلاة والسلام التى كانت بمكة حين قتل عثمان ، ومع أنهم لم يكونوا من المتحمسين لعثمان إلا أنهم نادوا بالحرب وبضرورة الانتقام . وأخذ هذا الثالوث يجمع الجيوش ويثير الرأى العام ضد خلافة على وانتقلوا إلى البصرة على أمل الحصول على مساعدات محلية . وإزاء هذا زحف على من المدينة على رأس جيشه فى جمادى الآخرة سنة ٣٦ هـ (أكتوبر

سنة ٦٥٧م) وتوجه إلى الكوفة بعد أن فاوض واليها ثم زحف إلى البصرة وتقابل على مع قوات الحلف الثلاثى فى مكان يقال له: الخريبة فى ظاهر البصرة وهناك انتصر على ، وقتل طلحة والزبير وأسرت السيدة عائشة فى الموقعة التى عرفت فى التاريخ باسم « موقعة الجمل » لأن القتال دار حول الجمل الذى كانت تركبه عائشة أم المؤمنين . وقد أعيدت عائشة مكرمة إلى مكة . وظل على فى البصرة لفترة بسيطة ثم عاد إلى الكوفة واتخذها حاضرة له .

ونلاحظ أن خروج على لمقاتلة طلحة والزبير وعائشة يعتبر المرة الأولى التى يخرج فيها خليفة على رأس جيش إسلامى فى حرب أهلية ضد إخوان له فى الدين ، ومن ناحية أخرى كان خروج على من المدينة نهاية للمدينة المنورة كعاصمة للخلافة الإسلامية .

ولم تنته مشاكل على بعد انتصاره فى موقعة الجمل ، ذلك أن معاوية ابن أبى سفيان أمير الشام رفض بقوة وإصرار التنازل عن ولايته على الشام للوالى الجديد الذى عينه على بدلا منه . وكان معاوية حتى ذلك الحين قد وقف على الحياد فى النزاع بين على وخصومه ولم يطالب بالخلافة ، وإنما اقتصر على مطالبة الخليفة بمحاكمة قتلة عثمان .

ونلاحظ أن مركز معاوية فى سورية كان راسخا ، إذ كانت سورية ولاية موحدة هادئة تتمتع بإدارة مركزية منظمة ، وكان تحت إمرته جيش قوى اكتسب خبرة وتنظيما أثناء حروبه مع البيزنطيين فضلا عن أن معاوية كان يلى دمشق وجزءا من الشام من قبل عمر بن الخطاب ثم ثبته عثمان بن عفان أميرا على الشام كلها . واستطاع معاوية خلال هذه

المدة الطويلة أن يجذب إليه قلوب أهل الشام فأصبحوا أنصارا متحمسين له ، واستطاع معاوية أن يستميل إليه رجلا من أكبر دهاة العرب هو عمرو بن العاص . وقيل : إن عمرو بن العاص اشترط على معاوية بن أبى سفيان أن تكون ولاية مصر طعمة له نظير مساعدته له ضد على فقبل معاوية ذلك (١) .

وكان لامفر من اشتباك على ومعاوية بعد أن رفض معاوية الإذعان لأوامر الخليفة فسار على نحو الشام لمحاربة معاوية واشتبك الفريقان قرب صفين ، تلك المدينة الرومانية الخربة الواقعة على الفرات ، وذلك فى أواخر سنة ٣٦ هـ (٦٥٧ م) وقد سبق القتال مفاوضات لم تكن ذات جدوى بل عملت على توسيع مسافة الخلف بين الفريقين ، وأصر معاوية على طلب تسليم قتلة عثمان ومعاقبتهم ، وحمل معاوية عليا مسئولية أدبية فى تجاوزه عن قتلة الخليفة وعدم ملاحقتهم .

والواقع أن معارضة معاوية تبدو ثورة على الحكومة الشرعية ، ثورة من بنى أمية ، ارستقراطية قريش ، للمطالبة بدم قريبهم عثمان .

وحين وقعت معركة صفين كاد أن يتم النصر لجيوش على ولأهل العراق ، لولا حيلة دبرها عمرو بن العاص ، إذ أشار على الجند السوريين برفع المصاحف على أسنة الرماح وأخذوا ينادون « الحكم لله » . وطبيعى أن عليا أدرك أن هذا التحكيم لن يستطيع أن يتناول فى الحقيقة إلا موضوع قتل عثمان والثأر له ، لأن موضوع الخلافة لن

---

(١) تاريخ اليعقوبى ج ٢ ص ٢١٦ — ٢١٧ .

يمكن الوصول إلى حله على ضوء نصوص من القرآن الكريم . ولهذا لم يرحب على بالتحكيم . وعلى الرغم من قوة على الظاهرة الا أن مركزه كان ضعيفا ، وذلك لعدم خضوع مناصريه له خضوعا تاما ولتضارب آراء المتدينين الذين كانوا يؤلفون قسما كبيراً من أتباعه . وقد استنكر فريق القراء فى جيش على المضى فى القتال وقد دعوا إلى تحكيم كتاب الله ، فتوقفوا عن القتال وتوقف معهم عدد غير قليل من جند على . والقراء هم حفظة القرآن الذين كانو يعرفون قواعد الدين وروحه ويدافعون عنه ، وهكذا أجبر علىّ على قبول الهدنة ، وبذلك انتهت موقعة صفين وحل محلها التحكيم أى أن الفريقين المتنازعين دخلا فى دور مفاوضات .

وقد اتفق على أن يختار كل فريق حكما ، كما اشترط على القائدين المتنازعين أن يقبلا نتيجة التحكيم . ووقع اختيار أهل الشام على عمرو ابن العاص أما أهل العراق فقد اختارو أبا موسى الأشعرى ، وبهذه الطريقة كسب معاوية نصرا معنويا إذ أنزل على ، فى الواقع ، من مركز خليفة حاكم للمسلمين إلى مطالب بالخلافة. وقد نجح الأمويون فى تفريق أنصار على بن أبى طالب ، إذ تسبب التحكيم فى أن ثار عليه جماعة من أتباعه ممن لم يرضوا عن هذه الخطوة ، وعرف هؤلاء باسم الخوارج أى الذين خرجوا على الجماعة . وأصبح الخوارج أشد أعداء على غليه ، ودعوى الخوارج أن عليا أخطأ فى التحكيم إذ حكم الرجل ـ والحكم لله ـ ومن هنا كان نداؤهم حين خرجوا عليه « لا حكم إلا لله » .

وقد اجتمع الحكمان بين العراق والشام فى دومة الجندل (الجوف الحالية) وفى أذرح (فى شرقى الأردن الحالى) وكتبت صحيفة أقرها

الحكمان كان فحواها أن عثمان قتل مظلوما وأن لمعاوية الحق فى أن يطالب بدمه . ثم اتفق الحكمان على خلع كل من على ومعاوية ، وجعل الأمر شورى بين المسلمين ليختاروا من أحبوا .

وقد أعلنت نتيجة التحكيم فى أوائل سنة ٣٨ ﻫ (٦٤٩ م) وقيل إن أبا موسى الأشعرى تقدم وخلع عليا ومعاوية ، أما عمرو فثبت معاوية بعد أن خلع عليا (١) . والراجح أن الحكمين خلعا عليا ومعاوية وهذا يعنى أن معاوية هو الذى كسب الموقف لأن عليا خسر منصبه كخليفة وظهر بمظهر المطالب بالخلافة كزميله معاوية ، أما معاوية فلم يكن خليفة بل أميرا على ولاية من ولايات الإمبراطورية الإسلامية ، بل إن حقه فى الخلافة لم يكن قد ادعاه علانية بعد .

ولم يقبل على نتيجة التحكيم وعادت الحالة إلى ما كانت علية قبل صفين ، بل إن مركز على تضعضع بسبب قيام الخوارج ولانحطاط روح أتباعه المعنوية بعدما حدث من أحداث . أما أصحاب معاوية فكانوا يدا واحدة ، وقد بايع أهل الشام معاوية بالخلافة منذ سنة ٣٧ ﻫ وشجعه ذلك على ضم مصر ، وبذلك حرم عليا من مورد غنى بالمال والإمدادات ، ولنر كيف تم ذلك فى مصر .

تجلى النزاع بين على ومعاوية بأجلى مظاهره فى مصر التى كانت مركزا للثائرين على عثمان بن عفان ، فبعد مقتل عثمان سنة ٣٥ ﻫ تخلف فريق من الثوار بالمدينة ، وعاد فريق آخر إلى مصر . لكن شيعه(٢) ،

(١) انظر الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ج ٦ ص ٣٧ — ٤٠ والمسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ٢٨ — ٣٣ (ط . القاهرة) .

(٢) يقصد بكلمه شيعة عثمان الفريق الموالى لعثمان أو الطائفة التى تنتصر لعثمان .

عثمان بمصر بايعوا معاوية بن حديج على الطلب بدم عثمان وانتصر معاوية ابن حديج هذا على جيش محمد بن أبى حذيفة مرتين ، ولما يمض عام واحد على مقتل الخليفة . ولكن هذا النصر لم يكن حاسما لأن ابن أبى حذيفة كان لا يزال قابضا على السلطة فى مصر، ومع ذلك فان انتصار شيعة عثمان شجع معاوية بن أبى سفيان على القدوم إلى مصر لثروتها وخيراتها الوفيرة ولموقعها الجغرافى الممتاز . وجاء معاوية بن أبى سفيان إلى مصر فى نفر من أصحابه ، ووصل إلى سلمنت من كورة عين شمس فى سنة ٣٦ هـ ، وبعد مفاوضات مع محمد بن أبى حذيفة وأتباعه اتفق معاوية على أن يعطوه رهنا لكى يتفادوا محاربته لهم ، فرضى ابن أبى حذيفة بذلك ، وخرج فى الرهن مع جماعة من الذين ثاروا ضد عثمان، ولما بلغوا اللد بفلسطين سجنهم معاوية بها وسار هو إلى دمشق ، ولكنهم هربوا من السجن فتبعهم صاحب فلسطين وقتلهم فى ذى الحجة سنة ٣٦ هـ .

ولما بلغ عليا نبأ قتل ابن أبى حذيفة أرسل إلى مصر قيس بن سعد ابن عبادة الأنصارى واليا عليها من قبله فدخلها فى أوائل سنة ٣٧ هـ . وكان قيس من أصحاب المقدرة السياسية ولذا عمل معاوية وعمرو ابن العاص على إخراجه من مصر بالدهاء والمكايدة ، ونجح معاوية فى أن يشكك عليا فى إخلاص قيس بن سعد عن طريق الشائعات التى روجها أنصار معاوية فى العراق، ولهذا نرى عليا يعزل قيسا عن مصر بعد ولاية دامت حوالى أربعة أشهر ويولى عليها قائدا من كبار قواده حضر معه موقعتى الجمل وصفين هو الأشتر مالك بن الحارث النخعى . وسار الأشتر إلى مصر حتى نزل القلزم فى بداية رجب سنة ٣٧ هـ ، وهناك

مات مسموما ، ومن المحتمل أنه كان لمعاوية وعمرو يد فى مقتله .

واستطاع معاوية بمهارته وسياسته أن يقضى على معظم الحزب العلوى فى مصر ، ولاسيما الذين كانوا قد ثاروا على عثمان دون أن يكلفه ذلك حربا أو سفك دماء . ولم يلجأ إلى حربهم أو إلى دخول مصر عنوة قبل صفين حين كان يستعد لحرب يتوقف عليها مصير الخلافة بينه وبين على بن أبى طالب .

وقد رأى معاوية بعد صفين وقبل إعلان نتيجة التحكيم أن الفرصة سانحة لضم مصر إليه ليستعين بها على حرب على ، خصوصا وأن أهل الشام كانوا قد بايعوه على الخلافة ، فأرسل إلى مصر جيشا فى سنة ٣٨ هـ بقيادة عمرو بن العاص . وكان والى مصر بعد موت الأشتر هو محمد بن أبى بكر . ولم يكن محمد بالرجل الحازم الذى يعتمد عليه وإنما كان مغرورا يجهل أمور السياسة والحكم ، فكانت ولايته على مصر بداية النهاية لحكم على بن أبى طالب فى مصر . ونلاحظ أن عمرا لم يكن يستخلص مصر هذه المرة من شعب أجنبى كما فعل حين استخلصها من أيدى البيزنطيين ، وإنما كان يستخلصها من شيعة على بن أبى طالب . وقد تقابل جيش عمرو مع جيش محمد بن أبى بكر بالمسناة فى شمالى الفسطاط بين عين شمس وأم دنين ، وحدثت بين الفريقين موقعة شديدة انتهت بانتصار الجند الشاميين بقيادة عمرو ودخولهم الفسطاط . وتولى معاوية بن حديج قتل محمد بن أبى بكر ، وبذلك انتهى حكم على وحكم الخلفاء الراشدين من مصر فى صفر سنة ٣٨ هـ (٦٥٩ م) وأصبحت مصر ولاية أموية منذ ذلك التاريخ بالرغم من أن عليا ظل خليفة حتى

سنة ٤٠ هـ (٦٦١ م) . وتقديراً لخدمات عمرو بن العاص ولاه معاوية ابن أبى سفيان مصر صلاتها وخراجها وجعلها طعمة له بعد عطاء جندها والنفقة على إدارتها ، وهذه هى ولاية عمرو بن العاص الثانية على مصر . ولم يلبث عمرو أن خرج للتحكيم الذى كان بين على ومعاوية كما ذكرنا سابقاً .

٢ ـ الحركات السياسية والدينية زمن الخلفاء الأمويين

(٤٠ - ١٣٢ هـ ، ٦٦١ - ٧٥٠ م)

(ا) دعوة ابن الزبير لنفسه بالخلافة وأثر ذلك فى مصر

طمع عبد الله بن الزبير فى الخلافة كما طمع غيره وتجلت أمنيته هذه منذ خروجه مع أبيه فى موقعة الجمل ، على أن الفرصة لم تكن قد حانت بعد لخروجه والدعوة إلى نفسه ، بل نراه يشترك فى خدمة الدولة زمن معاوية بن أبى سفيان ، ويخرج فى الجيش الذى سار لغزو القسطنطينية سنة ٤٩ هـ بقيادة يزيد بن معاوية . وعندما أخذ معاوية قبيل وفاته البيعة لابنه يزيد عارض فى تلك البيعة نفر يسير من أهل المدينة منهم الحسين بن على وعبد الله بن الزبير . وقد حذره معاوية من هؤلاء النفر وخاصة من ابن الزبير إذ قال له « ... وأما الذى يجثم لك جثوم الأسد ، ويراوغك مراوغة الثعلب فإن أمكنته فرصة وثب فذاك ابن الزبير ، فان هو وثب عليك فظفرت به فقطعه إربا إربا واحقن دماء قومك ما استطعت » .(١)

(١) ابن طباطبا : الفخرى ص ٩٨

ولما ولى يزيد بن معاوية الخلافة (٦٠ - ٦٤ هـ/ ٦٨٠ - ٦٨٣ م) امتنع الحسين والزبير عن مبايعته. فأما الحسين فقد خرج على يزيد واستشهد فى اليوم العاشر من المحرم سنة ٦١ هـ بكربلاء، وبقتله خلا الجو لابن الزبير فدعا لنفسه بالخلافة فى سنة ٦١ هـ وبايعه أهل تهامة والحجاز. وقد أرسل يزيد جيشا فى سنة ٦٣ هـ لمحاربة ابن الزبير وأتباعه فى المدينة ثم مكة، ومات يزيد ولما يتم إخضاع ابن الزبير. ثم ولى الخلافة معاوية الثانى ابن يزيد إلا أن مدة خلافته لم تطل فقيل إنه ملك أربعين يوما وقيل ثلاثة أشهر، وحدثت بعد موته فترة هرج ومرج ونزاع حول منصب الخلافة، وفى تلك الأثناء اتسع نطاق دعوة ابن الزبير الذى بايعه أهل الشام كلهم إلا أهل الأردن، وكذلك بايعه أهل مصر كما غلب على أهل العراق والحجاز واليمن.

ولما بويع مروان بن الحكم بالخلافة فى سنة ٦٤ هـ (٦٨٤ م) كان عليه أن يقضى على معارضة عبد الله بن الزبير. أما فى الشام فقد انتصر على الضحاك بن قيس، الذى دعا لابن الزبير فى مرج راهط وقتله، وبذلك خلصت بلاد الشام لمروان. وكذلك استولى مروان بن الحكم على مصر من عامل ابن الزبير كما سنرى، ومات مروان سنة ٦٥هـ (٦٨٥ م) وابن الزبير متغلب على الحجاز والعراق.

وفى عهد عبد الملك بن مروان (٦٥ - ٨٦ هـ — ٦٨٥ - ٧٠٥ م) تم القضاء على ابن الزبير، إذ تغلب بنو أمية على العراق فى سنة ٧٢ هـ (٦٩١ م) وعلى الحجاز فى سنة ٧٣ هـ (٦٩٢ م) وانتهى الأمر بقتل ابن الزبير فى هذه السنة.

وقد مر بنا أن مصر أصبحت ولاية تابعة للدولة الأموية منذ سنه ٣٨ﻫ وأصبح ولاتها منذ ذلك الحين يولون من قبل الخلفاء الأمويين، ولم تظهر دعوة ابن الزبير فى مصر إلا عقب وفاة الخليفة يزيد وذلك فى ولاية سعيد بن يزيد عليها (٦٢ - ٦٤ ﻫ) . وقد قام بتلك الدعوة الخوارج وكانوا يحسبون ابن الزبير على مذهبهم .(١)

والواقع أن الفرق المختلفة من شيعة وخوارج كانت تؤيد الثائرين على الخلافة علها تستطيع الوصول إلى مآربها المختلفة دينية كانت أو سياسية . وقد نشط الخوارج فى دعوتهم لما لاقوه من ترحيب ابن الزبير بهم واعتماده عليهم فى نشر دعوته . وقد أرسل ابن الزبير إلى مصر واليا من قبله هو عبد الرحمن بن عتبة بن جحدم الفهري ، فقدم مصر فى طائفة من الخوارج وغيرهم واضطر واليها سعيد بن يزيد إلى اعتزال الولاية، ومن ثم بدأت ولاية عبد الرحمن بن جحدم فى شعبان سنة ٦٤ﻫ وأصبحت مصر ولاية تابعة لخلافة عبدالله بن الزبير . وقد بايعه الناس فى مصر ومنهم أنصار بنى أمية الذين بايعوه فى الظاهر ، إلا أنهم كانوا مخلصين للأمويين وللحكم الأموى فى الباطن . فلما بويع مروان بن الحكم خليفة بالشام فى ذى القعدة سنة ٦٤ ﻫ دعاه أنصاره بمصر لاستخلاصها من عامل ابن الزبير . وقدم مروان بن الحكم إلى مصر وسبقه جيش بقيادة ابنه عبد العزيز بن مروان جاء عن طريق أيلة (العقبة الحالية) . ولم يقف ابن جحدم ، عامل ابن الزبير ، مكتوف الأيدى بل نراه يشحذ همته ويأمر بحفر خندق حول الفسطاط للدفاع عن مصر وتم

---

(١) الكندى : الولاة والقضاة ص ٤٠ـ ٤١ وخطط المقريزى ج٢ ص٣٣٧

حفر الخندق فى شهر واحد ، ولم ينتظر ابن جحدم حتى يأتى جيش عبد العزيز بن مروان بل نراه يرسل حملة برية إلى الشام وأخرى بحرية وثالثة إلى أيلة . وقد منيت حملات ابن جحدم الثلاث بالهزيمة .

وسار مروان إلى مصر حتى نزل عين شمس ونشب القتال بينه وبين ابن جحدم الذى كان يحارب مع أتباعه من الخندق ، واشتد القتال بين الفريقين ، وأخيرا تم الصلح بين مروان وبين المصريين ،وأمن مروان المصريين ثم دخل الفسطاط فى غرة جمادى الأولى سنة ٦٥ هـ ، وهكذا انتهى حكم ابن الزبير فى مصر بعد أن دام نحو تسعة أشهر وهى المدة التى ولى فيها عبد الرحمن بن جحدم .

ولم يرض نفر من المصريين ببيعة مروان بن الحكم بعد أن كانوا قد بايعوا عبد الله بن الزبير طائعين ، فاضطر مروان إلى قتلهم بعد أن أبوا بيعته وكانوا نحو ثمانين رجلا .

وأقام مروان بن الحكم بمصر شهرين ثم غادرها فى أول رجب سنة ٦٥ هـ (٦٨٥ م) بعد أن وطد أمورها وأعادها ثانية إلى الحكم الأموى ، كما ولى عليها ابنه عبد العزيز وزوده بالنصائح الهامة .

وقد أسهم عبدالعزيز بن مروان فى القضاء على ابن الزبير فى الحجاز فأرسل حملة بحرية إلى مكة لقتال ابن الزبير كان عدتها ثلاثة آلاف رجل . وكان فى الحملة رجل اسمه عبد الرحمن بن بحنس أحد موالى تجيب يقال إنه هو الذى قتل ابن الزبير فى جمادى الآخرة سنة ٧٣ هـ . وبذلك انتهى ذلك الدور من أدوار النزاع حول الخلافة بعد أن ساهمت فيه

مصر مساهمة ذات أثر لا يغفل . وقد رفعت خلافة ابن الزبير من شأن الخوارج بمصر لفترة يسيرة ثم خمدت حركتهم بعد تغلب مروان عليها لكنهم عادوا إلى الظهور في ولاية قرة بن شريك على مصر (٩٠ — ٩٦ هـ) زمن الخليفة الوليد بن عبد الملك ، ولكنه استطاع أن يقضي عليهم .

(ب) زوال الخلافة الأموية وأثر ذلك في مصر

تجمعت الظروف والعوامل التي أدت إلى زوال الخلافة الأموية ، وظهر أثرها بوضوح منذ أواخر القرن الأول الهجري وأوائل القرن الثاني ، فهناك شيعة آل علي الذين كانوا يعملون على الكيد لبني أمية ويعتبرونهم مغتصبين للخلافة ويرون أن الخلافة واجبة على أن تنحصر في سلالة الإمام علي رضي الله عنه ، وهناك الخوارج الذين اعتنقوا مبادىء هادمة لخلافة قريش فقالوا : إن الخلافة مشاع لجميع المسلمين يتولاها من كان أهلا لها سواء كان من قريش أو غيرها ، فكانوا يمثلون المبادىء الديمقراطية المتطرفة ويعتقدون أن الخلافة حق لكل عربي حر، ومن الخوارج من أدخل على نظريتهم بعض التعديل فشرط الإسلام والعدل بدل العروبة والحرية ولا سيما حين انضم إلى صفوفهم كثير من المسلمين من غير العرب فقالوا : إن المسلمين يختارون من بينهم الخليفة ولو كان عبدا حبشيا وبعضهم أجاز خلافة المرأة . ومن العوامل التي عجلت بزوال الخلافة الأموية أيضا ، الفرس الذين كرهوا سيادة العرب

وعز عليهم ضياع سلطان الأكاسرة وفقدان استقلالهم وهؤلاء الفرس هم الذين أطلق عليهم العرب لفظ « مَوَالٍ » .

هذه العناصر المناوئة وجدت منذ قيام الدولة الأموية ومع ذلك لم يظهر أثرها فى إضعافها إلا بعد أن ظهر الضعف من جانب الدولة نفسها ، ولعل أهم مظاهر ذلك الضعف هو انقسام البيت الأموى على نفسه انقساما تاما منذ خلافة الوليد بن يزيد بن عبد الملك (١٢٥-١٢٦هـ / ٧٤٣ - ٧٤٤م) إلى أن ولى الخلافة مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين فى سنة ١٢٧ هـ (٧٤٤م) إذ أصبح كل فرد من أفراد البيت الأموى يتخذ لنفسه حزبا يستعين به على الوصول إلى الخلافة ، مما شجع الطامعين من غير بنى أمية على إلقاء دلوهم فى الدلاء علهم يصلون إلى ما يريدون . وكان صاحب النصيب الأكبر فى هذه الغنيمة هم العباسيين .

كذلك وضح خطر العصبية القبلية فى أواخر عهد الدولة الأموية ، ومما زاد فى شقة الخلاف بين أفراد القبائل أن الخلفاء زجوا بأنفسهم فى هذه المنازعات فتعصب بعضهم لعرب الشمال وتعصب آخرون لعرب الجنوب .

وقد استغل بنو العباس - عم الرسول عليه الصلاة والسلام - كل هذه الظروف السيئة التى أحاطت بالخلافة الأموية ، ويظهر أنهم بدءوا منذ أواخر القرن الأول الهجرى ينظرون من جانبهم فيما طمح إليه الشيعة ، فأخذوا يعملون لأنفسهم واستغلوا فى حركتهم الشيعة والموالى

استغلالا كبيرا ، إذ كانوا يدعون للرضى عنه من آل محمد ، وطبيعى أن آل محمد يشمل آل على وآل العباس . وفى الوقت الذى أثمرت فيه الدعوة العباسية كانت حال الخلافة الأموية قد ساءت إلى أقصى حد . وقد وجدت الدعوة العباسية فى شخصية أبى مسلم الخراسانى الفضل فى إخراجها إلى حيز العمل والتنفيذ . ونجح أبو مسلم فى إظهار الدعوة العباسية ورفع راية العباسيين فى خراسان سنة ١٢٩ هـ . وتمت الغلبة للعباسيين على الأمويين فى خراسان والعراق ، وسار أبو مسلم بجنده من خراسان إلى الكوفة وهناك بايع أبا العباس السفاح بالخلافة فى سنة ١٣٢ هـ ، وتبعه الناس من بعده . وتقابل جيش العباسيين مع الجيش الأموى الذى كان يقودة الخليفة الأموى مروان بن محمد عند نهر الزاب (أحد روافد نهر دجلة) وهناك كانت الغلبة للعباسيين فى سنة ١٣٢هـ (٧٥٠م) وفر مروان بعد ذلك هاربا إلى مصر .

ولا نعرف على وجه التحقيق متى بدأت الدعوة العباسية فى مصر لأن العباسيين كما عرفنا اهتموا بخراسان والمشرق لنشر دعوتهم فيها ولأن محور الحوادث منذ البداية كان فى المشرق ، ولكن كان مقدرا أن تكون نهايتها فى مصر التى فر إليها الخليفة الأموى مروان بن محمد ولقى فيها حتفه .

وأول ما نسمع عن الدعوة العباسية فى مصر أيام خلافة هشام ابن عبد الملك (١٠٥ — ١٢٥ هـ) وفى ولاية عبد الرحمن بن خالد عليها (١١٧ — ١١٩ هـ)[1] لكن مصر ظلت هادئة لم تتأثر بما كان يدور

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ١ ص ٢٧٨ .

فى المشرق حتى كانت خلافة مروان بن محمد (١٢٧ — ١٣٢ هـ) فيبدأ الاضطراب فى مصر منذ توليه الخلافة ، ونرى الجند لا يطيعون أوامر الخليفة فى كثير من الأحيان ، كما نرى النزاع بين القيسية أو عرب الشمال واليمنية أو عرب الجنوب ، يتجلى بأجلى مظاهره فى مصر ، ولا غرو فقد عمت روح العصبية القبلية إذ ذاك فى جميع أنحاء الدولة الإسلامية ، فاليمنيون لا ينفذون أوامر الخليفة ، والقيسيون أو المضريون فى جانب الخليفة ، ولكن بعضهم يشق عصا الطاعة ، كما يثور بعض أفراد البيت الأموى تعصبا للخليفة مروان بن محمد ، وبعضهم يثور ضده . كذلك تظهر حركات الخوارج فى مصر ، وكان هذا صدى لحركات الخوارج فى أنحاء الدولة الإسلامية حينذاك . ونلاحظ أن الأقباط لم يشتركوا فى المنازعات الخاصة بالخلافة من قبل ولكنهم لعبوا هنا دورا لا يغفل أثره فقاموا بالثورة ضد الأمويين ، وربما دفعهم إلى ذلك كثرة الضرائب التى كانت تفرض عليهم والتى زادت زيادة كبيرة فى أواخر الدولة الأموية فظنوا أن قدوم العباسيين سيخفف من أعبائهم المالية ، ولا شك أن الدعاية للعباسيين كان لها أكبر الأثر فى حملهم على مثل هذا الاعتقاد .

ولما وصلت الأخبار إلى مصر بانهزام مروان بن محمد فى موقعة الزاب ، أخذ واليها عبد الملك بن مروان بن موسى بن نصير ، يستعد لمقاومة العباسيين ، ثم ما لبث أن قدم مروان هاربا إلى مصر فى شوال سنة ١٣٢ هـ فوجد أن الدعوة العباسية قد قطعت شوطا بعيدا ، وقد نجح مروان فى أن يعيد الإسكندرية والصعيد إلى حوزته بعد أن كانا قد

خرجا عن طاعة الأمويين ، لكن مروان لم يجن ثمار هذا النصر لأن صالح بن على بن عبد الله العباسى وأبا عون تبعاه إلى مصر على رأس الجيوش العباسية فوصلا إليها بعده بنحو شهر . ولما اقتربت الجيوش العباسية من مدينة الفسطاط عبر مروان إلى الجيزة فتبعه العباسيون ودارت هناك رحى الحرب بينهم وبين مروان وكتب النصر للعباسيين ، أما مروان ففر إلى بوصير[1] وهنا لحق به صالح بن على العباسى حيث قتله لسبع بقين من ذى الحجة سنة ١٣٢هـ وبذلك زالت الخلافة الأموية وأعقب العباسيون ذلك بقتل كثير من أنصار بنى أمية فى مصر، وأسر البعض الآخر ، ثم دخل صالح بن على العباسى الفسطاط فى المحرم سنة ١٣٣ هـ وبعث برأس مروان بن محمد إلى العراق .

وهكذا زالت الدولة الأموية بعد انتصار العباسيين على مروان ابن محمد فى مصر وأصبحت مصر منذ أواخر سنة ١٣٢ هـ وأوائل سنة ١٣٣ هـ ولاية تابعة للخلافة العباسية بالعراق .

---

(١) يرجح أنها أبوصير القرية الحالية التي تقع الآن فى مركز الواسطي فى مديرية بنى سويف .

٣ — الحركات السياسية والدينية منذ قيام الدولة العباسية إلى قيـــام الدولة الطولونية
(١٣٢ — ٢٥٤ هـ)

(أ) موقف الأمويين والعلويين فى مصر من الخلافة العباسية

لم يكن القضاء على الخلافة الأموية معناه القضاء على الأمويين نهائيا فقد انبعثت الدولة الأموية فى الأندلس ؛ أما فى مصر فقد قامت محاولة أموية علنية ضد الخلافة العباسية فى عهد الخليفة العباسى المهدى (١٥٨ — ١٦٩ هـ) وكان بطل تلك المحاولة هو دحية بن مصعب بن الأصبغ ابن عبد العزيز بن مروان ، الذى خرج فى الصعيد فى ولاية ابراهيم ابن صالح (١٦٥—١٦٧ هـ) وقد استفحل أمر دحية وملك أغلب الصعيد ، ولم يفلح الوالى العباسى فى القضاء عليه فعزله الخليفة وولى مكانه واليا ثانيا ثم ثالثا ، ولم يفلح هؤلاء فى القضاء على ثورة دحية وكاد أمر دحية أن يتم وتخرج مصر من حكم العباسيين ؛ إذ بايعه كثير من الناس وكاتبه البعض ودعوه إلى دخول الفسطاط .

وأخيرا عين الخليفة العباسى على مصر الفضل بن صالح بن على العباسى فى آخر المحرم سنة ١٦٩ هـ ، وكان أمامه قبل كل شىء أن يقضى على دحية الذى تفاقم خطره ، وقد اشتبكت قوات الوالى مع قوات الثائر الأموى بضعة أشهر وانتهى الأمر بأسر دحية وجىء به إلى الفسطاط ، فضرب الفضل عنقه وصلب جثته وبعث برأسه إلى الخليفة

الهادى ، وكان قتله فى جمادى الآخرة سنة ١٦٩ هـ . وكان القضاء على دحية الأموى معناه انتهاء أول المحاولات العلنية وآخرها من جانب الأمويين فى مصر لاسترداد الخلافة . على أنهم بعد ذلك كانوا ينضمون أحيانا إلى الثائرين على الخلافة العباسية من العلويين ، وذلك رغبة فى الكيد للدولة العباسية .

أما الدعوة العلوية فى مصر فقد ظهرت منذ عهد الخليفة أبى جعفر المنصور (١٣٦ - ١٥٨ هـ) ففى إمارة حميد بن قحطبة (١٤٣ - ١٤٤ هـ) قدم إلى مصر على بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب يدعو لأبيه وعمه . وقد كان أبوه محمد بن عبد الله المعروف بالنفس الزكية قد دعا إلى نفسه سرا فى خلافة المنصور وتلقب بأمير المؤمنين وفى سنة ١٤٥ هـ ظهر فى الحجاز بعد أن اختفى زمنا كان أشياعه يقيمون له الدعوة حتى كثر أنصاره فى خراسان ، واعترف الناس بإمامته فى مكة والمدينة ، ومن ثم أرسل أخاه ابراهيم إلى البصرة لنشر دعوته . على أن محمدا كان مصيره القتل على يد القائد العباسى عيسى بن موسى فى المدينة المنورة . وبعد مقتله دعا أخوه ابراهيم إلى نفسه وقام لنصرته كثيرون من فقهاء البصرة وذوى الرأى والجاه ، ولكن ابراهيم لقى حتفه كأخيه على يد عيسى بن موسى العباسى أيضا فى موقعة باخمرا بين الكوفة وواسط وذلك فى ذى الحجة سنة ١٤٥ هـ .

أما ما كان من أمر هذه الدعوة فى مصر فهو أنه لما قدم على بن محمد إليها يدعو لأبيه وعمه توانى حميد بن قحطبة والى مصر فى الأمر ، ولذلك نرى الخليفة أبا جعفر المنصور يعزله ويولى بدلا منه يزيد بن حاتم

بن قبيصة بن المهلب بن أبى صفرة (١٤٤ — ١٥٢ هـ) وفى بدء ولاية الوالى الجديد كانت دعوة بنى الحسن بن على قد ظهرت فى مصر وبايع كثير من الناس لعلى بن محمد ، وكان على هذا أول علوى قدم مصر ، ولكن حين وصلت الأخبار إلى مصر بقتل محمد النفس الزكية وأخيه خمدت الحركة فى مصر كما خمدت فى الحجاز والعراق .

وأما على بن محمد النفس الزكية فقد اختلفت الروايات فى أمره فقيل إنه أرسل إلى أبى جعفر المنصور ، ولكن الراجح أنه اختفى بمصر إلى أن مات فيها ، وهكذا انتهت تلك الحركة فى مصر وهى لا تزال فى المهد . وجدير بالذكر أن بعض أفراد البيت الأموى فى مصر كانوا ممن بايع لعلى بن محمد ومن هؤلاء مصعب ومنصور وزيد أبناء الأصبغ بن عبد العزيز بن مروان .

وحدث بعد ذلك أن آوت مصر أحد العلويين الذى استطاع بعد خروجه منها أن يقتطع لنفسه جزءاً من بلاد الدولة العباسية ويكون لنفسه دولة مستقلة . ذلك العلوى هو ادريس بن عبد الله أخو محمد النفس الزكية . ففى عهد الخليفة الهادى (١٦٩ — ١٧٠ هـ) خرج الحسين بن على بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب بالمدينة يدعو إلى نفسه ، ومنها سار إلى مكة حيث التقى بجيش العباسيين فى واد يبعد عن مكة بنحو ستة أميال يقال له : فخ ، فقتل بعد أن أبلى بلاء شديدا وكانت هذه الموقعة من الشدة بحيث قيل : « لم تكن مصيبة بعد كربلاء أشد وأفجع من فخ » . وكان ممن ناصر الحسين بن على فى حركته هذه يحيى وإدريس ابنا عبد الله بن الحسن بن على وقد نجحا فى أن

يهربا من هذه الموقعة . أما يحيي فقدثار فى بلاد الديلم فى عهد هرون الرشيد وانتصر له أهل اليمن ، وغدا أمره من الخطر بحيث هدد سلامة الدولة العباسية وأقلق بال الرشيد فأنفذ إليه الفضل البرمكى ، فما زال به حتى رضى بالصلح على أن يكتب له الرشيد أمانا بيده ، ولكنه قتله ومداد الأمان لم يجف بعد .

أما إدريس بن عبد الله فقد توجة إلى بلاد المغرب الأقصى وبايعه البربر فى سنة ١٧٢ ه وكون هناك أول دولة للعلويين وهى دولة الأدارسة . وقد مر إدريس بمصر وسهل له واليها المرور من مصر إلى إفريقية ، بل يقال : إن عامل بريد مصر آنذاك كان يميل للعلويين فحمل إدريس على البريد إلى المغرب .

ويظهر أن تعقب العباسيين للعلويين واضطهادهم إياهم قد ألجأهم إلى الفرار إلى الجهات البعيدة عن مقر الخلافة العباسية ، ولاسيما ما كان منها مرتعا خصيبا للمعارضة كبلاد البربر . والذى يهمنا أن كثيرا من آل البيت قد أتوا إلى مصر ليكونوا بعيدين عن الاضطهادات والمضايقات التى نالتهم على أيدى الخلفاء العباسيين . ولا تزال مصر حافلة بقبور آل البيت منذ ذلك العهد البعيد . وممن أتى إلى مصر فى ذلك العهد السيدة نفيسة رضى الله عنها بنت الحسن بن زيد بن الحسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم ، وقد أتت مع زوجها إسحق بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم . وقيل إن السيدة نفيسة كانت فيمن صلى على الإمام الشافعى حين

توفى سنة ٢٠٤ هـ وقد توفيت فى شهر رمضان سنة ٢٠٨ هـ وقبرها لايزال من المقابر المشهورة بالقاهرة .

ولم نسمع بأن أحدا تعرض للعلويين فى مصر بسوء طوال ذلك العهد إلى أن كان زمن الخليفة المتوكل على الله العباسى (٢٣٢-٢٤٧ هـ)، وكان يبغض العلويين ، فأرسل كتابا هو وابنه المنتصر — صاحب إقطاع مصر حينذاك — إلى والى مصر إسحاق بن يحيى (٢٣٥ — ٢٣٦ هـ) يأمره بإخراج آل على بن أبى طالب من مصر فأخرجوا من الفسطاط سنة ٢٣٦ هجرية إلى العراق ، وهناك أمروا بالخروج إلى المدينة (١) ، أما الذين بقوا فى مصر من العلويين فقد اضطروا إلى الاختفاء(٢) وقد أصبح العلويون والشيعة فى مصر غير آمنين على أنفسهم من اضطهاد العباسيين منذ عهد المتوكل . واستمر الاضطهاد فى خلافة المنتصر (٢٤٧ — ٢٤٨ هـ) . وفى خلافة المستعين (٢٤٨-٢٥٢ هـ) خرج أحد العلويين من نسل الحسين وانتهى أمره بأن أخرج من مصر فى جمع من آل أبى طالب إلى العراق سنة ٢٤٨ هـ ، ثم خلع المستعين من الخلافة وبويع للمعتز (٢٥٢ — ٢٥٥هـ) ، وكان مقر الخلافة العباسية يعانى اضطرابا كبيرا آنذاك بسبب تحكم الجند والقواد الترك فى شئون الدولة المدنية والحربية . وكان الاضطراب فى مركز الخلافة إيذانا باضطراب الأحوال فى الأقاليم المختلفـــة فى الدولة الإسلامية كما كان

(١) الكندى : الولاة والقضاة ص ١٩٨ وخطط المقريزى ج ٢ ص ٣٣٩ وابو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٢٨٤ — ٢٨٥ .

(٢) خطط المقريزى ج ٢ ص ٣٣٩

فرصة لذوى الأغراض المختلفة للقيام ضد الخلافة العباسية ومن بينهم العلويون .

وقد ثار فعلا بعض العلويين الموجودين فى مصر وخرجوا علانية فخرج علوى يقال له: ابن الأرقط سنة ٢٥٢ ﻫ وينتسب إلى الحسين بن على وانضم إلى جابر بن الوليد المدلجى الذى ثار فى الإسكندرية والوجه البحرى ، وانتهى أمره بأن أخرج إلى العراق فى سنة ٢٥٣ ﻫ . كذلك خرج علوى آخر فى الصعيد عرف باسم بغا الأكبر ولكنه هزم سنة ٢٥٤ ﻫ ثم فر ومات .

كذلك خرج من العلويين بغا الأصغر فى موضع يقال له : الكنائس بين الأسكندرية وبرقة وذلك فى سنة ٢٥٥ ﻫ ثم سار فى جمع إلى الصعيد حيث هزم على يد أحمد بن طولون وقتل فى الحرب وأتى برأسه إلى الفسطاط سنة ٢٥٥ ﻫ . وكذلك ثار بصعيد مصر فى سنة ٢٥٣ ﻫ أحد العلويين ويقال له : ابن الصوفى العلوى ودخل إسنا فى سنة ٢٥٥ ﻫ ، وقد بعث إليه أحمد بن طولون جيشا لقتاله ، وانتهى أمر ذلك العلوى بأن ذهب إلى المدينة المنورة حيث قضى فيها بقية أيامه .

وهكذا نرى أن العلويين كانوا يخرجون علانية إذا استطاعوا أو يكيدون للخلافة العباسية سرا إذا لم تمكنهم الظروف من الخروج علانية، وكانوا يعتبرون العباسيين مغتصبين للخلافة كالأمويين، وقد تتابعت حركاتهم فى نهاية عصر الولاة وشجعهم على ذلك ضعف الخلافة العباسية نفسها حينذاك وسوء حالة الخلفاء الذين أصبحوا ألعوبة فى يد الأتراك .

(ب) أثر النزاع بين الأمين والمأمون فى مصر

قام النزاع بين الخليفة الأمين وأخيه المأمون بسبب نظام ولاية العهد ، فقد أخذ الخليفة هارون الرشيد قبل وفاته البيعة من بعده لابنه الأمين ثم المأمون على أن يلى الأمين العراق والشام إلى آخر المغرب ويلى المأمون من همذان إلى المشرق على ألا يكون للأمين سلطان عليه . لكن الأمين أظهر منذ توليه الخلافة عدم رغبته فى تنفيذ عهد الرشيد فخلع المأمون من ولاية العهد وبايع لابنه موسى ، وقامت الحروب لهذا السبب بين الأمين والمأمون منذ سنة ١٩٥ ه وانتهت بأن حاصر جيش المأمون بغداد وقتل الأمين فى سنة ١٩٨ ه وبذلك انتهت خلافة محمد الأمين وآلت الخلافة لعبد الله المأمون .

وقد كانت خلافة الأمين (١٩٣ — ١٩٨ه) فترة فوضى واضطراب فى جميع أنحاء الدولة الإسلامية وذلك للنزاع بينه وبين أخيه ولم تنته تلك الفوضى باعتلاء المأمون عرش الخلافة فى سنة ١٩٨ ه بل ظلت آثارها عدة سنين . وقد شملت هذه الفوضى مصر أيضاً فتحزب فريق للأمين وتحزب فريق آخر للمأمون ، كما ظهرت فى تلك الأثناء رغبة بعض الشخصيات فى الاستقلال بمصر عن الخلافة ونجحوا فى ذلك إلى حد ما . واستطاع أيضاً بعض الأندلسيين فى تلك الفترة أن يؤسسوا لهم شبه جمهورية مستقلة عن الخلافة فى الإسكندرية .

وقد بدا اضطراب الجند فى مصر عقب وفاة الرشيد فى سنة ١٩٣ ه وظهر الاضطراب واضحا منذ سنة ١٩٥ ه عندما علم أهل مصر بخلع

الأمين أخاه المأمون من ولاية العهد ففكر فريق من الجند فى خلع الأمين غضبا للمأمون وتزعم هذه الحركة السرى بن الحكم بن يوسف . وقد دخل السرى مصر لأول مرة زمن الرشيد إذ كان من جند الليث بن الفضل والى مصر حينئذ (١٨٢ — ١٨٧ هـ) ويقال : إن السرى كان خامل الذكر ولم يرتفع شأنه إلا بقيامه فى خلع الأمين . وقد شجع السرى بن الحكم على الاستمرار فى حركته ما بلغه من انتصار طاهر بن الحسين على جيوش الأمين .

ولم يغفل المأمون أمر مصر فى نزاعه مع الأمين فكتب إلى وجوه القوم فيها يدعوهم إلى القيام بدعوته فأجابوه كلهم سرا . وأرسل قائد المأمون ، هرثمة بن أعين ، إلى عباد بن محمد بن حيان وكان وكيلا على ضياع هرثمة بمصر ، يدعوه إلى الدعوة للمأمون . وقد نجح عباد إلى حد كبير جداً إذ أجابه إلى ذلك معظم الجند فى مصر ، وكان خلع الأمين فى مصر فى جمادى الآخرة سنة ١٩٦ هـ وقد ثار الجند على والى الأمين جابر بن الأشعث وأخرجوه من مصر ، ثم وليها عباد بن محمد من قبل المأمون . وهكذا نرى مصر تدخل فى طاعة المأمون ولما يصبح بعد خليفة كما حدث أثناء النزاع الذى نشب بين على بن أبى طالب ومعاوية بن أبى سفيان .

أما الخليفة الأمين فانه لم يسلم بما حدث فى مصر فأرسل إلى ربيعة ابن قيس ، زعيم قبيلة قيس بالحوف يبلغه اختياره إياه واليا على مصر كما كتب إلى بعض وجوه القوم فى مصر يطلب إليهم أن يشدوا أزر

ربيعة بن قيس . وفعلا نشبت المناوشات والحروب بين ربيعة بن قيس والى الأمين ، وبين عباد بن محمد والى المأمون .

ثم بدأ يتطور النزاع فى مصر بين الأمين والمأمون إلى نزاع للاستئثار بالسلطة دون الخلافة . فنرى عبد العزيز بن الوزير الجروى وهو من قواد عباد بن محمد والى المأمون ، بعد أن يذهب لمحاربة أتباع والى الأمين يفكر فى الأمر من أجل نفسه وأسرته دون الخلافة .

وفى تلك الأثناء ترد الأخبار إلى مصر بمقتل الأمين فى المحرم من سنة ١٩٨ ه لكن الفوضى كانت قد شملت أنحاء مصر جميعا ولم يصغ الجند فى مصر لأوامر الخليفة ولم يهتموا بولاته أو برجال شرطته ، بل إن الجند فى مصر انتخبوا واليا دون والى الخليفة هو المطلب بن عبد الله . وفى تلك الأثناء دخلت بلاد عدة فى شرقى الدلتا فى حوزة الجروى (١٩٩ه) . ولم يصبح الجروى هو الطامع الوحيد فى الاستئثار بالسلطة فى مصر بل ينضم إلى تلك الزمرة السرى بن الحكم الذى كان يعمل قبلا من أجل المأمون ، واستطاع السرى بن الحكم أن يلى مصر، بإجماع الجند فى سنة ٢٠٠ ه وأخرج المطلب بن عبد الله من مصر، وقد قسمت مصر فعلا بين الخارجين على الخلافة فاستولى عبد العزيز الجروى على شرقى الدلتا ، واستولى السرى بن الحكم على الوجه القبلى من مصر (الفسطاط) إلى أسوان ، أما غربى الدلتا بما فى ذلك الإسكندرية وأعمالها فقد ملكها قبيلتا لخم وجذام .

وحدث فى ذلك الحين ما زاد الحالة سوء إذ رسا بالقرب من الإسكندرية حوالى خمسة عشر ألف أندلسى ومعهم نساؤهم وأطفالهم

وكان ذلك بعد أن طردوا من بلادهم فى عهد ملكهم الحكم بن هشام الأموى على أثر وقعة الربض بقرطبة فى رمضان سنة ١٩٨هـ . وكثيراً ما كان الأندلسيون يأتون إلى الإسكندرية لتبادل التجارة ولكن لم يكن يسمح لهم بالدخول فيها . أما فى هذه المرة فقد أقحم الأندلسيون المطرودون من وطنهم فى منازعات الطامعين والولاة حينذاك حتى إنهم استطاعوا فى فترة وجيزة أن يصبحوا أصحاب الأمر والنهى فى الإسكندرية . وفى تلك الأثناء ظهر فى الإسكندرية طائفة عرفت بالصوفية « تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر » وقد اتخذت تلك الطائفة رجلا من بينهم رئيسا لهم يقال له : أبو عبد الرحمن الصوفى . ولما ملك الأندلسيون الإسكندرية عنوة فى ذى الحجة سنة ٢٠٠ هـ ولوا عليها أبا عبد الرحمن الصوفى ، ولم يلبث الأندلسيون أن عزلوه بعد أن اضطربت فى عهده الأحوال فى الإسكندرية ، وولوا عليها رجلا منهم يعرف بالكنانى . وهكذا أصبحت الإسكندرية شبه جمهورية مستقلة للأندلسيين .

ويظهر أن اضطراب الحال فى الدولة الإسلامية دعا الخليفة المأمون إلى التسليم بالأمر الواقع فى مصر، ريثما تهدأ الأمور فولى المأمون السرى الذى كان له أتباع كثيرون فى سنة ٢٠١ هـ .

وحدث فى سنة ٢٠١ هـ أن بايع المأمون لولاية عهده علويا معروفا هو على الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق وسماه الرضا من آل محمد ، وأمر المأمون جنده بطرح السواد ، شعار العباسيين ولبس ثياب الخضرة شعار العلويين ، وكتب بذلك إلى جميع الآفاق . وقد ظن أهل

بغداد أن هذا من عمل الفضل بن سهل الفارسى الذى كان يدبر أمور المأمون فى مرو ، والإيرانيون كما نعلم يميلون إلى العلويين . ولذا نجد أهل بغداد يبايعون بالخلافة ابراهيم بن المهدى عم المأمون فى سنة ٢٠١ ه ويخلعون المأمون . وقد زاد اضطراب الأحوال فى الدولة الإسلامية ، ولم يعلم المأمون بذلك إذ كتم الفضل بن سهل هذه الأخبار عنه ، ويقال: إن الذى أعلمه بهذه الأمور على الرضا وأشار عليه بالرجوع إلى بغداد لتهدئة الحالة وليضبط الأمور بنفسه . فسار المأمون إلى بغداد ، وفى طريقه إلى هناك مات الفضل بن سهل سنة ٢٠٢ ه ثم مات على الرضا في طوس سنة ٢٠٣ ه . وأخيرا دخل المأمون بغداد فى سنة ٢٠٤ ه واختفى ابراهيم بن المهدى، واستطاع المأمون بعد دخوله بغداد أن يقبض على ناصية الحال فى الدولة الإسلامية وأن يقضى على الاضطرابات التى سادت فيها بعد أن تخلص من النفوذ الفارسى ومن النفوذ العلوى ، وقد استعطفه ابراهيم بن المهدى فصفح عنه .

أما مصر فقد كان ينعكس عليها مايجرى فى الخلافة من أمور ، لذا نرى الخليفة المأمون حينما بايع لعلى الرضا ، يكتب إلى السرى بن الحكم يأمره بالبيعة فيها لولى عهده على الرضا فى المحرم سنة ٢٠٢ ه فبويع له فيها . على أن المصريين انقسموا على أنفسهم إزاء هذه البيعة كما حدث فى بغداد وسائر الدولة الإسلامية ، إذ كتب ابراهيم بن المهدى إلى وجوه الجند فى مصر يأمرهم بخلع المأمون وولى عهده والثورة ضد السرى ، وكان من السهل أن يلقى إبراهيم بن المهدى أنصاراً له بمصر ، لا حباً فى خلافته ، وإنما طمعاً من البعض فى السلطان أو لتذمرهم من ولاية السرى أو غير ذلك من الأغراض المختلفة التى كانوا يسترونها

وراء قيامهم بالدعوة لأحد الخلفاء أو لأحد الخارجين على الخلافة . وكان عبد العزيز بن الوزير الجروى من أنصار الدعوة لإبراهيم بن المهدى وعدم الموافقة على البيعة لعلى الرضا .

وعندما علم الجند بموت على الرضا وانخذال إبراهيم بن المهدى أظهروا بيعة المأمون والدعوة إليه ، وقد ورد كتاب المأمون إلى السرى بذلك وبغسل المنابر التى دعا عليها لعلى الرضا .

وقد ظلت القوى المختلفة فى مصر — الأندلسيون والجروى والسرى — تتطاحن فيما بينها، ولقى أهل البلاد كثيرا من العنت وسط هذا التطاحن فقام الأقباط بالثورة ضد التعسف المالى .

وأخيراً لقى الجروى حتفه وهو يحاصر الأندلسيين فى الإسكندرية فى صفر سنة ٢٠٥ هـ ثم مات السرى بن الحكم بعده بثلاثة أشهر فى الفسطاط ، لكن الأحوال لم تهدأ قليلا أو كثيراً بموت هذين الزعيمين ، إذ ورث أبناؤهما النزاع حول الاستئثار بالسلطان فى مصر ، فكان بيد أبى نصر بن السرى الفسطاط والصعيد وغربى الدلتا ، وكان بيد على بن عبد العزيز الجروى بقية الوجه البحرى وقد وقعت الحروب بينهما ثم اصطلحا على أن يكف أحدهما عن الآخر . وحينما توفى أبو نصر بن السرى فى شعبان سنة ٢٠٦ هـ بايع الجند عبيد الله بن السرى بولاية مصر ، ولم يتعرض على بن الجروى لعبيد الله بن السرى .

وكان عبيد الله بن السرى من القوة بحيث استطاع أن يهزم والياً أرسله الخليفة المأمون من قبله إلى مصر حينذاك . ويظهر أن الأمور فى مختلف أنحاء الدولة الإسلامية شغلت المأمون حتى ذلك الوقت عن التفرغ

للقضاء على الفوضى فى مصر وإرجاعها ثانية إلى حظيرة الخلافة، ولذا نراه يرسل رسولا من قبله، يقر عبيد الله بن السرى على ما بيده من أرض مصر، ويقر عليّا بن الجروى على ما بيده. وقد ازدادت قوة عبيدالله ابن السرى زيادة كبيرة حتى استطاع أن يدخل تنيس مقر ولاية الجروى وهرب ابن الجروى إلى الفرما ثم العريش سنة ٢٠٩ هـ، أى أن مصر كلها خضعت لعبيد الله بن السرى إذا استثنينا الإسكندرية التى كانت تحت سلطة الأندلسيين. على أنه لم يكن من السهل أن يتخلى ابن الجروى عن ولايته فى الوجه البحرى أو فى شرقى الدلتا فحدثت مناوشات وحروب بينه وبين ابن السرى، وبيناهما كذلك قدم عبد الله بن طاهر ابن الحسين من الشام موفداً من قبل الخليفة المأمون ليقضى على الفوضى التى سادت فى مصر منذ خلافة الأمين.

ولما وصل عبد الله بن طاهر إلى مصر، استقبله على بن الجروى استقبالا حسناً وانضم إليه وقدم إليه الأموال، ثم أرسل ابن طاهر إلى عبيد الله بن السرى يدعوه إلى الطاعة، ولكن عبيدا أخذ يستعد لحربه فأعد سفنه وأحكم أموره وحفر خندقه حول الفسطاط ثم اشتبك الفريقان فانهزم عبيد الله بن السرى وقتل معظم أصحابه حتى أشرف على الهلاك فطلب الأمان.

وقد كتب ابن طاهر إلى الخليفة المأمون كتابا يسأل فيه أمان عبيد الله بن السرى، فأجابه الخليفة إلى ذلك، وكتب ابن طاهر كتاب الأمان لعبيد الله أشهد فيه شهوداً من الجند والفقهاء وأشراف أهل مصر فى صفر سنة ٢١١هـ، ثم خلع عليه ابن طاهر وأجازه بعشرة آلاف

دينار وأمره بالخروج إلى المأمون وبذلك خلصت معظم مصر للخلافة على يد عبد الله بن طاهر . وكان أمامه أن يقضى على الجمهورية التى أقامها الأندلسيون بالإسكندرية منذ أكثر من عشر سنوات .

سار عبد الله بن طاهر فى قواده إلى الإسكندرية فى بداية صفر سنة ٢١٢ هـ وألقى الحصار عليها فى ربيع الأول فطلب أهلها الأمان ، وقد صالح ابن طاهر الأندلسيين على أن يسيرهم من الإسكندرية حيث أحبوا فخرجوا إلى جزيرة إقريطش (كريت) وملكوها وكان أميرهم أبو حفص عمر بن عيسى ، ثم ولى ابن طاهر على الإسكندرية إلياس ابن سامان ورجع ثانية إلى الفسطاط فى جمادى الآخرة سنة ٢١٢ هـ .

وهكذا عادت مصر بفضل مجهودات عبد الله بن طاهر ولاية خاضعة للخلافة ، بعد أن سادت فيها الفوضى وكادت تخرج من حكم الخلافة وتستقل بأمورها منتهزة فرصة النزاع بين الأمين والمأمون ثم الاضطراب الذى قام فى أوائل حكم المأمون .

ويجدر بنا أن نلاحظ أن السرى بن الحكم وعبد العزيز بن الوزير الجروى استطاعا أن يكونا لنفسيهما ولأسرتيهما من بعدهما ملكا شبه مستقل دام أكثر من عشر سنوات . وقد سيطرت أسرة السرى على الفسطاط عاصمة مصر دائماً ، وعلى الصعيد فى الغالب ، وأحياناً على غربى الدلتا وقليلا ما سيطرت على شرقى الدلتا ، أما أسرة الجروى فقد سيطرت على شرقى الدلتا من تنيس وأحياناً كان يمتد نفوذها على الصعيد أو على غربى الدلتا . وكانت أسرتا السرى والجروى كغيرهما من الأسرات التى استقلت بمصر فيما بعد ، مثل الطولونيين

والإخشيديين ، أى أنه لم يكن لهـا أساس قومى فى البلاد التى اتخذتها مسرحا لنشاطها . فهذه الأسرات التى قامت فى مصر الإسلامية لم تـكن نتيجة لحركات قومية وإنما كانت حركات فردية قام بها ذوو الشخصيات الطموحة القوية . ولذا لم يكن من المنتظر أن تعمر طويلا بعد وفاة مؤسسيها وخاصة إن كان خلفاء هؤلاء المؤسسين لا تتوفر لديهم القوة والشخصية التى كانت لأسلافهم ويصح أن تعتبر أسرتى السرى والجروى أول أسرتين شبه مستقلتين فى مصر الإسلامية ، وقد كانتا مقدمة لأسرة ابن طولون التى استقلت بمصر استقلالا فعليـاً فى الواقع وذاتياً فى الظاهر .

(حـ) مصر والمحنة بخلق القرآن

نشأ مذهب الاعتزال فى البصرة فى أواخر عهد الأمويين ، وهو مذهب فـكرى دينى ظهر كما ظهر غيره من الفرق والمذاهب فى فجر الإسلام نتيجة لتأثر المسلمين بالثقافات الإغريقية والفارسية القديمة والمسيحية التى كانت سائدة فى البلاد التى فتحوها . وقد أخذ فريق من علماء المسلمين يتعمق فى بحث المسائل الدينية على غرار ما كان يفعله رجال الدين والفلاسفة القدماء ، واستطاع المسلمون أن يكونوا لأنفسهم فلسفة تتمشى مع أصول الدين الإسـلامى وأحوال المسلمين الاجتماعية . ولا يعنينا هنا أن نبحث فى آراء المعتزلة الدينية ومعتقداتهم وإنما يهمنا أن الدولة العباسية اتخذت الاعتزال فى وقت ما مذهباً رسمياً لها وحملت جميع رعاياها على اعتناقه مستخدمة فى ذلك جميع وسائل

القوة والعنف ، وكانت مصر ممن حمل على اتخاذ ذلك المذهب . وكانت مسألة خلق القرآن هى المسألة التى تركز فيها الاعتزال فى تلك الفترة (٢١٨ — ٢٣٤ هـ) لكثرة القول والجدل فيها ، ولأنها مبنية على أكبر أصل من أصولهم وهو التوحيد وعدم تعدد صفات الله . فقد ذهب المعتزلة إلى أن القرآن حادث مخلوق نزل فى ظروف معينة وليس أزلياً ، وكان من رأيهم أنه إذا نظرنا إلى كل كلمة فى القرآن على أنها لها ما للخالق من صفات أزلية فإنه يعترينا شىء من العجز فى فهم نصوصه ، وهذا يحملنا نتمسك بظاهر النصوص ولا نكيف هذه النصوص على حسب العصور والمناسبات . والمعتزلة لا يريدون أن يقف الإنسان موقف العجز إلى هذا الحد ، فهم يريدون أن يرى الإنسان هذه النصوص مرنة يمكن تكييفها فى مختلف الأجوال . ومن حجج المعتزلة المتعلقة بخلق القرآن أن فيه أشياء متباينة كالأمر والنهى ، والخبر والاستخبار ، والوعد والوعيد ، وإذا كان القرآن قديماً أزلياً قدم الله فكيف يكون فيه ، أشياء متضادة والله منزه عن التضاد والاختلاف والتباين !؟ وإذا كان كلام الله أزلياً فكيف يخاطب الله موسى !! كيف يخاطب الله رجلا قبل أن يخلق !؟ وقد رأى المعتزلة أنه لا يصح وصف الله بصفة يوصف بها خلقه كالسمع والتكلم والبصر ، كما أن الصفات تفيد معنى التعدد والله واحد . وقالوا : كيف تكون هذه الصفات أزلية مع أنها صفات عارضة يمكن أن تعطل ، فيصبح السامع أصماً والمتكلم أخرس والمبصر أعمى !!

ولذا نرى المعتزلة يقولون بخلق القرآن لأن صفة الكلام فى نظرهم

منفية عن الله تعالى ولا يمكن اعتبار القرآن كلام الله إلا على التأويل.

وقد أظهر الخليفة المأمون القول بخلق القرآن فى سنة ٢١٢ ﻫ إلا أنه لم يحمل الناس على اتباعه إلا فى سنة ٢١٨ﻫ قبيل وفاته وهو خارج بغداد لغزو الروم، إذ كتب إلى والى بغداد، إسحق بن ابراهيم، يطلب منه أن يمتحن القضاة والفقهاء والمحدثين فى خلق القرآن ويعاقب من لا يقر بخلقه . على أن المأمون توفى بعد ذلك بنحو أربعة أشهر (رجب سنة ٢١٨ ﻫ) ، فحمل هذا الأمر من بعده أخوه المعتصم (٢١٨ — ٢٢٧ ﻫ) ثم الواثق (٢٢٧ — ٢٣٢ ﻫ) وقد عذب كثير ممن امتنعوا عن القول بخلق القرآن نذكر منهم الإمام أحمد بن حنبل ، كما قتل البعض الآخر . وبقدر ما كان الخلفاء يشتدون فى تلك المسألة كان العلماء والشعب يعارضون فيها ، وقد أصبحت كلمة المحنة تعنى اختبار العلماء فى القول بخلق القرآن وما لاقوه فى ذلك من عذاب ، وهكذا أصبحت الدولة الإسلامية كلها موضوع محاكمة . ويهمنا ما كان من أمر مصر فى هذه المسألة .

فى ولاية كيدر نصر بن عبد الله (٢١٧ — ٢١٩ ﻫ) ورد عليه كتاب المعتصم (صاحب إقطاع مصر حينذاك) فى جمادى الآخرة سنة ٢١٨ ﻫ يأمره بأخذ الناس بالمحنة بخلق القرآن وأن يمتحن المحدّثين والفقهاء والشهود ، وأن يعزل القاضى إن لم يقر بخلق الفرآن ، وكذلك طلب منه ألا يأذن لأحد فى حديث أو فتوى أو شهادة إلا إذا أقر بخلق القرآن .

والظاهر أنه لم تقم فى مصر فى أول الأمر معارضة شديدة للقول

بخلق القرآن ، كما قامت في العراق مقر الخلافة ، ولم تتعرض مصر لما تعرض له العراق من قتل وتعذيب واضطهاد بسبب المحنة وربما أقر المصريون القول بخلق القرآن تقية فكفاهم هذا شراً كثيراً . ولذا كان أمر المحنة في مصر سهلا في آخر خلافة المأمون وفي خلافة المعتصم ، ولعل المصريين لم يقوموا بمعارضة شديدة ضد المحنة طالما لم يؤخذوا فيها بالشدة ، فلما ولى الواثق الخلافة (٢٢٧ — ٢٣٢ هـ) كان يقول بخلق القرآن عن عقيدة كما فعل المأمون ، ولذا نجده يرسل إلى قاضي مصر محمد ابن أبي الليث يأمره بامتحان الناس جميعا حتى لم يبق أحد من فقيه أو محدث أو مؤذن أو معلم حتى أخذ بالمحنة وعندئذ عارض كثير من المصريين المحنة وثاروا ضدها فملئت السجون بهم كما هرب الكثيرون .

وقد أمر ابن أبي الليث أن يكتب على المساجد « لا إله إلا الله رب القرآن المخلوق » .

وكان ممن هرب بسبب المحنة أحد علماء مصر المشهورين حينذاك ، وهو ذو النون بن ابراهيم الأخميمي لكنه وقع في يد القاضي ابن أبي الليث فأقر بخلق القرآن[1] .

وممن امتنع عن القول بخلق القرآن أبو يعقوب يوسف بن يحيي البويطي المصري صاحب الإمام الشافعي[2] فقد حمل إلى بغداد وظل ممتنعا عن القول بخلق القرآن ولم يزل محبوسا هناك إلى أن توفى سنة ٢٣١ هـ .

---

(١) الكندي : الولاة والقضاة ص ٤٥٣ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٢٦٠ — ٢٦١ .

وعلى وجه الإجمال كان أمر المحنة فى مصر خفيف الوطأة على المصريين ، فلم يقاسوا بسببها إلا بضع سنوات فى عهد الخليفة الواثق فلئت السجون بهم ، كما تحمل البعض الآخر مشقة الرحيل عن وطنهم ، ولكننا لا نسمع عن كثير من حوادث القتل أو التعذيب كما كانت الحال فى العراق . فلما ولى الخليفة المتوكل العباسى أبطل فى سنة ٢٣٤ هـ هذه المحنة من مصر ومن جميع أنحاء الدولة الإسلامية . وقد فرح الناس بهذا فرحا عظيما وعظموا المتوكل حتى قيل : « الخلفاء ثلاثة ، أبو بكر الصديق يوم الردة ، وعمر بن عبد العزيز فى رد مظالم بنى أمية ، والمتوكل فى إحياء السنة »(١) .



(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٢٧٥ ، السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٢٣٠ .

الباب الثالث

انتشار الإسلام وتعريب مصر

١ ــ العرب والأقباط فى عصر الولاة

كان للفتوحات العربية أثر ملحوظ فى سرعة انتشار الدين الإسلامى فى كل الأقاليم التى فتحها العرب خارج شبه الجزيرة العربية ، فدخل الدين الإسلامى فى هذه البلاد بدخول العرب فيها وما لبث أن تغلب على الأديان التى وجدت قبله وأصبح المسلمون أغلبية فيها . والمعروف أن الدولة العربية التى قامت بقيام الدين الإسلامى والتى كان شعارها حماية ذلك الدين والقيام لنصرته لم تضطهد أحداً من أهل الذمة أو ترغمه على ترك دينه . وكان العرب فى مصر وغيرها من البلاد التى فتحوها يخيرون أهالى البلاد المفتوحة بين ثلاثة أمور : الإسلام أو الجزية أو الحرب . كذلك لم يكن للإسلام مبشرون أو دعاة مخصوصون يقومون بالدعوة لهذا الدين كما فى الديانة المسيحية . وإذا كانت هذه هى سياسة العرب الدينية العامة فى مصر وفى غيرها من البلاد التى فتحوها فيهمنا أن نعرف كيف انتشر الدين الإسلامى فى مصر، حتى أصبح المسلمون أغلبية فى أواخر عصر الولاة .

دخل الإسلام فى مصر لأول مرة بدخول العرب فاتحين ، وتشير المصادر التى عاصرت الفتح إلى أن عدداً من المصريين قد أسلم قبل فتح مصر نهائياً ، وكان هؤلاء نعم العون للعرب ، ومن هؤلاء أحد رهبان دير سينا(١) . ولا شك أن بعض الذين أسلموا زمن الفتح كان إسلامهم عن إيمان واعتقاد ، كما أسلم البعض الآخر رغبة فى الانتماء إلى دين الطبقة

---

(١) حنا النقيوسى : تأريخ ص ٥٨٥

الحاكمة . ثم أخذ الدين الإسلامى ينتشر تدريجيا فى مصر كلما تقادم العهد بالعرب فيها ، كما وجدت فترات معينة كان التحول فيها إلى الدين الإسلامى بكثرة ملحوظة . ويجدر بنا أن نبين أولا كيف كان موقف الأقباط من الفتح العربى .

كان معظم المصريين فى ذلك الوقت من الأقباط الأرثوذكس والذين تسميهم بعض المراجع « اليعاقبة » وكان هناك أقلية من الأقباط يتبعون المذهب الملكانى أو الخلقدونى . ونلاحظ أن العرب فى فتحهم لمصر كانوا يحاربون البيزنطيين لا المصريين . وكان المصريون إذ ذاك قد أنهكتهم الأعباء المالية والاضطهادات الدينية حتى إن المؤرخين المصريين المسيحيين فى العصور الوسطى يذكرون صراحة أن انتصار العرب هو غضب من الله على الروم بسبب عقيدتهم الخلقدونية الفاسدة ، وبسبب استبداد هرقل والاضطهادات التى أنزلها بالأرثوذكس فى مصر على يد قيرس[1] . لهذا نرى الأقباط يساعدون العرب فى أثناء فتحهم لمصر . وجدير بالذكر أن وجود مصريين كثيرين فى جيش البيزنطيين المدافع عن مصر كان من أسباب فشله فى حمايتها من العرب لأنهم لم يخلصوا فى الدفاع عنها . على أننا لا نستبعد أن يكون هناك فريق من المصريين قد وقف موقف الحياد كما ذكرنا قبلا وذلك لعلمهم أن الترحيب بالعرب معناه انتقالهم من تبعية إلى تبعية أخرى ، كذلك حارب فريق من الشعب المصرى فى صف البيزنطيين وهؤلاء كانوا إما صنيعة للبيزنطيين أو ربما

---

(١) أنظر المرجع السابق ص ٥٨٤ ، ساويرس بن المقفع : سير الآباء البطاركة (T.I) ص ٢٢٨ — ٢٢٩ .

توقعوا أن يكون النصر للبيزنطيين لا للعرب . لكن الروح السائدة من جانب المصريين بوجه عام كانت روح ترحيب بالعرب .

هذا هو موقف الأقباط بالنسبة للفتح العربى. ولنر كيف كان موقف العرب من الأقباط .

حينما فتح العرب مصر أخذوا يتحببون إلى الأقباط — وهم أهل البلاد — كى يضمنوا ولاءهم وإخلاصهم حتى تستقر أقدامهم فى مصر.

ويذكر الرواة أن الرسول عليه الصلاة والسلام أوصى بقبط مصر فى عدة أحاديث نذكر منها قوله : « إن الله عز وجل سيفتح عليكم بعدى مصر فاستوصوا بقبطها خيراً فإن لهم منكم صهراً وذمة » إذ كانت هاجر زوج إبراهيم الخليل عليه السلام وأم ولده اسماعيل منهم ، كما كانت مارية القبطية زوج الرسول عليه الصلاة والسلام منهم أيضاً[1] . ولسنا نعرض هنا لصحة هذا الحديث ، ولكنه يشهد على كل حال ، بموقف المسلمين من الأقباط فى فجر الإسلام وحين جمعت الأحاديث . ونعرف أنه بعد ما استولى عمرو بن العاص على الإسكندرية أعاد إليها بنيامين بطرك الأقباط الذى كان قد اضطر إلى الاختفاء عند مجىء قيرس إلى مصر . فعم السرور والفرح بين القبط ، ولا يستبعد أن يكونوا قد وقفوا من وراء راعيهم يشدون أزر العرب ضد الروم حينما أغاروا على الإسكندرية سنة ٢٥ هـ . وقد ذكرنا سابقاً أن أهل مصر ألحوا على

---

(١) انظر المقريزى : الخطط ج ١ س ٢٤ — ٢٥ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ١ س ٣٣

عثمان بن عفان سنة ٢٥هـ أن يرسل عمرو بن العاص إليهم لطرد الروم لأنه أعلم الناس بحربهم ومدافعتهم .

كذلك انتصر المسلمون للأقباط الأرثوذكس على أعدائهم فى المذهب الدينى وهم الملكانيون ، فاسترد الأرثوذكس عدداً من الكنائس والأديرة التى كانت فى يد أعدائهم الملكانيين ، كما انتهزوا فرصة حسن علاقتهم بالمسلمين لكى يجذبوا إلى مذهبهم كثيراً من الملكانيين بل حدث فى ولاية قرة بن شريك على مصر أن فرض على الملكانيين جزية مضاعفة . ولم يتمتع الملكانيون ببعض الحرية إلا فى فترات معينة محدودة ولأسباب خاصة ، فمثلا نرى الخليفة هشام بن عبد الملك — على أثر الاتفاق الذى تم بينه وبين البيزنطيين — يأمر واليه على مصر ، عبيد الله ابن الحبحاب أن يسلم للملكانيين كنائسهم التى كانت فى يد اليعاقبة كما نصب بطركا لهم بعد أن كانوا قد أقاموا بغير بطرك منذ الفتح .

كذلك بنيت عدة كنائس فى ظل الحكم العربى ، وجددت كنائس أخرى . كما ظل الأقباط يحتفلون بأعيادهم الدينية التى يعددها لنا المقريزى فى كتاب « الخطط »[1] . ولم نعرف أن العرب فعلوا شيئاً يحد من حرية الأقباط فى احتفالاتهم الدينية بتلك الأعياد ، وإن كان ولاة مصر فى ذلك العهد لم يشتركوا فى الاحتفالات الرسمية بهذه الأعياد كما حدث بعد ذلك مثلا فى عهد الإخشيديين والخلفاء الفاطميين . ولعل السبب فى ذلك هو أن مصر كانت جزءاً من الخلافة فلم يحرص الولاة

---

(١) الخطط ج ١ ص ٢٦٤ — ٢٦٩

على أن يتقربوا للشعب بعكس الإخشيديين الذين كانوا يتقربون إلى الشعب ليعاونهم فى استقلالهم عن بغداد ، كذلك كان الفاطميون يتوددون إلى الشعب كى يتقووا به ضد خلافة بغداد . أما المصريون المسلمون فلم يجدوا غضاضة فى ذلك لأن الكثير منهم كان من أصل قبطى . وربما اكتفى ولاة مصر فى ذلك العهد بمشاركة الأقباط فى الاحتفال بوفاء النيل كل عام ، ذلك الاحتفال الذى ظل منذ عهد الفراعنة إلى الآن لأن النيل مصدر ثروة مصر ورخائها . ويذكر ابن عبد الحكم — وهو أقدم مؤرخ مصرى مسلم — ومن نقل عنه من المؤرخين(١) ، أن العرب أبطلوا عقب الفتح مباشرة عادة إلقاء فتاة مزينة بالحلى والثياب فى نهر النيل قبل حلول الفيضان وذلك ليفيض النيل . على أننا نرى أن هذه الرواية انفرد بها ابن عبدالحكم الذى توفى فى سنة ٢٥٧ هـ ٨٧٠ — ٨٧١م أى عقب الفتح بأكثر من قرنين ، وأخذها من بعده المؤرخون . بعيدة عن الحقيقة . فلا يعقل أن تبقى المسيحية على مثل هذه العادة إن كانت قد وجدت فى عهد الفراعنة . وقد ثبت أيضا أن الفراعنة لم يتبعوا هذه العادة وهى إلقاء فتاة مزينة على قيد الحياة فى النيل . ومسألة « عروس النيل » معروفة منذ القدم ولكن المؤرخين الإسلاميين اعتبروها حقيقة لا مجازا ، وقد يكون ذلك لتباعد العصور ولتحريف الروايات حينما تناقلها الألسن من شخص إلى شخص ومن عصر إلى

---

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر (طبعة تورى) ص ١٥٠ — ١٥١ ، ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان ص ٦٥ ، القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٢٩٥ ، المقريزى : الخطط ج ١ ص ٥٨ ، وأبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ١ ص ٣٥ — ٣٦

عصر . والحق أن المصريين فى العصر القديم كانوا يزوجون تماثيل النيل بتماثيل عروسه ، فالمسألة كانت مسألة رمزية لاحقيقية ، إذ كان الشعب المصرى فى كل العصور يرى من الواجب عليه أن يقدم هدية ثمينة إلى نهر النيل الذى يجلب لبلاده الخيرات الواسعة .

وكان المسلمون يشتركون فى عصر الولاة مع الأقباط فى الصلاة من أجل النيل إذا كان الفيضان منخفضا وهددت مصر بالقحط والمجاعة وكانت صلاة المسلمين لأجل المياه تعرف بصلاة الاستسقاء .

ونلاحظ أيضا أن الفتح العربى ساعد أولا على إحياء اللغة القبطية على حساب اللغة اليونانية التى كانت اللغة الرسمية منذ عهد البطالسة . فأصبحت الدروس الدينية فى الكنيسة تقرأ باللغة القبطية بعد أن كانت تقرأ باليونانية وتشرح بالقبطية . كذلك نجد أن البلاد والأقاليم التى سميت بأسماء يونانية أيام اليونان والرومان ، أصبحت تعرف بأسمائها القبطية التى ترجع إلى الأسماء المصرية القديمة . فمثلا نجد اسم إخميم بدلا من بانوبوليس panopolis وإهناسيا بدلا من Héracléopolis والأشمونين بدلا من Hermopolis على أن هذا كله كان بعثا لقديم لم يندثر تماما ؛ فإن اللغة القبطية أو الأسماء المصرية كانت قد غلبت على أمرها حينا من الدهر ثم استعادت مكانتها بعد الفتح العربى ، والمعروف أن الأسماء العربية لكثير من بلدان القطر المصرى الآن مأخوذة من الأسماء المصرية القديمة ، كما أننا لانزال نستعمل فى وقتنا الحالى ألفاظا عامية ترجع إلى اللغة المصرية القديمة وإلى اللغة القبطية التى اشتقت منها

كذلك ترك العرب مقاليد الأمور فى يد أهل مصر من الأقباط

محتفظين لأنفسهم بالسيادة العليا وتنفيذ أحكام الدين . ولا شك أن الأقباط حلوا محل الروم الذين غادروا مصر والذين كانوا يشغلون كثيرا من الأعمال فيها .

وقد أصبح للأقباط فى ظل العرب نصيب كبير فى إدارة بلادهم ربما لم يصلوا إليه قبل الفتح العربى . وقد كان فى الحكومة المركزية فى الفسطاط ، أو حلوان ـ التى اتخذها عبد العزيز بن مروان حاضرة له ـ كاتبان قبطيان لإدارة مصر العليا (الوجه القبلى) ومصر السفلى (الوجه البحرى) . وكان هؤلاء الكتاب أو الرؤساء المسيحيون خاضعين للوالى بطبيعة الحال . والظاهر أن رؤساء المالية كانوا قبطا طوال العصر الأموى . وفى بداية العصر العباسى كان هناك رئيسان للمالية من المسلمين . كذلك نجد فى عصر الولاة أمثلة كثيرة لحكام المدن والكور الأقباط ، بل إنه فى نهـــاية ولاية عبد العزيز بن مروان كان والى الصعيد قبطياً .

وقد كان لوالى مصر حق الإشراف على انتخاب البطاركة بوصفه رئيس الحكومة وممثل الخليفة فى مصر . ويظهر من النصوص أن الأساقفة كانوا يستشيرون الوالى قبل انتخاب البطرك ، كما أن البطرك والأساقفة كانوا يذهبون من الإسكندرية ، مقر البطاركة ، إلى العاصمة لمقابلة والى مصر بعد الانتخاب للبطركية . ويظهر أن هذه كانت مجرد مسائل شكلية إذ لم يعرف عن الولاة أنهم عارضوا فى انتخاب أحد البطاركة ما دام الأساقفة يتبعون القوانين الكنسية .

وهكذا نرى أن العرب تركوا القبط أحراراً فى دينهم وفى ثقافتهم وجعلوا لهم نصيباً وافراً فى إدارة بلادهم .

على أن سياسة العرب نحو الأقباط بدأت تتغير عما كانت عليه فى السنين الأولى التى تلت الفتح . ووجد قسم كبير من الأقباط أن من مصلحتهم الدخول فى الدين الإسلامى والتعرب هرباً من المضايقات الاجتماعية والأدبية ، أو فراراً من الضرائب المتزايدة عليهم ، أو رغبة فى الإبقاء على مناصبهم . كذلك نشأ عن سياسة بعض الخلفاء وولاتهم فى مصر أن زادت حركة التعريب والدخول فى الإسلام فتمصر العرب فى مصر ، وتعرب الأقباط بحيث تكون فى أواخر عصر الولاة الشعب المصرى الإسلامى .

والمعروف أن العرب بعد فتوحاتهم العظيمة ، وتفوقهم على شعوب لها حضارات عريقة ، وبعد استقرار أقدامهم فى البلاد المفتوحة بدأوا يشعرون بتفوق شعبهم على سائر الشعوب وبتفوق لغتهم ودينهم على سائر اللغات والأديان . ولم تكن هذه النزعة قوية فى السنوات الأولى للفتوحات العربية ، حينما كانت تغلب عليهم روح البساطة والتواضع ولكنها سرعان ما ازدادت وضوحاً وكان مثلهم فى ذلك مثل اليونان والرومان من قبل . وليس أدل على هذه الروح الجديدة مما ذكر المقريزى[1] عن معاوية بن أبى سفيان فقد أثر عنه أنه قال : « وجدت أهل مصر ثلاثة أصناف فثلث ناس ، وثلث يشبه الناس ، وثلث لا ناس ، فأما الثلث الذين هم الناس فالعرب ، والثلث الذين

(١) الخطط ج ١ ص ٥٠

يشبهون الناس فالموالى ، والثلث الذين لا ناس المسالمة[٢] يعنى القبط ».

وقد وقع الأقباط تحت طائل المضايقات والشدة لكن هذه المضايقات لم تكن دائمة ، وإنما حدثت فى فترات متقطعة كما أنها لم تكن ذات بال إذا قورنت باضطهاد المسيحيين فى مصر أيام الإمبراطور الوثنى دقلديانوس أو باضطهادهم أيام الإمبراطور هرقل المسيحى . كذلك لم تكن المضايقات أيام العرب لتقارن مثلا باضطهاد كاثوليك أسبانيا للبروتستنت والمسلمين واليهود ، ولا تزال ذكرى محاكم التفتيش فى أسبانيا باقية ما بقى التاريخ .

ومن المضايقات التى تعرض لها الأقباط فى مصر أنه كان هناك أمور يجب على أهل الذمة اتباعها من حيث بناء الكنائس ومن حيث لباسهم وزيهم والدواب التى يركبونها وغير ذلك مما يميز بينهم وبين المسلمين من الناحية الاجتماعية والأدبية . ويذكر المؤرخون أن الخليفة عمر بن الخطاب أمر بألا يتشبه أهل الذمة فى الدولة الإسلامية بالمسلمين فى مظهرهم وفى لباسهم وألا يبقى من الكنائس إلا ما كان قبل الإسلام كما أمر الخليفة بهدم كل كنيسة استجدت بعد الهجرة وكذلك منع الخليفة من تجديد أية كنيسة . لكن مؤرخى مصر الإسلامية وإن كانوا قد تعرضوا لأوامر عمر بن الخطاب الخاصة بأهل الذمة إلا أنهم لم يذكروا إلى أى حد اتبعت تلك الشروط ونفذت مع أهل الذمة .

(٢) المسالمة لفظ كان يطلق على القبط (خطط المقريزى ج ١ ص ٥٠) أو من يسلم حديثا من القبط أو اليهود (خطط المقريزى ج ١ ص ١١٠)

ويظهر أن أقباط مصر ، أو أهل الذمة على وجه الإجمال من أقباط ويهود وغيرهم ، لم يضيق عليهم فى الزى والركوب وبناء الكنائس وغير ذلك مما ينسب بدؤه إلى عمر بن الخطاب ، أو إلى سميه الخليفة الأموى عمر بن عبد العزيز ، إلا فى النادر فلم يكن يراعى هذا التضييق على أهل الذمة إلا فترات قصيرة جدا ثم يهمل شأنه ، وفى سنة ٢٣٥ ه أيام الخليفة المتوكل على الله العباسى (٢٣٢ — ٢٤٧ ه) أمر المتوكل بأخذ أهل الذمة بلبس الطيالسة[١] العسلية والزنانير[٢] ، وركوب السروج بركب الخشب ، وتكون السروج كهيئة الأكف[٣] ، وعلى رءوسهم القلانس المختلفة الألوان ، وأن تخيط الرقاع على ظهورهم وصدورهم ، كل رقعة قدر أربع أصابع ولونها عسلى ، وأزر نسائهم عسلية ، وملبس مماليكهم مثلهم ويمنعون من لبس المناطق . وهدم بيعهم[٤] المحدثة ، وأخذ العشر من منازلهم فإن كان الموضع واسعاً صير مسجداً ، وإن كان لا يصلح أن يكون مسجداً صير فضاء ، وأمر أن تجعل على باب دورهم أساطين[٥] ، وقيل شياطين من خشب مسمورة تفريقاً بين منازلهم ومنازل المسلمين ، ونهى أن يستعان بهم فى الدواوين وأعمال السلطان التى تخالف أحكامهم فيها أحكام المسلمين ، ونهى أن يتعلم

(١) الطيلسان شبه طرحة أو شال يلقى على الكتفين وعلى الرأس فى بعض الأحيان .

(٢) الزنار والزنارة والجمع زنانير ما يشد على الوسط ، أو الحزام الخاص بأهل الذمة

(٣) أكاف الحمار بردعته جمعها أكفة وأكف .

(٤) البيعة الكنيسة أو المعبد .

(٥) الأسطوانة العمود والجمع أساطين .

أولادهم فى كتاتيب المسلمين وأن يعلمهم مسلم، ونهى أن يظهروا فى أعيادهم وشعانينهم صليباً، وأمر أن تسوى قبورهم بالأرض لئلا تشبه قبور المسلمين، وكتب الكتب إلى عماله فى الآفاق بذلك. ثم أمر أهل الذمة فى سنة ٢٣٩ هـ بلبس دراعتين[١] عسليتين على الدرايع والأقبية[٢]، وبالاقتصار فى مراكبهم على ركوب البغال والحمير دون الخيل والبراذين[٣].

ولم تكن أوامر المتوكل جديدة وإنما كانت تجديداً لما سبق. فالذميون ألزموا قبله بأمور تميزهم عن المسلمين فى الزى والركوب، وبشروط خاصة ببناء الكنائس وغير ذلك، ولكن الخلفاء وولاتهم فى مصر كانوا يتساهلون فى تنفيذها فى معظم الأحيان، وقد حدث فى عهد هرون الرشيد (١٧٠ — ١٩٣ هـ) أن ولى القضاء محمد بن مسروق الكندى، وتحامل على أهل مصر فأمعنوا فى الطعن فيه ودعوا عليه فى المساجد فوقف على باب المقصورة وصاح قائلا: «أين أصحاب الأكسية العسلية ...؟»[٤] وربما قصد القاضى بقوله «أصحاب الأكسية العسلية» التحقير من شأن المصريين المسلمين الذين انحدروا من أهل الذمة، والذين كانوا يتميزون عن المسلمين بلبس الملابس العسلية اللون.

والواقع أن العصبية الدينية تغلبت على العرب بعد الفتح وتغلب

(١) الدراعة قميص مفتوح من الأمام إلى موضع القلب ومزين بالزراير.
(٢) القباء: ثوب يلبس فوق الثياب. الجمع أقبية، ويلبس تحت القباء الجبة.
(٣) البرذون: التركى من الخيل.
(٤) الكندى: الولاة والقضاة ص ٣٩٠

عليهم الشعور بعزتهم وتفوقهم على غيرهم من الشعوب بعد أن أنشأوا إمبراطوريتهم الإسلامية بحد السيف ، فرأوا أن يتميزوا عن غيرهم فى اللباس والزى والركوب وغير ذلك مما يشعر فى الوسط الاجتماعى بأنهم هم السادة وغيرهم دونهم . ولذا نراهم يعاملون أهل الذمة معاملة الطبقات الدنيا ، مهما كانت ثروتهم أو مراكزهم فى الدولة مما حمل الكثير على الدخول فى الدين الإسلامى رغبة فى التخلص من تلك المضايقات . كما أن العرب وقد أصبحت البلاد التى فتحوها ملكا للمسلمين ، رأوا أن ليس عليهم أن يبنوا كنائس فيها ويكفيهم أن يبقوا على ما وجدوه منها وألا يتدخلوا فى شئون أهل الذمة الدينية .

ولكننا نلاحظ على وجه الإجمال أن أوامر الخلفاء بخصوص التمييز بين المسلمين وأهل الذمة كانت تنفذ فى حين صدورها بدقة ولكن التمسك بها كان يقل تدريجياً ، وكثيراً ما كان يتسامح مع أهل الذمة فى بناء الكنائس وفى الاحتفال بأعيادهم الدينية وفى مظهرهم العام .

وقد حاول الخليفة عمر بن عبد العزيز (٩٩ — ١٠١ ﻫ) إحلال المسلمين محل المسيحيين حتى فى الوظائف الصغيرة . ويحدثنا ساويرس ابن المقفع أسقف الأشمونين ومؤرخ سير البطاركة ، عن عمر بن عبد العزيز بأنه كان يفعل خيراً عظيما أمام الناس ، ويفعل السوء أمام الله ، إذ أمر بإعفاء الأساقفة والكنائس من الخراج ، وعمر المدن التى خربت وأبطل الجبايات ، أى الضرائب المستحدثة ، فعاش الأقباط فى أمن وهدوء ولكنه ما لبث أن أرسل كتاباً يأمر فيه الأقباط بالتخلى عن أعمالهم فى الدولة ما داموا على دينهم ، أما من يريد منهم

الاحتفاظ بعمله فليكن على دين محمد [1] . كذلك استبعد عمر ابن عبد العزيز رؤساء الكور الأقباط وأحل محلهم المسلمين [2]. وربما أدى قرار عمر بن عبد العزيز إلى إسلام كثيرين إذ ذاك كي لا يتركوا مناصبهم ، مع أن القرار ذاته لا يمكن أن يكون قد استمر كثيراً بعد وفاته لأن الأقباط ظلوا يشغلون كثيراً من مناصب الدولة وظل بعض الموازيت ، أو رؤساء القرى والكور ، يختارون من القبط . وحسبنا أن إحدى الأوراق البردية المعروفة فى هيدلبرج وتاريخها سنة ١٧١ هـ فيها اسم مازوت قبطى .

وقد بدأ العرب بعد فتح مصر بأقل من نصف قرن يتجهون إلى تعريب البلاد وإلى جعل اللغة العربية لغة رسمية ، وذلك لعدم معرفتهم للغة القبطية . بل إننا نرى الأصبغ بن عبد العزيز بن مروان الذى كان يلى كثيرا من أمور مصر فى ولاية أبيه (٦٥ — ٨٦ هـ) يأمر بترجمة الإنجيل وعدة كتب دينية مسيحية أخرى إلى اللغة العربية ، وذلك ليعرف المسلمون إذا كان فى هذه الكتب ما يمس الدين الإسلامى بسوء . وقد حدث فعلا أن عربت دواوين الدولة الإسلامية فى ذلك الحين ، إذ كانت الدواوين فى البلاد المفتوحة حتى مجىء عبد الملك بن مروان تكتب بلغات البلاد المحلية ، فكانت تكتب باليونانية فى الشام ، وبالبهلوية فى العراق والأمصار الشرقية ، وبالقبطية واليونانية فى مصر وكان ذلك طبيعيا لقلة خبرة العرب بأمور الإدارة ولأن الكتابة فن خاص .

---

(١) ساويرس : سير الآباء البطاركة (T. V) ص ٧١ — ٧٢

(٢) الكندى : الولاة والقضاة ص ٦٩.

ولكن توسع خبرة العرب واستقرار الدولة واتجاهها نحو الوحدة المركزية أدى إلى وجوب التعديل ، فضلا عن السياسة العربية التى سار عليها بنو أمية ، ومع ذلك فإن المؤرخين المسلمين يوردون أسبابا تافهة لتعريب الدواوين مثل تثاقل كاتب أو خصام بين كاتبين وغير ذلك ، وقد شرع فى هذا التعريب أيام عبد الملك بن مروان وبدىء بتعريب دواوين الشام والعراق . وكان الحجاج بن يوسف الثقفى صاحب اليد الطولى فى الأخذ بهذا التعريب فى العراق وما يتبعها شرقا . أما فى مصر فقد بدىء فى تعريب دواوينها فى خلافة الوليد بن عبد الملك وذلك فى سنة ٨٧ هـ (٧٠٦ م) فى ولاية عبد الله بن عبد الملك .

ولم تتم عملية التعريب فى أنحاء الدولة الإسلامية إلا بعد أن عربت دواوين خراسان فى أواخر الدولة الأموية فى ولاية نصر بن سيار حوالى سنة ١٢٤ هـ . والواقع أن هذا التعريب كان أول عملية ترجمة منظمة وجبارة ، وقد أدى إلى نقل كثير من المصطلحات الفارسية واليونانية والقبطية إلى العربية ، وأصبحت الدولة من الناحية السياسية عربية بمعنى أكمل . وقد ساعد التعريب على شيوع اللغة العربية وانتشارها بين الموالى والأقباط فأصبحت اللغة العربية لغة التدوين ، كما بدأت تظهر طبقة الكتاب ، كذلك أصبحت اللغة العربية لغة الإدارة فضلا عن أنها صارت لغة الثقافة بالإضافة إلى أنها لغة السياسة والدين .

ولعل كثيراً من أهل فى مصر اضطروا إلى التخلى عن مناصبهم للعرب أو إلى المصريين الذين تعلموا اللغة العربية . وربما دعاهم التعريب إلى تعلم اللغة العربية كى يعودوا ثانية إلى المناصب التى فقدوها .

ومن المضايقات التى وقع الأقباط تحت طائلها أن الخليفة يزيد بن عبد الملك (١٠١ — ١٠٥ هـ) أمر فى سنة ١٠٤ هـ بكسر الصلبان فى كل مكان وبمحو الصور والتماثيل التى فى الكنائس . ولذا نرى ساويرس ابن المقفع يصفه بأنه سلك طريق الشيطان وحاد عن طرق الله .

وقد شمل هذا القرار اللاأيقونى (أو حركة كسر الصور) جميع بلاد الدولة الإسلامية وكان من نتائج هذه الحركة فى مصر أن كسرت التماثيل والصلبان ومحيت الصور ولم تنج فى هذه الحركة بعض الآثار الفرعونية من الهدم والتخريب .

ويجدر بنا أن نشير إلى أن الإمبراطور البيزنطى ليوالأيسورى أصدر قرارا بحظر الصور والتماثيل الدينية مشابها لقرار يزيد بن عبد الملك وبعد قراره بنحوأربع سنوات أعنى فى سنة ٧٢٦م (١٠٨هـ) ويحتمل أن الدولة البيزنطية كانت متأثرة فى ذلك بجارتها الدولة الإسلامية .

وقد أصاب أقباط مصر كثير من الأذى أثناء الفتن التى قامت من أجل النزاع حول الخلافة . فعندما أتى الخليفة مروان بن محمد هاربا إلى مصر ، عاث جنده فى البلاد فسادا ، فقتلوا جماعة من رجال الدين الأقباط ونهبوا أموالهم وسبوا نساءهم كما أحرقوا ديارات عدة وهدموا كثيرا من الكنائس واعتدوا على كثير من الراهبات . وفى أيام الفتنة بين الأمين والمأمون اعتدى على الأقباط فى الإسكندرية وأحرقت مواضع عديدة لهم كما أحرقت ديارات وادى النطرون ونهبت فلم يبق بها من رهبانها إلا نفر قليل .

ولا شك أن المضايقات التي نالت الأقباط في مصر أحياناً ، والتعصب لكل ما هو عربي ومسلم ، وتعريب الدواوين ، لا شك أن هذا حمل كثيراً من المسيحيين في عصر الولاة على اعتناق الدين الإسلامي وعلى تعلم اللغة العربية ، ولا يمكننا القول بأن إسلام هؤلاء الذين يريدون التخلص من مضايقات حكومة عصر الولاة كان صحيحاً ولكن ذريتهم كانت تنشأ في الوسط الإسلامي فيعتزون بدينهم الإسلامي ويندمجون في الجماعة الإسلامية تماماً .

٢ ــ الأقباط والنظام المالي

اهتمت الخلافة عقب فتح مصر مباشرة باستغلالها وبجباية أموالها . وتشهد المكاتبات التي دارت بين الخليفة عمر بن الخطاب وبين عمرو ابن العاص عقب الفتح على أن الخليفة كان يريد جباية نفس القدر الذي كان يجبيه الروم من مصر[1] . كذلك يذكر المؤرخون أن عمرو ابن العاص لما فتح مصر قال للقبط : إن من كتمني كنزا عنده فقدرت عليه قتلته . وسمع عمرو بأن أحد أهالي الصعيد يقال له بطرس عنده كنز فلما سأله أنكر ذلك ، وعندما تبين لعمرو بن العاص صحة ما سمعه عنه أمر بقتله . فلما سمع بذلك الأقباط أخرجوا كنوزهم خوفا من القتل[2] ولا نستطيع أن نتبين من هذا النص هل كان هذا نوعا من الاغتصاب،

(١) انظر ابن عبد الحكم ، فتوح مصر وأخبارها (طبعة توري) ص ١٥٨ ــ ١٦١ ، خطط المقريزي ج ١ ص ٧٨ ــ ٧٩ .

(٢) ابن الحكم : فتوح مصر (طبعة توري) ص ٨٧

وهذا ما نستبعده وخاصة زمن الفتح ، أو كان الغرض من معرفة الكنوز حسبان ذلك فى تقدير الجزية ، أم كان القبط ملزمين بتقديم جزء من كنوزهم للمساهمة فى أمور الدولة ، ولتقدير ما يفرض عليهم من الضرائب الأخرى غير الجزية . كل هذا لا نستطيع استخلاصه من المصادر التى بأيدينا . ولذا نجد أن المصريين سرعان ما عادوا إلى ما كانوا فيه تحت حكم الروم فوقعوا تحت الأعباء المالية الكثيرة التى تطلبتها الخلافة ، وأصبح المطلوب منهم توفير المال اللازم لبيت المال وللمنتفعين من الولاة والموظفين أيضاً . ونلاحظ أن انتفاع مصر بدخلها فى العصر الأموى كان أكثر منه فى العصر العباسى لأن الولاة كانوا أكثر استقراراً من ولاة العصر العباسى . أما فى العصر العباسى فقد اضطربت الأحوال المالية وذلك لكثرة تغيير الولاة وبسبب إقطاع مصر لبعض قواد الترك أو أولياء العهد فكان هم الوالى جمع ما يمكن جمعه من المال لنفسه أولا ، وللخلافة أو لصاحب الإقطاع ثانياً .

ويظهر أن العنصر المالى الرئيسى الذى كان يهتم به العرب هو الجزية، ولذا كانت الجزية سبباً فى إسلام كثير من الأقباط الذين أرادوا التخلص منها ، وهذا طبعاً معناه نقص فى دخل الدولة . وربما حدا هذا بالخلفاء إلى مضاعفة مقدار الجزية على من بقى من الأقباط على دينه حتى لقد قيل : إن الخليفة عمر بن عبد العزيز أرسل إلى حيان بن سريج عامله على خراج مصر أن يجعل جزية موتى القبط على أحيائهم[1].

---

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر (طبعة تورى) ص ١٥٤ وخطط المقريزى ج ١ ص ٧٧ .

وإذا كان هذا صحيحاً أى أن الأقباط الأحياء يكلفون بجزية من مات منهم فلا نستبعد أن يجعلهم الخلفاء يتحملون جزية من أسلم منهم .
والملاحظ أن الأعباء المالية أخذت تزداد تدريجياً على الأقباط مما دعا الكثيرين إلى التحول إلى الدين الإسلامى فراراً منها ، وعند ما كثر عدد الأقباط الذين دخلوا فى الإسلام ، كثر العبء المالى على من بقى على دينه منهم . ولا نستطيع أن نعرف بالتقريب ما هى نسبة نقص الجزية بسبب اعتناق الأقباط الدين الإسلامى . لأن المؤرخين كثيراً ما يجمعون بين الجزية والخراج ، فيقال : إن عمرو بن العاص جبى من مصر اثنى عشر مليون دينار ، وجباها عبد الله بن سعد بن أبى سرح فى خلافة عثمان بن عفان أربعة وعشرين مليون دينار . وقد سر عثمان ابن عفان من ذلك وعاتب عمرو بن العاص فى هذه الكلمات : « يا أبا عبد الله درت اللقحة بأكثر من درها الأول . فقال عمرو : أضررتم بولدها[1] . ويذكر المقريزى [2] أن الذى جباه عمرو ثم عبد الله إنما هو من الجماجم[3] خاصة دون الخراج .

وعند ما زاد التحول إلى الدين الإسلامى بلغ خراج الأرض مع جزية الرءوس فى أيام معاوية بن أبى سفيان خمسة ملايين دينار . وبلغ فى أيام هارون الرشيد أربعة ملايين دينار . وبعد ذلك أصبح

---

(١) ابن عبد الحكم . فتوح مصر (طبعة تورى) ص ١٦١ وخطط المقريزى ج ١ ص ٩٨ .

(٢) الخطط ج ١ ص ٩٨ .

(٣) يقصد بالجماجم هنا جزية الرءوس

مايجبيه الخلفاء حوالى ثلاثة ملايين دينار[1] إذا استثنينا فترات معينة .
كذلك بدأ والى مصر عبد العزيز بن مروان (٦٥ — ٨٦ ه) سنّة فرض الجزية على الرهبان ، إذ أمر بإحصاء جميع الرهبان فى كل الكور وفى وادى النطرون وسائر الأماكن وفرض ديناراً جزية على كل راهب ، وأمر ألا يترهب أحد بعد من أحصاه ، وكانت هذه أول جزية أخذت من الرهبان[2] . والمعروف أن الرهبنة كانت منتشرة حينذاك وقد ساعد على انتشارها ما وقع للمصريين من ظلم واضطهاد زمن الرومان والبيزنطيين ، ففضل كثير من المسيحيين أن يعيشوا فى عزلة عن العالم منفردين أو جماعات فى أديرة . ولما كان الراهب لا يملك شيئاً ويعيش فى عزلة ، لذا لم تفرض عليه أية ضريبة . على آن الأديرة التى كانت تزداد كثرة على مر الأيام ، ما لبثت أن زادت ثروتها ووقف عليها أملاك كثيرة ، لكن الحكومة فى عهد الرومان والبيزنطيين لم تكتف بإعفائها من الضرائب ، بل كانت تدفع لها قدراً معيناً من المال . فلما فتح العرب مصر حافظوا على ما كان موجوداً قبلهم من التقليد الذى يحرم فرض أية ضريبة أو جزية على الرهبان . وبذلك وجدت تحت حكم العرب من أول الفتح طبقة ممتازة من المسيحيين لا تقع تحت طائلة الأعباء المالية . وقد لجأ كثير من الأقباط إلى هذه الأديرة كى يتخلصوا من الضرائب ففطنت الحكومة إلى ذلك وبادرت بإحصاء

---

(١) اليعقوبى : البلدان ص ٣٣٩ .

(٢) ساويرس : سير الآباء البطاركة (T . V .) ص ٥١ والمقريزى : خطط ج ٢ ص ٤٩٢ .

الرهبان وفرضت عليهم الجزية . ولعل الولاة كانوا يحاربون الرهبنة لأن كثيراً من أفراد الشعب كان يقبل عليها فراراً من دفع الضرائب فضلا عن أن الرهبنة كانت تحرم البلاد من الأيدى العاملة ، أضف إلى ذلك أن الأديرة كانت تملك كنوزاً وثروات كبيرة . وهذه العداوة بين الرهبان والولاة تفسر تعصب المؤرخين والكتاب المسيحيين فى ذلك العصر - وجلهم من الرهبان - ضد الإسلام والحكومة الإسلامية.

وفى خلافة الوليد بن عبد الملك وأثناء ولاية أخيه عبد الله ابن عبد الملك (٨٦ — ٩٠ ﻫ) زادت الأعباء المالية على الأقباط . وقد أسلم عدد منهم ، لكن من ناحية أخرى قامت فى عهده حركة مقاومة سلبية ضد سياسة حكومة العرب المالية من جانب الذين لم يرضوا بتغيير دينهم بسبب الأعباء المالية . فأخذ بعض الأفراد يهربون إلى مناطق مختلفة غير تلك التى كانوا مقيدين فيها بعد أن وجدوا ألا فائدة من الاعتصام فى الأديرة . غير أن هذا الوالى تشدد فى قمع تلك الحركة التى كانت تهدد بإثارة الفوضى فى مصر فضلا عن تأثيرها فى مالية الدولة ، فأمر بوسم الغرباء الذين وجدوا فى الأقاليم المختلفة على أيديهم وجباههم وأرسلهم إلى مواضع مختلفة .

وقد استمرت حركة الهروب فى ولاية قرة بن شريك الذى خلف عبد الله بن عبد الملك (٩٠ — ٩٦ ﻫ) ، بل إنها اتخذت فى عهده شكلا واسعاً فكانت أسرات بأسرها رجالا ونساء وأطفالا تهرب من مكان إلى مكان ، لا تستقر فى مكان معين ، وذلك فراراً من دفع الضرائب . وكان محور هذه الحركة الزراع ، ولذا كانت هذه الحركة

تهدد ثروة مصر الرئيسية، واضطر قرة إزاء هذا إنشاء هيئة خاصة لوقف تلك الحركة وإعادة كل شخص إلى موضعه. والواقع أن قرة لم يكن بالوالى الظالم كما يصوره بعض المؤرخين، فقد رأينا من أوراق البردى أن قرة كان يهتم بعدالة حكام الأقاليم المختلفة وعدم الإجحاف بأهل الذمة، كما كان يهدد عماله بعقابهم أشد العقاب إذا ظلموا الأهالى فى تقدير الضرائب المفروضة عليهم، وكان يتجاوز أحياناً عن بعض ما كان يدفع كل عام من الجزية فيقبل من أهل الذمة أقل مما اعتادو دفعه كل عام رفقاً بهم. ومع ذلك فإن الأعباء المالية كانت فى ازدياد وخاصة على أهل الذمة الذين بقوا على دينهم.

وقد ظل قرة يتابع حركة الهروب بنشاط كى يقضى عليها إلى أن مات فى سنة ٩٦ هـ.

وفى خلافة سليمان بن عبد الملك (٩٦ — ٩٩ هـ) كان متولى خراج مصر أسامة بن زيد التنوخى. وقد اشتد أسامة فى طلب الخراج والجزية وأمر عماله ألا يتوانوا فى جمع الضرائب فأسلم الكثيرون فى عهده كى يتخلصوا من الأعباء المالية، ولكن حركة الهرب استمرت من جانب الأقباط الذين أثقلتهم الأعباء المالية. وقد أمر أسامة ألا يأوى أحد غريباً فى الكنائس أو الفنادق أو السواحل. ولكى لا يتمكن أحد من الهرب من منطقة إلى أخرى عملت سجلات للأهالى أشبه بالبطاقات الشخصية اليوم، فألزم كل شخص يريد الانتقال من جهة إلى جهة فى أنحاء القطر المصرى، أو يريد ركوب سفينة أو النزول منها أن يحمل معه سجله وإلا قبض عليه وألزم بغرامة كبيرة وعقوبات رادعة.

وقد عمل أسامة بن زيد إحصاء ثانيا للرهبان بعد الإحصاء الأول الذى تم فى عهد عبد العزيز بن مروان وجبى منهم الجزية كما أمر الرهبان ألا يقبلوا فى الرهبنة من يأتى إليهم بعد ذلك . وأمر أسامة بوسم كل راهب بحلقة حديد فى يده اليسرى كان يكتب عليها اسم بيعته وديره والتاريخ . أما من وجد هاربا أو غير موسوم فقد كان يلقى عقاباً قاسياً

ويظهر أن نفراً كثيراً كان قد أسلم حتى زمن الخليفة عمر بن عبد العزيز (٩٩ — ١٠١ هـ) بدليل أن حيان بن سريج متولى خراج مصر كتب إلى عمر بن عبد العزيز يقول : « أما بعد فإن الإسلام قد أضر بالجزية ..... فإن رأى أمير المؤمنين أن يأمر بقضائها فعل » .

وكان هذا الوالى يرى أن تبقى الجزية على من يسلم مثلما فعل الحجاج ابن يوسف فى العراق فى خلافة عبد الملك بن مروان . ولكن عمر بن عبد العزيز الذى أظهر رغبة شديدة فى نشر الدين الإسلامى ردَّ عليه قائلا : « . . . فضع الجزية عمن أسلم — قبح الله رأيك — فإن الله إنما بعث محمدا صلى الله عليه وسلم هاديا ، ولم يبعثه جابيا ، ولعمرى لعمر أحقر من أن يدخل الناس كلهم الإسلام على يديه [1] » .

ويظهر أن أخذ الجزية ممن يسلم قد بدأ فى مصر قبيل عهد عمر بن عبد العزيز ، والظاهر أيضا أن سياسة إعفاء الذين يعتنقون الإسلام من الجزية لم تستمر بصفة دائمة بعد عهد عمر بن عبد العزيز ، بدليل

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر (طبعة تورى) ص ١٥٦ ، خطط المقريزى ج ١ ص ٧٨

أننا نرى بعد ذلك العهد أن قرار أى خليفة برفع الجزية عمن أسلم كان يشجع الكثيرين على اعتناق الدين الإسلامى .

فنرى مثلا أنه فى ولاية حفص بن الوليد الثالثة على مصر سنة ١٢٧ﻫ من قبل الخليفة مروان بن محمد ، عندما أعلن إعفاء كل من يسلم من الجزية ، اعتنق نحو أربعة وعشرين ألفا من الأقباط الدين الإسلامى. كذلك عندما قرر الخليفة العباسى أبو العباس السفاح أن يعفى من الجزية كل من يعتنق الدين الإسلامى ويقيم شعائره ، تخلى كثير من المسيحيين أغنياء وفقراء عن دينهم واعتنقوا الدين الإسلامى بسبب فداحة الجزية والأعباء الملقاة عليهم .

على أن الأقباط الذين ظلوا على دينهم ، لم يقفوا مكتوفى الأيدى طوال هذا العصر أمام مطالب الخلافة المالية بل قاوموها ، وبدأت المقاومة سلبية فى البداية كما رأينا ، إذ أخذ جماعات من الزراع يهربون من منطقة إلى أخرى، وعمد الولاة إلى قمع تلك الحركة بكل الوسائل واشتدت الحكومة فى مراقبة الزراعة والهجرة كما اهتمت بإحياء الأرض الموات . ثم بدأ الأقباط يتركون سبيل المقاومة السلبية ويقاومون حكومة الخلافة مقاومة إيجابية ، فقاموا فى الوجه البحرى بأول ثورة لهم ضد العرب فى خلافة هشام بن عبد الملك سنة ١٠٧ ﻫ على أثر ما قام به عامل الخراج عبيد الله بن الحبحاب من زيادة فى الضرائب زيادة كبيرة ، ونجحت الحكومة فى إخماد تلك الثورة . ولكن ثورات الأقباط تتابعت طوال القرن الثانى الهجرى وشملت ثوراتهم الوجهين البحرى والقبلى وإن كان معظمها فى الوجه البحرى .

وكانت حكومة العرب من جانبها تقابل القوة بالقوة فلم تتوان عن محاربة الثائرين عليها وإرغامهم على النزول على إرادتها ، وكان يتبع فى العادة إخماد تلك الثورات تحول جزء كبير من الأقباط إلى الدين الإسلامى .

ونلاحظ أن العرب فى مصر بعدما زاد عددهم وأصبحوا يملكون الأراضى فى البـــلاد ثاروا ضد الحكومة بسبب الخراج ، ولذا نراهم يشتركون مع الأقباط فى معظم ثوراتهم ضد الأعباء المالية . وكانت آخر ثورات الأقباط وأعظمها فى عصر الولاة تلك الثورة التى حدثت فى بداية القرن الثالث الهجرى زمن الخليفة المأمون فى سنة ٢١٦ هـ ، فثار أهل الوجه البحرى كلهم سواء فى ذلك العرب والأقباط ، وطردوا عمال الحكومة فقدم الأفشين قائد المأمون من برقة لمحاربتهم وانتصر على معظم البلاد الثائرة إلا أن أهل البشرود أو البشمور ـ وهم سكان المنطقة الرملية التى تقع فى ساحل الدلتا بين فرعى دمياط ورشيد ـ امتنعوا على الأفشين ، وقد شجعتهم جغرافية منطقتهم على ذلك ، إذ كانت تحيط بهم المستنقعات والأوحال التى تعوق حركة الجند . وقد كتب الأفشين إلى الخليفة يعلمه بذلك فرأى الخليفة أن من الأفضل أن يأتى هو بنفسه لإخماد الثورة فى مصر . وقدم الخليفة فى بداية سنة ٢١٧ هـ وحاول إخماد الثورة باللين أولا ، فلما لم يستجب الأقباط ركز الخليفة كل قواته ضدهم ، وانتصرت جيوش الخليفة فى النهاية ثم غادر الخليفة مصر فى صفر سنة ٢١٧ هـ بعد أن مهد أمورها وزار بعض البلدان فيها ، وكانت مدة إقامته بمصر تسعة وأربعين يوما .

وبعد ثورة البشموريين أصبح المسلمون أغلبية فى القطر المصرى وعلى الأخص فى الوجه البحرى ، إذ يظهر أن عددا كبيرا من الأقباط أسلم فى ذلك الوقت[1] .

وهكذا نرى أن ثورات الأقباط التى ظلت أكثر من قرن ولا سيما فى منطقة الدلتا كان يقضى عليها سريعا ، وكان يتبع إخمادها فى العادة تحول جزء كبير من الأقباط إلى الدين الإسلامى . ولم تكن هذه الثورات حركات قومية بالمعنى الصحيح وإنما كانت حركات غير منظمة لم يعرف فيها القبط كيف يوحدون أنفسهم وكيف يتخذون لهم قيادة حكيمة ، وكان هدفها خفض الضرائب أو الهرب من دفعها .

وهكذا نجد أن القبط فى عصر الولاة يغلبون على أمرهم فى ثوراتهم ضد العرب ، بحيث يصبح المسلمون أغلبية فى مصر منذ سنة ٢١٧ هـ .

٣ — القبائل العربية فى مصر

امتاز العرب على غيرهم ممن فتحوا مصر فى مختلف العصور بأنهم اندمجوا فى الشعب المصرى وامتزجوا به امتزاجا قويا ، وكان لهذا الامتزاج أكبر الأثر فى تغلب الثقافة الإسلامية والدين الإسلامى فى وادى النيل .

والمعروف أن الفاتحين العرب كانوا أقلية ضئيلة بالنسبة لأهل

---

(١) خطط المقريزى ج ١ ص ٧٩ — ٨٠

البلاد وفضلا عن ذلك فإنهم لم يختلطوا بهم وإنما اختطوا لهم مدينة عربية إسلامية فى وسط المحيط المصرى القبطى . وكان تخطيط المدن من أهم الظواهر التى سارت جنبا إلى جنب مع الفتوحات العربية ، وذلك رغبة فى إنشاء مراكز إدارية وحربية ودينية فى البلاد الجديدة التى فتحها العرب .

وقد ذكر المؤرخون أن عمرو بن العاص لما فتح الإسكندرية ورأى بناءها ومساكنها أراد أن يتخذها عاصمة لمصر ، ولكن الخليفة عمر بن الخطاب نهاه عن ذلك خوفا من ركوب البحر وحتى لا يحول الماء بينه وبين الفاتحين .

والواقع أن الإسكندرية عند فتح العرب لها كانت مدينة يونانية بمعنى الكلمة ، يونانية فى سكانها وعاداتها وميولها فلم يكن من المنتظر أن يتخذها العرب عاصمة لهم كما أنها مدينة متطرفة وبعيدة عن أن تكون قاعدة متوسطة صالحة للحكم .

أما عن كيفية اختيار موقع الفسطاط فيذكر المؤرخون العرب أن عمرو بن العاص لما أراد التوجه لفتح الإسكندرية بعد استيلائه على حصن بابليون أمر بنزع فسطاطه (أى خيمته) فإذا فيه يمام قد فرخ فقال عمرو : لقد تحرم بنا ، وتركه . ولما عاد المسلمون من الإسكندرية وقالوا : أين ننزل ؟ قال : الفسطاط ، لفسطاطه الذى كان قد خلفه .

وقال الجوهرى : الفسطاط بيت من شعر . قال : ومنه فسطاط مدينة مصر . وذكر ابن قتيبة أن العرب تقول لكل مدينة فسطاط ولذلك قيل لمصر فسطاط . وقال الزمخشرى: الفسطاط اسم لضرب من الأبنية ،

والذى عليه الجمهور أنه يسمى بذلك لمكان فساط عمرو بن العاص رضى الله عنه يعنى خيمته .

على أن الرواية التى يذكرها المؤرخون عن تسمية الفسطاط واختيار موقعها أقرب إلى الخيال منها للحقيقة . فقد عرف المصريون القدماء ومن أتى بعدهم على مر الزمن مزايا موقع منف والمنطقة المحيطة به وإن اتخذ هذا الموقع أسماء مختلفة باختلاف الأزمنة مثل الفسطاط والقاهرة ، إذ يمتاز هـذا الموقع بتوسطه بين مصر السفلى ومصر العليا وله عدة مزايا تجارية وسياسية وحربية . وقد عرف العرب كما عرف غيرهم أهمية ذلك الموقع فاختطوا مدينة الفسطاط فى الفضاء الواقع شمالى حصن بابليون . أما اسم فسطاط فنحن نرجح أن أصله غير عربى وأنه مشتق من اللفظ اليونانى « فسّاطن » ، ذلك اللفظ الذى اشتق من اللفظ اللاتينى فسّاتم Fossatum الذى كان يطلقه الرومان على معسكراتهم الحربية .

ويذكر المقريزى[1] أن موضع الفسطاط كان فضاء ومزارع فيما بين النيل وجبل المقطم الذى يقع فى شرقى مصر ، ولم يكن فيه من البناء والعمارة سوى حصن بابليون أو قصر الشمع، فلما فتح عمرو بن العاص مدينة الإسكندرية فتحها الأول نزل بجوار هذا الحصن واختط جامعه واختطت قبائل العرب من حوله فصارت مدينة عرفت بالفسطاط ونزل الناس بها .

ولما اختط العرب مدينة الفسطاط فى سنة ٢١ هـ قسمت إلى خطط

(١) الخطط ج ١ ص ٢٨٦ .

أو أقسام ، وسكنت كل قبيلة خطة من الخطط . ومن الخطط من كان يسكنها من هو من أصل فارسى أو رومى (أى يونانى) وهؤلاء كانوا أقلية ضئيلة ، أما الأكثرية العظمى فكانوا من العرب ولا سيما عرب الجنوب أو اليمنية .

وقد نشأت الفسطاط صغيرة بسيطة فى أول الأمر فبنيت باللبن وكانت الدار من طبقة واحدة ، وما لبثت الفسطاط أن اتسعت بعد ذلك وبنى فيها القصور والحمامات والأسواق وأصبح معظم بنائها بالطوب كما أصبحت الأبنية تتألف من طبقات وربما بلغت طبقات الدار الواحدة ثمانى طبقات . وقد أثبتت الحفائر الحديثة فى أطلال الفسطاط أن بيوتها كانت غنية بوسائل الترف وعلى رأسها المياه الجارية .

وقد بنى عمرو بن العاص المسجد الجامع فى الفسطاط سنة ٢١ ﻫ ولما كان هذا المسجد أول جامع بنى فى مصر الإسلامية فقد عرف باسم تاج الجوامع والجامع العتيق وجامع عمرو بن العاص . ولم يكن المسجد الجامع مكاناً لإقامة الصلوات الخمس وصلاة الجمعة فقط بل كان بمثابة مدرسة دينية كما كان مركزاً للقضاء .

وقد ظل جامع عمرو بن العاص المسجد الجامع الوحيد فى مصر فى عصر الولاة إلى أن بنى الفضل بن صالح بن على العباسى فى ولايته على مصر من قبل الخليفة المهدى جامع العسكر فى سنة ١٦٩ ﻫ فى مدينة العسكر التى اختطها العباسيون فى سنة ١٣٣ ﻫ . وبعد عصر الولاة كثر بناء الجوامع فى مصر وخاصة فى عهد المماليك . على أن جامع عمرو وهو أقدم جامع فى مصر ظل موضع عناية حكام مصر فى عصورها

المختلفة . فبالرغم من أن بناءه كان بسيطاً جداً فى أول عهد الفتح ، نرى أن ولاة مصر وحكامها فى العصور المختلفة يهتمون بتوسيعه وإقامة المنابر والمحاريب له وتزيينه بشتى الزخارف المعمارية ، إلى غير ذلك مما يبين لنا تطور الفن الإسلامى والعمارة الإسلامية فى مصر كما يبين لنا عناية حكام مصر بأول جامع بنى فيه .

كذلك اختط العرب مدينة الجيزة على غرار خطط الفسطاط . ونزل قوم من العرب الإسكندرية ، على أن الإسكندرية لم يكن فيها خطط وإنما كانت « أخائذ » أى من أخذ منزلا نزل فيه .

وهكذا نرى أن العرب الذين استقروا فى مصر ومعظمهم من اليمنية كانوا يقيمون فى الفسطاط أو الجيزة أو الإسكندرية. وقد حرم عليهم عمر بن الخطاب الاشتغال بالزراعة أو امتلاك الأرض فلم يكونوا يعنون بغير السياسة والحكم والحرب .

ولذا لم يختلط العرب بالمصريين فى البداية ولم يكن لهم تأثير يذكر على القبط ، سواء أكان هذا التأثير من ناحية انتشار الدين الإسلامى أم اللغة العربية .

وكان اختلاط القبائل العربية بأهل مصر عن طريق التزاوج أو الولاء(١) نادراً فى أول الأمر ، كما كان العرب أقلية ضئيلة فى مصر فى ذلك العهد .

---

(١) المولى : الملك والسيد . العبد . الناصر . الجار . الحليف . المعتق . الصهر . القريب . التابع .

والمقصود باختلاط القبائل العربية بأهل مصر عن طريق الولاء ، اختلاطهم عن طريق العتق والجوار والمصاهرة .

والمعروف أن استيلاء العرب على مصر كان فاتحة لهجرات عربية متوالية دامت زمناً طويلا . وقد كانت أضعف هذه الهجرات هجرة العرب أو الجند الذين أتوا مع عمرو بن العاص عند فتح البلاد وكان معظمهم من اليمنية . على أن أغلب الولاة الذين حكموا مصر فى عصر الولاة كانوا يصحبون معهم جيوشاً عربية حتى نهاية العهد الأموى أو عربية ومن شعوب أخرى غير العرب كالخراسانيين والأتراك فى العصر العباسى ،والمعروف أن الجنود كانوا يصحبون معهم أسراتهم .

وفى خلافة هشام بن عبد الملك (١٠٥ — ١٢٥ هـ) حدث تطور فى تاريخ القبائل العربية فى مصر . ذلك أن عبيد الله بن الحبحاب عامل خراج مصر وفد على الخليفة فى سنة ١٠٩ هـ وسأله أن ينتقل إلى مصر بيوتاً من قيس أو عرب الشمال وكانوا أقلية بها ، فأذن له الخليفة بذلك وجاء ابن الحبحاب بعدد كبير منهم بلغ حوالى ثلاثة آلاف . وقد أنزلهم ابن الحبحاب بالحوف الشرقى فى شرقى الدلتا وأمرهم بالاشتغال بالزراعة.

أى أن العرب فى زمن هشام بن عبد الملك أخذوا يتخلون عن السياسة التى اتبعوها منذ الفتح وهى سياسة الترفع عن الاختلاط بالأهالى وعن الاشتغال بالزراعة . ووافق قدوم هذه البطون القيسية إلى مصر فى سنة ١٠٩ هـ قيام ثورة الأقباط التى بدأت فى سنة ١٠٧ هـ . وقد يكون الخليفة أراد بنقل هذه البطون إلى مصر والسماح لها بالاشتغال بالزراعة أن يتقوى المسلمون بالعرب ضد الأقباط الذين بدأوا ثوراتهم، أو أن يحل العرب محل من يموت من الأقباط فى هذه الثورات ،أو من يهجر أرضه ، وذلك حتى لا يصيب الزراعة ضرر .

وقد ساعد وجود العرب فى القرى واشتغالهم بالزراعة على الاختلاط بالأهالى ، وكان لهذا الاختلاط أثره فى انتشار الإسلام بمصر نتيجة للتزاوج أو للموالاة بينهم وبين أهالى البلاد . ولذا يقول المقريزى(1) فى خططه : « ولم ينتشر الإسلام فى قرى مصر إلا بعد المائة من تاريخ الهجرة ، عندما أنزل عبيد الله بن الحبحاب مولى سلول قيسا بالحوف الشرقى ، فلما كان بالمائة الثانية من سنى الهجرة كثر انتشار المسلمين بقرى مصر ونواحيها » .

وقد أخذت القبائل العربية بعد ذلك تفد إلى مصر وتستقر فى القرى المصرية . على أن ازدياد القبائل العربية فى مصر وإن ساعد على تعريب مصر ونشر الإسلام فيها إلا أنه سبب كثيرا من الاضطرابات فيها . فمن منازعات قبلية بين القيسية واليمنية ، ومن منازعات بين العرب وأهالى البلاد الأصليين ، فضلا عن أن العرب بمصر كثيرا ما كانوا يشتركون فى المشاكل التى قامت حول الخلافة . كذلك لما أصبح للعرب فى مصر حق امتلاك الأرض وزراعتها وجب عليهم دفع الخراج . وقد قامت ثوراتهم من أجل الخراج فى العصر العباسى وتعددت تلك الثورات منذ خلافة المهدى (منذ سنة ١٦٧ هـ) . وكانت آخر ثورات العرب بمصر من أجل الخراج ، تلك التى قامت فى سنة ٢١٦ هـ والتى اشترك فيها العرب مع الأقباط وانتهت بقدوم الخليفة المأمون إلى مصر لقمعها .

---

(1) الخطط ج ٢ ص ٢٦١

والواقع أن هجرة القبائل العربية إلى مصر ثم اختلاط العرب بأهل وادى النيل ، ثم تحول الحكم فى العالم الإسلامى إلى ملك استبدادى يعتمد على الفرس ثم الأتراك .. كان كل ذلك مؤديا إلى ضياع هيبة العرب الحاكمين وإلى اندماجهم فى سلك المحكومين وتغير المركز الذى كان يريده لهم الخليفة عمر بن الخطاب . فالفكرة الأساسية الأولى فى حكومة الإمبراطورية العربية كانت تنطوى على أن تكون الدولة العربية حربية تديرها الأرستقراطية العربية وتقوم بأودها الشعوب المحكومة من أهل الذمة الذين يحميهم العرب والذين يقومون فى مقابل ذلك بالعمل وتوفير أسباب العيش والراحة للأرستقراطية العربية . ولكن هذه الفكرة لم تتحقق طويلا للأسباب السابقة ، ونظراً لأن الدين الإسلامى نفسه ذو طابع دولى ، وليس دين شعب معين أو أمة معينة ، فكان من السهل بمرور الزمن أن يمتزج المسلمون الجدد بالمسلمين من السلالة العربية . ثم جاء قرار الخليفة المعتصم فى بداية القرن الثالث الهجرى ٢١٨ ﻫ إسقاط من فى الديوان من العرب وقطع أعطياتهم . ويظهر أن الاختلاط فى ذلك الوقت كان قد عظم بين العرب وبين أهل البلاد بدليل أن قرار المعتصم بصرفهم عن ديوان الجند لم يكن له رد فعل عنيف ، إذ قامت بعض حركات احتجاج قضى عليها سريعا . ونلاحظ أن العرب فى مصر احتفظوا بالانتساب لقبائلهم حوالى قرنين من الزمان ، فإننا نرى فى معظم شواهد القبور التى اكتشفت حديثا فى مقابر أسوان والفسطاط أن اسم الميت يتبع باسم قبيلته فى خلال القرنين الأولين للهجرة ولكن فى خلال القرن الثالث نجد أن اسم القبيلة قد

حل محله اسم الجهة أو الإقليم الذى ينتسب إليه المتوفى فيكتب فلان السكوفى أو الإدفوى أو المصرى الخ . . . .

وهذا يدل على أنه فى القرن الثالث الهجرى أصبح العرب فى مصر لا يتميزون عن أهل البلاد . ولم يكن هناك بعد قرار المعتصم ما يحسد عليه العرب من نسل الفاتحين اللهم إلا من الناحية اللغوية والدينية . إذ أنه بعد ما فقد العرب مركزهم السامى فى الدولة الإسلامية ، اضطروا إلى الانتشار فى الريف والاختلاط بالمصريين والتزوج من بناتهم والاشتغال بالزراعة والصناعة والتجارة ، وغير ذلك من الأعمال التى كانوا يترفعون من قبل عن الاشتغال بها فكان هذا القرار الذى اتخذه المعتصم ضد العرب مما أفاد الإسلام فى مصر وساعد على انتشاره بين المصريين كما كان له أكبر الأثر فى انتشار اللغة العربية بمصر وقضائها على اللغة القبطية .

وقد شهدت بداية القرن الثالث الهجرى أيضا القضاء نهائيا على مقاومة القبط فكان من السهل أن تتم فى هذا القرن حركة الاندماج بين العرب والمصريين .

* * *

وقد تبع انتشار الإسلام فى مصر انتشار اللغة العربية فيها أيضا فأصبحت لغة الكتابة ولغة التخاطب . على أن انتشار اللغة العربية بمصر كان أبطأ من انتشار الدين الإسلامى فيها ، وبالرغم من أن الدواوين عربت رسميا فى سنة ٨٧ هـ (٧٠٥ — ٧٠٦ م) إلا أن وثائق البردى تدل على أن الحكومة كانت تستخدم العربية واليونانية إلى القرن الثانى الهجرى ، بينما كانت السلطات المحلية فى الريف تكتب كثيرا بالقبطية ، بل إنه وجد إيصال بدفع الضرائب تاريخه سنة ٢٤٦ هـ عليه كتابة قبطية

وحين قدم الخليفة المأمون إلى مصر وحين أصبح للدين الإسلامى الغلبة فى مصر ، كانت اللغة القبطية لا تزال لغة التخاطب بين المصريين وقد ذكر المقريزى[1] فى كلامه عن المأمون حين قدم إلى مصر « وكان لا يمشى أبدا إلا والتراجمة بين يديه من كل جنس . »

ولم يبدأ القبط فى ترك لغتهم القبطيه إلا فى أواخر القرن الرابع الهجرى والعاشر الميلادى ، فنرى البطرك الملكانى سعيد بن بطريق يكتب كتابه فى التاريخ باللغة العربية وذلك فى القرن الرابع الهجرى . وكذلك نرى ساويرس أسقف الأشمونين يؤرخ للبطاركة فى أواخر القرن الرابع الهجرى باللغة العربية ، ويقوم بجمع الوثائق اليونانية والقبطية وترجمتها ، مما يدلنا على أن اللغة العربية أصبحت لغة الكلام ولغة التخاطب بين المصريين عامة . وقد بقيت اللغة القبطية بعد ذلك محصورة فى نطاق ضيق ، وما زالت تدرس إلى اليوم كلغة من اللغات القديمة . وهناك بعض الألفاظ العامية المصرية التى نستعملها للآن ترجع إلى اللغة القبطية .[2]

ولا ريب فى أن انتشار اللغة العربية فى مصر ميزة للعرب على غيرهم من الفاتحين فإن الشعوب المختلفة التى توالت على مصر قبل العرب لم تستطع القضاء على لغة المصريين . وهذه ظاهرة تستحق إمعان النظر ، لأن تنازل شعب عريق فى المدنية كالشعب المصرى عن لغته واتخاذه لغة شعب لا يوازيه فى الحضارة أمر غير عادى . وقد تقول : إن الذين

---

(١) الخطط ج ١ ص ٨١

(٢) Dr. Georgy Sobhy bey ; The Survivol of Ancient Egypt pp. 65-67

اعتنقوا الدين الإسلامى تعلموا اللغة العربية لغة القرآن ، وقد نذكر أن المصريين اضطروا إلى تعلم اللغة العربية لأنها أصبحت اللغة الرسمية للدواوين منذ سنة ٨٧ هـ (٧٠٥ — ٧٠٦ م) . وقد نقول : إن اتصال العرب فى الفسطاط والجيزة والإسكندرية بالأهلين . واتصال كبار الموظفين العرب وأعوانهم فى الريف بأهله كان له أثر فى التعريب . لكن أهم عوامل تعريب مصر كان نزول القبائل العربية فى الريف المصرى واستقرارها على جانبي الشريط الخصب بوادى النيل وفى الدلتا، مما أدى إلى اختلاطهم بالقبط اختلاطاً كبيراً، ومن ثم إلى انتشار اللغة العربية فى مصر وإلى تعريب البلاد. فقد كانت اللغة اليونانية قبل الفتح العربى واللغة التركية فى العهد العثمانى لغة البلاد الرسمية ولكن هذا لم يجعلهما لغة الشعب المصرى ،فكان اليونانيون ينزلون المدن ويصبغونها بحضارتهم ولكن نفوذهم الثقافى لم يذهب للريف إلا قليلا ، فلم تنتشر اللغة اليونانية إلا فى بيئات خاصة ، وعاش اليونانيون فى مصر كأنهم جزر يونانية فى وسط المحيط المصرى الواسع . وكذلك عاش الأتراك فى بيئات خاصة فى مصر ولم يستطيعوا جعل لغتهم لغة البلاد الأصلية بالرغم من أن الحكم التركى دام عدة قرون . ولكن حدث فى عهد العرب تفاعل واختلاط بينهم وبين المصريين ، وبدون هذا التفاعل والاختلاط لا يمكننا أن نفسر كيف ترك الفلاح المصرى القديم لغته رغم تمسكه بالقديم وحرصه عليه .

أما العامل الأساسى فى انتشار الإسلام بين القبط فى عصر الولاة فكان العامل المالى والاجتماعى ، وإن كانت هناك اضطهادات وإرغام على اعتناق الإسلام فقد كانت نادرة . ولسنا نستطيع أن نخرج بغير

هذه النتيجة إذا قرأنا ساويرس أسقف الأشمونين وهو الذى لا يشك فى كتاباته فى هذا الصدد والذى لم يكن ليغفل تفصيل الكلام على أى اضطهاد يصيب المسيحيين .

ولم يقف الأمر عند انتشار الدين الإسلامى واللغة العربية بل إننا نجد مصر فى أواخر عصر الولاة تشارك فى الحياة الأدبية العربية مشاركة تبدو واضحة منذ آخر القرن الثانى الهجرى . وكان جامع عمرو بن العاص هو قلب هذه الحركة النابض كما هى الحال بالنسبة للأزهر الشريف الآن. وقد أنجبت مصر منذ أواخر القرن الثانى وأوائل القرن الثالث الهجرى رجال أدب ودين ومؤرخين أنتجوا بالعربية كما لو كانوا أبناءها ، وكان علماء مصر أساتذة لعلماء إفريقية والأندلس بوجه خاص .

وكانت مصر إحدى الأمم القليلة التى تخلت نهائيا عن لغتها القومية ورمت بنفسها فى أحضان الإسلام والمدنية الإسلامية . وهى فى ذلك تخالف إيران والهند اللتين لم يقض فتح العرب على لغتهما القومية ، ولم يقض على العقائد الدينية التى وجدت فيهما قبل الفتح قضاء تاما . كذلك لم يمنع اعتناق الأتراك للدين الإسلامى من الاحتفاظ بلغتهم القومية ، بل نرى الأندلس . التى كانت تتمتع بحضارة إسلامية مزدهرة فى العصور الوسطى بعد فتح العرب لها . تغلب على أمرها فى أواخر العصور الوسطى وتعود ثانية دولة مسيحية الدين أجنبية اللغة . وبينما نرى الشاعر الوطنى « الفردوسى » فى إيران ينظم الشاهنامة بالإيرانية الحديثة فى القرن الرابع الهجرى ، نجد رجال الدين الأقباط فى مصر يكتبون فى القرن الرابع الهجرى باللغة العربية ويخاطبون أبناء دينهم بالعربية بعد أن أصبحت لغة التخاطب بينهم .

الباب الرابع

حضارة مصر فى عصر الولاة

١ ــ الزراعة

جاء العرب إلى مصر لفتحها وهم يعلمون بثروتها وخيراتها الزراعية وكثيرا ما أظهروا إعجابهم بتلك الخيرات والنعم التى خص بها الله مصر والمصريين . والواقع أن مصر كان لها مكانة خاصة عند المسلمين منذ البداية فقد ذكرت فى القرآن فى عدة مواضع ، كما ذكرت فى الأحاديث النبوية . وقد كانت بعض الأحاديث التى تنسب إلى النبى عليه الصلاة والسلام عن « فضائل مصر » نواة لفصول فى هذا الصدد كتبها المؤرخون والمؤلفون المصريون فى العصور الوسطى ، كما ألف بعضهم كتبا قائمة برأسها فيما سموه « فضائل مصر » مثل كتاب «فضائل مصر» لعمر بن محمد بن يوسف الكندى المتوفى فى القرن الرابع الهجرى وهو ابن المؤرخ المشهور الكندى صاحب كتاب « ولاة مصر وقضاتها » ومثل كتاب « فضائل مصر » لابن زولاق المتوفى فى نهاية القرن الرابع الهجرى .

ولا ريب فى أن العرب كانوا يقدرون مصر بسبب خيراتها الوفيرة الناتجة عن الزراعة . ومن هذه الخيرات الوفيرة كانت مصر تقدم للفاتحين المال والطعام . وكان القمح أهم ما ترسله مصر إلى الخلافة بعد الفتح . واستمرت مصر ترسل القمح إلى الحجاز بعد أن انتقل مركز الخلافة من الحجاز إلى الشام ثم إلى العراق . بل إن عادة إرسال القمح إلى الحجاز ظلت حتى بعد أن خرجت مصر عن حوزة الخلافة ، وحتى بعد أن

أصبحت مركزا للخلافة الفاطمية التي نافست الخلافة العباسية بين القرنين الرابع والسادس الهجرى (٣٦٢—٥٦٧هـ) وكذلك بعد أن أصبحت مصر مركزا للخلافة العباسية بعد زوالها من بغداد على أيدى المغول فى النصف الثانى من القرن السابع الهجرى . وقد ظلت تلك العادة إلى يومنا هذا ، لذا يذكر المؤرخون المسلمون أن من فضائل مصر أنها تمير الحرمين الشريفين وتوسع على أهلهما .

وكانت مصر كما هى الآن تنتج الحبوب بكثرة وخاصة القمح وكذلك الخضراوات والفاكهة ، وتشير أوراق البردى إلى أن الكتان كان يزرع بكثرة فى عصر الولاة كما تشير إلى زراعة قصب السكر فى مصر وقد نسب إلى الإمام الشافعى الذى عاش بمصر فى أواخر القرن الثانى أنه قال : « لولا قصب السكر ماأقمت بمصر »[1] . ولا نعرف أن العرب فى عصر الولاة أدخلوا أصنافا جديدة من المزروعات فى مصر ، أو طرقا جديدة للزراعة والرى غير تلك التى كانت موجودة فى مصر . والواقع أن طريقة زراعة الأراضى فى مصر ظلت كما هى منذ عهد الفراعنة ، وإن كانت قد تقدمت نوعا فى عهد الرومان ، حتى أوائل القرن التاسع عشر . وقد كانت الطريقة الشائعة للرى حتى القرن التاسع عشر هى طريقة رى الحياض اللهم إلا فى بعض الجهات التى كان يمكن ريها ريا دائما مثلما كان يحدث فى أراضى الحدائق والفيوم .

ويذكر المؤرخون أنه عقب الفتح مباشرة كانت حكومة العرب

---

(١) السيوطي : حسن المحاضرة ج ٢ (فصل ذكر الفواكه)

تباشر حفر الترع وإقامة الجسور وبناء القناطر وغير ذلك مما يلزم للرى والزراعة وكان يقوم بذلك العمل صيفا وشتاء حوالى ١٢٠,٠٠٠ عامل[1] . ولا نستبعد أن يكون الخلفاء وولاة مصر فى عصر الولاة قد حذوا حذو عمر بن الخطاب وعمرو بن العاص فى هذا الشأن . ويذكر المقريزى[2] أنه كان يفرض على كل ناحية مال معلوم ليصرف فى محل الجسور والمحافظة عليها وأن ذلك بطل فى زمانه .

ونحن لا نستبعد أن يكون العرب بعد الفتح قد جبوا ضريبة الجسور ، وأن ذلك كان استمرارا لما كان قبل الفتح ، إذ كانت تجبى ضرائب من المصريين للمحافظة على الجسور .

كذلك اهتم العرب عقب الفتح مباشرة ببناء مقاييس للنيل لمعرفة مقدار الزيادة والنقصان فى مياهه ليكون ذلك معيارا صادقا للزراعة والرى والضرائب فى كل عام . على أن العرب لم يكونوا أول من بنى مقاييس للنيل فى مصر ، وإنما عرفت مقاييس النيل منذ العصور القديمة . ورغم وجود مقاييس للنيل قبل الفتح العربى نرى الخليفة عمر ابن الخطاب يهتم ببناء مقاييس جديدة وكانت مقسمة على أساس الذراع وكل ذراع ينقسم إلى أربعة وعشرين إصبعا . وقد بنى عمرو بن العاص مقاييس بحلوان وأسوان ودندرة ، وعندما كان أميرا من قبل معاوية ابن أبى سفيان بنى مقياسا للنيل فى الصعيد . ثم بنى عبد العزيز بن مروان

---

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر (طبعة تورى) ص ١٥١ ، المقريزى الخطط ج ١ ص ٧٦ ، السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ٦٣ .
(٢) الخطط ج ١ ص ١١٠ .

فى ولايته على مصر مقياسا بحلوان التى اتخذها عاصمة للديار المصرية . وفى خلافة سليمان بن عبد الملك بنى أسامة بن زيد التنوخى عامل الخراج مقياسا بجزيرة الروضة سنة ٩٧ هـ ثم بنى الخليفة المتوكل مقياسا بجزيرة الروضة سنة ٢٤٧ هـ ، كان يعرف آنذاك بالمقياس الجديد .

وطبيعى أن العرب عملوا على كل ما من شأنه زيادة الإنتاج لأن ذلك يكفل لهم كثرة المال وكثرة القمح . وفى عقود إيجار الأراضى الزراعية التى عثرنا عليها بين الأوراق البردية والتى ترجع إلى عصر الولاة ، نلاحظ أن المؤجر يشترط على المستأجر شرطا هذا نصه : « وما بورت فعليك خراجه »[١]. أى أنه يلزم المستأجر بدفع الخراج عن الأراضى التى يتركها دون زرع حتى تصبح أراضى بورا، وطبيعى ألا يرضى المزارع أن يدفع خراجا عن الأراضى البور التى لا يستفيد منها فكان هذا الشرط يحمل المزارعين على الانصراف إلى الزراعة ، وعدم إهمال الأرض . ولعل هذا الشرط الذى اعتاد المؤجرون أن ينصوا عليه ، كان بسبب حرص الحكومة على زراعة الأرض وعدم إعفاء الأرض البور من الخراج .

وكانت الأراضى بمصر تقاس بالفدادين كما هو الحال الآن . وكان إيجار الأراضى يدفع نقدا وعينا ، ولكننا لم نعثر للآن على أوراق بردية تدلنا على أن الإيجار كان يدفع عينا فقط . وكان إيجار فدان القمح يتراوح فى عصر الولاة بين دينار ودينارين ، وأحيانا يزيد

---

(١) انظر Grohmann : Arabic Papyri. vol. II pp 45 - 48

على الدينارين أو ينقص عن الدينار فيكون الإيجار نصف دينار أو دينارين ونصف (1) .

وقد اهتم الولاة والخلفاء فى ذلك العصر بقمع الحركات والثورات التى كانت تحدث بمصر من وقت إلى آخر وبالقضاء على حركة الهروب حتى لا يسبب ذلك أضرارا بالزراعة نتيجة قلة الأيدى العاملة وترك المزارع . بل إن الخلافة منذ عهد هشام بن عبد الملك أخذت تشجع القبائل العربية على الوفود إلى مصر والاشتغال بالزراعة .

فمصر كانت إذاً معيناً فياضا للأموال والغلال ، ولم تكن الخلافة لتغفل أمرها إذ أن كل ضرر يحيق بها لابد وأنه كان يؤثر من ناحية أخرى فيما تجبيه الخلافة منها .

وحسبنا دليلا على رخاء مصر وازدهار زراعتها فى عصر الولاة ما كتبه النويرى فى الكلام عن فضائل مصر (نهاية الأرب ج ١) فقد جاء فيه « وقال سعيد بن عقبة : كنت بحضرة المأمون حتى قال وهو فى قبة الهواء : لعن الله فرعون حين يقول : « أليس لى ملك مصر » فلو رأى العراق !! فقلت : يا أمير المؤمنين لا تقل هذا فإن الله عز وجل قال : (ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون) فما ظنك يا أمير المؤمنين بشىء دمره الله هذا بقيته ؟ قال : ثم قلت : لقد بلغنى أن أرضا لم تكن أعظم من مصر وجميع أهل الأرض يحتاجون إليها . وكانت الأنهار بقناطر وجسور وتقدير حتى إن الماء يجرى

---

(1) Grohmann : Op· cit. pp· 32 34. 44. 45. 48. etc.

تحت منازلهم وأفنيتهم يحبسونه متى شاءوا ويرسلونه متى شاءوا . وكانت البساتين بحافتى النيل من أوله إلى آخره ، ما بين أسوان إلى رشيد إلى الشام متصلة لا تنقطع ولقد كانت الأمة تضع المكتل على رأسها فيمتلىء مما يسقط من الشجر . وكانت المرأة تخرج حاسرة لا تحتاج إلى خمار لكثرة الشجر . »

٢ ـــ الصناعة

ازدهرت فى مصر منذ التاريخ القديم صناعات هامة مثل صناعة البناء والورق والزجاج والنسيج والدباغة ، وصناعة الخشب ، والفنون الدقيقة كالحلى وأدوات الزينة ، وصناعة الزيوت والعطور والفخار . ونلاحظ أن الصناعات التى نشأت فى مصر كانت تعتمد فى معظم الأحيان على المواد الخام المنتجة فى البلاد ، وإن كانت البلاد تضطر إلى استيراد بعض المواد الخام من الخارج مثل الحديد والخشب والجلود والحرير . وكان حكام مصر المختلفون يشجعون هذه الصناعات ، فلما فتحها العرب وجدوا بها صناعة مصرية راقية وأساليب فنية زاهرة . على أن العرب الذين أتوا إلى مصر لم يكونوا من البدو الذين لا حضارة لهم ولا فن وإنما كان معظمهم من العنصر اليمنى الذى اشتهر منذ القدم بحضارته الراقية وبفنونه الرائعة ، ولو أن هذه الحضارة كانت قد اضمحلت عند قيام الإسلام ، إلا أنه كان عندهم استعداد لقبول التمدن والتحضر وكان عندهم ملكة واسعة فى التصور والذوق الفنى نتيجة اتصالهم الدائم بالشعوب الأخرى مثل البيزنطيين والفرس والأحباش والمصريين

فى أثناء رحلاتهم للتجارة . لذا نجد أنه بعد فتح مصر نشأت صناعة إسلامية مصرية وفن إسلامى مصرى كان للمصريين اليد الكبرى فيه ، وإن كان العرب قد أفلحوا فى طبعه بطابع دينهم وفى إظهار شخصيتهم فيه بحيث تميزت الصناعات والفنون الإسلامية عما كان موجودا فى مصر قبل الفتح .

وكان معظم الصناع فى مصر فى عصر الولاة من المصريين ، سواء أكانوا ممن بقى على دينه من الأقباط أم ممن أسلم منهم . فالعرب فى أول ذلك العصر كانوا لا يتدخلون فى الصناعات وغيرها من المهن ، وإنما كان بيدهم السياسة والحكم والحرب . وحتى بعد أن بدأ العرب يختلطون بالأهالى ويملكون الأراضى ويشتغلون بالزراعة منذ أوائل القرن الثانى الهجرى لم يصبحوا الأغلبية بين الصناع فى مصر . ولا شك فى أن كثيراً منهم اشتغلوا بالصناعة وخاصة بعد أن أمر الخليفة المعتصم بإسقاطهم من الديوان ، ولكن المصريين كان لهم الغلبة والكثرة العددية على إخوانهم من العرب .

(١) البناء

عرف المصريون منذ القدم بتقدمهم فى صناعة البناء وفى فن العمارة وتشهد بذلك آثارهم فى مختلف العصور . فلما جاء العرب اختطوا مدينة الفسطاط وبنوا فيها المسجد الجامع إلا أن أبنيتهم كانت بسيطة جدا وذلك بحكم عيشة الخشونة التى كانت تغلب عليهم فى أول الأمر . ثم ما لبث الرخاء أن طغى عليهم وتدفقت الثروة إليهم من كل جانب فبدءوا

ينزعون عنهم عيشة البساطة ، وينعمون فى حياتهم وفى مساكنهم ، وأسرعوا إلى تذوق الحضارة الراقية والترف والنعيم . وبدا ذلك واضحا جليا فى العمارة الإسلامية فى جميع أنحاء الدولة الإسلامية ولما يمض على الفتوحات الإسلامية قرن من الزمان . ولا زالت بعض العمائر التى بنيت فى ذلك العهد المتقدم باقية إلى اليوم مثل قبة الصخرة التى بناها فى بيت المقدس عبد الملك بن مروان ومثل الجامع الأموى الذى بناه فى دمشق الوليد بن عبد الملك وأسرف فى تزيينه .

تقدمت العمارة الإسلامية فى جميع أنحاء المملكة دون استثناء ومن بينها مصر . فسرعان ما نمت الفسطاط ودب فيها العمران والحضارة وبنيت فيها الحمامات والأسواق كما بنيت الدور العالية بعد أن كان البناء بسيطا . ونكرر هنا أن العرب لم يشتغلوا فى أول الأمر بالصناعة فى مصر، وإنما قام ببناء العمارة الإسلامية فيها معماريون وبناءون من أهالى البلاد وصبغها الفاتحون بصبغة دينهم . ولا شك فى أن العمارة القبطية كانت متقدمة حين فتح العرب مصر ، وقد نقل العرب من المعابد والكنائس القديمة كثيراً من الأعمدة والتيجان ، استخدموها فى مساجدهم وبيوتهم كما يتجلى من وجود الأعمدة القبطية فى جامع عمرو. ونجد كثيراً من أعمدة الكنائس الرخامية فى معظم المساجد ، ولكن يجب ألا يتطرق إلى أذهاننا أن الكنائس خربت عمدا لتسد حاجة البناء فى المساجد وخاصة فى العهد الأول للإسلام ، وإنما كان من السهل أن يتخذ العرب بقايا ما خربه الفرس أثناء غزوهم لمصر قبيل الفتح العربى . وقد اتخذ العرب كثيرا من كنائس النصارى مساجد لهم بعد أن غلبوا على القرى

فى عهد الخليفة المأمون ، وهذا نتيجة منتظرة لانتشار الإسلام وازدياد عدد المسلمين فضلا عن أنه لم يكن جديدا فى التاريخ ، فإنه لما أصبحت المسيحية فى القرن الرابع للميلاد الدين الرسمى للإمبراطورية الرومانية حوّل المسيحيون فى مصر المعابد والهيا كل إلى كنائس بأن نقشوا الصلبان على أعتاب أبوابها وأعمدتها ، وأبادوا الأصنام وغطوا ما كان منقوشا على جدرانها من صور الآلهة القديمة بطبقة من الجص رسموا عليها صور السيد المسيح والرسل والقديسين ، وبنوا مذابح لإقامة القداس ، ولا تزال آثار ذلك ظاهرة إلى يومنا هذا بأغلب معابد الوجه القبلى . كما نرى فى بعض هذه الكنائس والأديرة أحجارا انتزعت من المعابد الفرعونية القديمة استخدمها القبط فى أبنيتهم الجديدة .(١)

ومهما يكن من شىء فإن العمارة الإسلامية أخذت عن القبط بعض العناصر المعمارية ، فيظن كثير من العلماء أن محراب الجامع مأخوذ عن « الحنية » التى توجد فى صدر الكنيسة إلى جهة الشرق ، وأن مآذن الجوامع الإسلامية مأخوذة عن أبراج الكنائس . كذلك أخذ المسلمون عن القبط فى زخرفة المبانى كثيرا من الموضوعات الزخرفية النباتية والهندسية كما أخذوا عنهم طلاء المبانى بطبقة من الجص .(٢)

ونعرف من الأوراق البردية ومما ذكره المؤرخون أن العرب لم يستخدموا العمال المصريين فى بناء أبنية مصر فقط بل كثيرا ما استخدموهم

---

(١) الدكتور زكى محمد حسن : بعض التأثيرات القبطية فى الفنون الإسلامية ص ٨ وما ذكره من مراجع

(٢) المرجع نفسه ص ٩ — ١٠

فى الأبنية التى أنشئت فى غير مصر . فقد اشترك مهرة العمال والبنائين المصريين فى العمل بالجامع الأموى فى دمشق وفى المسجد الأقصى فى بيت المقدس وفى قصر الوليد بن عبد الملك فى دمشق وفى بناء مسجد المدينة المنورة . وهذا يدلنا على مدى تقدير العرب لمهارة المصريين فى فن البناء والعمارة فمصر كانت تابعة للخلافة الإسلامية سياسيا ولا بد أنها أثرت وتأثرت بالخلافة من الناحية الفنية أيضا .

(ب) المنسوجات

من الصناعات التى ازدهرت بمصر فى عصر الولاة صناعة المنسوجات صوفية كانت أو تيلية أو حريرية أو قطنية . ولم تكن هذه الصناعة أو غيرها من الصناعات التى اشتهرت بها مصر فى عصر الولاة شيئا أحدثته الخلافة ، وإنما كانت مما اشتهرت به مصر منذ القدم . فاستمرت صناعة النسج زاهرة فى عصر الولاة واستغلتها الخلافة كثيرا لسد حاجاتها المختلفة . كما أن القائمين بتلك الصناعة كانو من المصريين ، شأنهم فى ذلك شأن أصحاب الصناعات الأخرى فى ذلك العصر ، إلا أن الأقباط حملوا لواء هذه الصناعة لمدة طويلة لم يشاركهم فيها أحد ، ويدلنا على ذلك أن العرب كانو يطلقون على المنسوجات المصرية اسم قباطى(١). ولا بد أن هذه التسمية نسبة إلى قبط مصر الذين أظهروا مهارتهم الفنية فى ميدان

---

(١) الأزرق : أخبار مكة ج ١ ص ١٣٧ و ١٦٨ ، المقدسى : أحسن التقاسيم ص ٢٠٣ ، خطط المقريزى ج ١ ص ١٨١ .

النسج . كذلك يذكر ياقوت الحموى صاحب معجم البلدان والذى عاش حتى أوائل القرن السابع الهجرى أن ناسجى الثياب فى دمياط وتنيس من القبط . وعلى كل حال فإن المراكز الرئيسية لصناعة النسج فى العصر الإسلامى كانت فى أغلب الأحيان المدن التى اشتهرت بالنسج فى العصر القبطى .وكان عدد كبير من سكان تلك المدن لايزالون على دينهم المسيحى . وقد كانت صناعة النسج زاهرة فى عهد الفراعنة ثم تقدمت تقدما كبيراً فى العصر القبطى فكانت مصر تصدر إلى بيزنطة وإلى بابوات رومة كثيرا من الأقمشة النفيسة التى كان يذهب جزء كبير منها إلى الكنائس المسيحية

أما فى العصر الإسلامى فقد تطورت صناعة المنسوجات وزخرفتها تطورا منتظما غير فجائى . وكان العرب منذ الفتح يميلون فى الزخرفة إلى العناصر الهندسية والنباتية لكراهيتهم تصوير الإنسان والحيوان . وكان هذا الميل نفسه قد دب إلى الفنون القبطية منذ منتصف القرن الخامس الميلادى ، فأصبحت الرسوم الآدمية والحيوانية فى زخارف المنسوجات القبطية محورة عن الطبيعة إلى حد بعيد . وهكذا لم يجد المصريون صعوبة كبيرة فى إرضاء الفاتحين وإنتاج التحف الفنية التى تتفق ومزاجهم. وعلى كل حال فإن صناعة النسج لم تطبع فى مصر بطابع إسلامى ظاهر إلا فى العصر الفاطمى ، وحتى حين أصبحت صناعة المنسوجات فى العصر الفاطمى إسلامية بحتة لم تخل فى زخارفها مما يدل على بعض العلاقة بماضيها فى وادى النيل .(١)

---

(١) الدكتور زكى محمد حسن : الفن الإسلامى فى مصر ج ١ ص ٩٠ ، بعض التأثيرات القبطية ١٢ — ١٣

وكانت مصر مشهورة على الأخص بنسج الكتان لوفرة زراعته . أما القطن والحرير الخام فى مصر فإننا نرجح أنهما لم يكفيا الاستهلاك المحلى والتصدير وأغلب الظن أن مصر استمرت فى استيرادهما كما كانت الحال قبل الفتح العربى . أما الصوف فإن مصر كانت تنتج منه ما يكفى حاجتها .

وكانت الإسكندرية تشتهر بصناعة النسج حتى قيل إن الثياب المنسوجة بالإسكندرية لا نظير لها وتحمل إلى أقطار الأرض . وكان يصنع فى الإسكندرية نوع فاخر من الثياب المصنوعة من الكتان يقال لها الشرب . كذلك اشتهرت تنيس فى الوجه البحرى بالثياب الفاخرة والفرش ، وكان يحاك بها أيضا الثياب المعروفة بالشرب . والمعروف أن معظم أهل تنيس كانو يشتغلون بالنسج ، ومما يدل على عظمة هذه الصناعة فى تنيس أنه كان يصنع بها للخليفة ثوب يقال له البدنة لا يدخل فيه من الغزل سداة ولحمة [1] غير أوقيتين وينسج باقيه بالذهب بصناعة محكمة لا تحتاج إلى تفصيل ولا خياطة ، وتبلغ قيمة هذا الثوب ألف دينار . وكان يصنع فى تنيس أيضا ثياب رقيقة وصفها الكتاب المسلمون بأنها « مهلهلة النسج كأنها المنخل »[2] وكانت تسمى بالقصب وكان هذا القصب يلون ، ولم ينسج فى أى مكان آخر قصب ملون مثل الذى ينسج فى تنيس وكان يعمل منه عمائم للرجال

---

(١) السدى من الثوب خلاف اللحمة وهو ما مد من خيوطه . واللحمة ما نسج عرضا من الثوب وهو خلاف سداه .

(٢) ياقوت : معجم البلدان ج ١ ص ٨٩٠ .

وملابس للنساء . أما القصب الأبيض فكان ينسج بدمياط . وكانت دمياط تقارب تنيس فى شهرتها فى النسج ، فكان يعمل بها الثياب الشرب والقصب . وقيل: إن الثياب الكتانية التى كانت تعمل بها ربما بلغ ثمن الثوب منها ألف دينار ونحوه إذا كانت مذهبة وما لم يكن فيه ذهب المائة والمائتين ونحوهما .

وقد اشتهر فى النسج أيضاً من بلدان مصر السفلى شطا ودميرة وتونة وكلها قريبة من تنيس ودمياط .

واشتهر فى النسج من بلدان مصر الوسطى والعليا مدينة البهنسا فكان ينسج بها الصوف والقطن . واشتهرت القيس أيضا بثياب الصوف وأكسية المرعز (١) التى لم يكن لها مثيل . والقيس كما نعرف ، على مقربة من البهنسا من أعمال مديرية المنيا . وكان هناك مصانع للنسج فى الأشمونين وأسيوط وأخميم وإهناس وبوصير قريدس (٢) وغيرها من بلاد الوجه القبلى .

أما نسج الحرير فقد ازدهرت صناعته بمصر فى عصر الولاة ، ومن المدن التى قامت فيها هذه الصناعة مدينة دبيق . وهناك أيضا منسوجات حريرية من أخميم محفوظة فى المتحف البريطانى فى لندن نسجها الصناع الأقباط وترجع إلى هذا العهد الذى نتحدث عنه أو بعده بقليل (٣)

---

(١) المرعز اللين من الصوف .

(٢) بوصير قريدس أو قوريدس من أعمال الأشمونين .

(٣) Butler: Islamic Pottery P. 31

ويتجلى فيها المميزات القبطية والعربية . وقد عثر فى أخميم على لباس من الحرير كتب عليه اسم الخليفة مروان ، ولسنا نعرف هل المقصود هنا مروان بن الحكم أو مروان بن محمد .

وكانت المنسوجات تنسب فى العادة إلى البلاد التى تعمل فيها فيقال : الثياب الشطوية والقيسية ويقال التنيسى والدمياطى الخ . . . كذلك كان للكتابة شأن فى صناعة المنسوجات فى العصر الإسلامى . وكان من العادات المعروفة أن يكتب على الثوب اسم الشخص الذى أمر بعمله . أما زخارف المنسوجات المصرية بين الفتح العربى وقيام الدولة الفاطمية فكانت لا تزال محتفظة بقسط وافر من روح الزخارف فى المنسوجات القبطية وتعتبر عصر انتقال بين الطراز القبطى والمنسوجات ذات الزخارف الإسلامية الخالصة فى العصر الفاطمى .

ولم يكن الفضل فى اتساع نطاق فن النسج فى مصر فى العصور الوسطى راجعا إلى الأهالى فقط وإنما كان يرجع إلى الحكومة أيضا ، فقد كانت تسيطر على مصانع النسج . والواقع أن هذه السيطرة نظام لم ينشئه المسلمون فى مصر بل أخذوه عن بيزنطة ، فالراجح المحتمل أن يكون البيزنطيون قد أنشأوا فيها مصانع حكومية للنسج إلى جانب المصانع الأهلية ، ولما جاء المسلمون أبقوا على هذا النظام ، وعرفت مصانع النسج باسم الطراز . ولفظ طراز مشتق من الفارسية «ترازيدان» و «تراز» بمعنى التطريز وعمل المدبج broderie ثم أصبح يدل على ملابس الخليفة أو الأمير أو السلطان ورجال الحاشية لا سيما إذا كان فيها شىء من التطريز وعليها أشرطة من الكتابة . واتسع مدلول هذا

اللفظ حتى انتهى فى العربية والفارسية إلى الدلالة على المصنع والمكان الذى تصنع فيه هذه المنسوجات [1] . على أن كلمة « طراز » استعملت فى معان أخرى مثل الدلالة على أى نقش من النقوش التى توضع على شريط مستعرض من أى نوع كان سواء كان من الحجارة أو الفسيفساء أو الزجاج أو الفخار أو كان محفورا فى الخشب ، كذلك أطلق لفظ طراز على الكتابة الرسمية التى كانت تكتب على درج البردى [2] .

ولم يبق نظام الطراز وقفا على مصر بل نكاد نجده فى كل الأقاليم الإسلامية كسورية والعراق وإيران وآسيا الصغرى وأسبانيا وجزيرة صقلية . ويظهر أنه كان هناك نوعان من هذه المصانع الحكومية ، الأول طراز الخاصة وكان لا يعمل إلا للخليفة ورجال بلاطه وخاصته ، والثانى طراز العامة وكان يتبع أيضا بيت مال الحكومة ، ولكنه كان يعمل لحساب بلاط الخليفة وأفراد الشعب . وقد كتب على بعض المنسوجات التى عثر عليها والتى ترجع إلى عصر الولاة أنها صنعت فى طراز الخاصة وعلى البعض الآخر أنها صنعت فى طراز العامة .

وقد عنى الخلفاء والأمراء بكتابة أسمائهم على هذه الأقمشة الثمينة التى كانوا يتخذونها ملابس لهم أو خلعا يخلعونها على كبار رجال دولتهم . وكانت الكتابة على النسيج بلحمة من الذهب أو الفضة أو الخطوط المتعددة الألوان . وكانت الكتابة تشمل اسم الخليفة وألقابه وبعض

(١) الدكتور زكى محمد حسن : الفن الإسلامى فى مصر ج ١ ص ٨٤ .

(٢) أدولف جرمان : أوراق البردى العربية ج ١ ص ٣ — ٤ (ترجمة الدكتور حسن ابراهيم حسن) .

عبارات الأدعية وكثيرا ما كان يذكر فيها اسم المدينة التى فيها الطراز واسم الوزير وصاحب الخراج وناظر الطراز . وكان الغرض من هذه الكتابات الملكية على الأقمشة بيان الأمير الذى عملت باسمه أو الشخص الذى خلعت عليه .

وقد عثر على قطع منسوجات صنعت فى مصر وكتب عليها أسماء الخلفاء العباسيين . فهناك قطعة نسيج صنعت للخليفة المهدى العباسى فى طراز تنيس سنة ١٦٢ ﻫ وكتب عليها « بسم الله بركة من الله لعبد الله المهدى محمد أمير المؤمنين أطال الله بقاءه مما أمر به اسماعيل بن ابراهيم يصنع فى طراز تنيس على يدى الحكم بن عبيدة سنة اثنتين وستين ومائة »(١) وهناك قطعة صنعت فى طراز تونة سنة ١٩٠ ﻫ للخليفة هرون الرشيد(٢) كما صنعت له قطعة أخرى فى سنة ١٩٣ ﻫ (٣) .

وقد عثر أيضا على قطعة نسيج صنعت بطراز العامة بمصر للخليفة الأمين(٤) ولا نعرف متى صنعت . وهناك قطعة صنعت للخليفة المأمون فى سنة ٢٠٦ ﻫ (٥) . كما عثر على قطعة أخرى صنعت لنفس الخليفة فى طراز الخاصة سنة ٢١٦ ﻫ (٦) . وهناك قطعة صنعت للخليفة المستعين بالله فى سنة ٢٥٢ ﻫ (٧) . وأخرى صنعت فى طراز الخاصة بمصر فى سنة

---

(١) Répertiore Chronologique d'Epigraphie Arabe t. I. p. 35

(٢) op. cit. p. 62 (٣) op. cit. p. 68 (٤) op. cit. p. 75

(٥) op. cit. p. 115 (٦) op. cit. p. 165

(٧) op. cit. t. II. p. 122

٢٥٤ هـ لأمير المؤمنين (١) وهو إذ ذاك المعتز بالله .

وقد عنى الخلفاء أيضا منذ الفتح العربى لمصر باتخاذ كسوة الكعبة من المنسوجات النفيسة التى كانت تصنع بها . فيذكر الأزرقى (٢) أن عمر بن الخطاب كسا الكعبة القباطى من بيت المال ، وكان يكتب إلى مصر لتصنع له فيها ، وكذلك فعل عثمان من بعده ؛ فلما كان معاوية ابن أبى سفيان كساها كسوتين كسوة عمر القباطى ، وكسوة ديباج . فكانت تكسى الديباج يوم عاشوراء ، وتكسى القباطى فى آخر شهر رمضان .

ويجدر بنا أن نذكر أن مصر ، كما استمرت ترسل القمح سنويا إلى الحجاز حتى بعد أن انتقل مقر الخلافة وحتى بعد أن استقلت عنها مصر كذلك استمرت ترسل كسوة الكعبة سنويا، بل إن إرسال كسوة الكعبة من مصر إلى مكة كان يشير إلى زعامة مصر على الحجاز وعلى العالم الإسلامى كله وذلك منذ القرن الرابع الهجرى .

(حـ) الورق

اشتهرت مصر فى عصر الولاة بصناعة الورق من البردى الذى كان ينمو بكثرة فيها وخاصة فى مستنقعات الدلتا والفيوم . وشهرة مصر فى صناعة الورق من البردى شهرة قديمة منذ عهد الفراعنة . وطالما كان الناس يستعملون البردى للكتابة كانوا يعتمدون على مصر . والمعروف

(١) op. cit. t. II p. 138

(٢) أخبار مكة ج ١ ص ١٦٨ — ١٦٩

أن صناعة إعداد ورق البردى للكتابة انتهت فى مصر حوالى القرن الرابع الهجرى ، وقد حل محل ورق البردى الكاغد الذى كان يصنع فى سمرقند وفى الصين . والواقع أن ورق البردى المؤرخ الذى وصل إلينا ينتهى فى عام ٣٢٣ هـ على حين أن الوثائق المكتوبة على الكاغد يبدأ تاريخها منذ عام ٣٠٠ هـ . وهكذا نرى أن مصر كانت طوال عصر الولاة تقريبا تكاد تحتكر صناعة الورق . وكان صناع الورق ، كغيرهم من الصناع فى مصر من المصريين أهل البلاد ، وكان جلهم أو كلهم فى أول عهد الفتح من الأقباط ، وإلى أواخر القرن الأول الهجرى وأوائل الثامن الميلادى كان الطابع الذى يطبع على الورق يشمل هذه الكلمات: « الآب والابن وروح القدس» ومع أن ذلك الطابع استبدل بعد ذلك بما يتفق والدين الإسلامى ، إلا أن الكتبة ظلوا يرسمون علامة الصليب على ظهر أوراق الحكومة (١).

(د) الخشب

مهر المصريون منذ عهد الفراعنة فى صناعة الخشب بالرغم من قلة الأخشاب فى مصر ، وبالرغم من أن ما يوجد بها من الشجر لا يصلح خشبه إلا لأعمال النجارة البسيطة ، مثل شجر الجميز والسنط والزيتون والسرو والبندق . وكان المصريون منذ العصور القديمة يستوردون من البلاد المجاورة ما يلزمهم من خشب الأرز والصنوبر والأبنوس والساج

---

(١) Wiet : Précis de l'hist. d'Egypte t, 2, p, 147

وغيرها من أنواع الخشب المتين . وكان جفاف الجو يساعد على بقاء الخشب فى حالة جيدة . وقد ظلت لمصر السيادة فى الحفر على الخشب وصناعته حتى القرن العاشر الهجرى والسادس عشر الميلادى .

وكما خلف لنا الفراعنة التماثيل الخشبية النادرة ، مثل تمثال شيخ البلد وغيره من التماثيل، نرى أن الفن القبطى ورث مهارة قدماء المصريين فى صناعه الخشب ونقش الزخارف عليه ، وقد تطورت هذه الصناعة على يد النجارين القبط الذين تأثروا بالفن البيزنطى ، فازدادت صناعتهم جمالا ، وزاد إنتاجهم كثيراً . وقد اشتغل الرهبان بالنجارة أيضا وأتقنها الكثير منهم(١) فلما جاء المسلمون تركوا الصناعة فى يد الأقباط كما كانت سياستهم . وقد وصلت إلينا قطع كثيرة من الخشب ذى الزخارف ، مستعملة فى الأبنية أو فى قطع الأثاث . وقد ظهرت فى هذه القطع الأساليب القبطية فى الصناعة مع تطورها التدريجى لتتخذ لنفسها مسحة إسلامية . وبعض القطع المذكورة لا يكاد يتميز عن القطع القبطية إلا بما عليه من كتابات عربية (٢).

ولا يبعد أن يكون العرب فى مصر قد اتخذوا لأنفسهم شكل الكثير من قطع الأثاث القبطية ، كالدواليب والموائد ، ولعلهم أخذوا

---

(١) الدكتور زكى محمد حسن : بعض التأثيرات القبطية ص ١٣ — ١٤ .

(٢) الدكتور زكى محمد حسن : الفن الإسلامى فى مصر ج ١ ص ٩٢ — ٩٣ وما ذكره من مراجع ، بعض التأثيرات القبطية ص ١٤

عنهم أيضا الكرسى الذى يحمل عليه المصحف والذى يعرفه القبط باسم منجلية (أى محل الإنجيل) .

(هـ) الخزف والزجاج والمعادن

اشتهرت مصر فى هذا العصر بصناعة الخزف . وقد ظل صناع الخزف فى مصر محتفظين بمهارتهم وبسر هذه الصناعة منذ عهد الفراعنة كما تأثروا بالفن البيزنطى من حيث النماذج والزخرفة . وتدل التحف الخزفية التى ترجع إلى عصر الولاة على أن طلاء الخزف بالدهان كان متقنا حينذاك ، كما أن الخزف ذا البريق المعدنى كان معروفا وإن كنا لا نعرف تماما هل نشأت صناعة هذا النوع من الخزف فى مصر أو نقلت إليها من إيران أو العراق .

وكانت صناعة الزجاج مزدهرة فى مصر منذ العصور القديمة وكان مركزها قبل الإسلام مدينة الإسكندرية . ولم تهمل هذه الصناعة فى عصر الولاة فإنه فضلا عن عمل الأوانى والأوعية الزجاجية والخواتم والأختام التى كان يطبع بها على الأوانى لبيان أحجامها المختلفة ، [1] كان المصريون لا يزالون محتفظين بمعظم ما عرفه أجدادهم من أسرار صناعة الزجاج .

وكانت صناعة المعادن مزدهرة فى العصر الفرعونى ، واحتفظ القبط بالتفوق فيها ، والراجح أنهم نقلوها إلى تلاميذهم من الصناع العرب

(١) الدكتور زكى محمد حسن : الفن الإسلامى فى مصر ج ١ ص ١١٧ — ١١٨.

ولكننا لا نعرف تماما أية آثار معدنية مصرية من عصر الولاة. وقد عثر فى أبى صير الملق التى تقع فى مركز الواسطى على إبريق من البرونز وهو محفوظ الآن فى متحف الفن الإسلامى فى القاهرة، وينسب هذا الإبريق إلى الخليفة الأموى مروان بن محمد، ولعل هذا الإبريق من صناعة القرن الأول أو الثانى بعد الهجرة ولكنه يتبع الطراز الساسانى فى الصناعة والزخرفة.

أما النقود فقد كان الولاة فى مصر يتخذون منها ما تتخذه عاصمة الخلافة، ولكن بعض قطع السكة كانت تضرب فى مصر.

ومن الصناعات الشعبية التى ازدهرت فى مصر منذ عصر الولاة صناعة شواهد القبور. وكانت هذه الشواهد فى البداية بسيطة من الحجر والرخام، ثم اكتسبت طابع الإتقان تدريجيا حين دخلت الزخرفة على الخط الكوفى الذى ظلت تكتب به إلى نهاية العصر الفاطمى.

والآن وقد استعرضنا أهم الصناعات والفنون التى اشتهرت بها مصر فى ذلك العصر نرى من الواجب علينا أن نقول إن الولاة من قبل الخلفاء شجعوا هذه الصناعات المختلفة وعضدوا الصناع المصريين الذين توارثوا هذه الصناعات المختلفة منذ أقدم العصور، والذين كانوا يفوقونهم من غير شك فى كافة مظاهر الحضارة. وقد ظل العرب لا يتدخلون فى هذه الصناعات ولا يشاركون المصريين فيها حتى عهد المعتصم على الأقل حين غير العرب ما بأنفسهم وتركوا الجندية وأصبحوا يعيشون فى مصر كالمصريين.

٣ ـ التجارة

يتطلب النشاط الزراعى والصناعى نشاطا فى التجارة أيضا . وإن كانت مصر قد نشطت فى التجارة فلم يكن ذلك راجعا إلى تقدم الزراعة والصناعة فقط ، وإنما يرجع إلى موقع مصر الممتاز بين قارات إفريقيا وأوربا وآسيا . وقد ظهرت قيمة هذا الموقع الجغرافى العالمى منذ عهد الإسكندر المقدونى أى فى أواخر القرن الرابع قبل الميلاد حين اتصلت مناطق الحضارة المختلفة بعضها ببعض وامتدت بينها أسباب التجارة وصلات السياسة والثقافة . وظلت مصر منذ عهد الإسكندر الأكبر تتمتع بهذا المركز الممتاز العالمى فلم تكتف بتصدير ما يزيد عن حاجة البلاد من الزراعات أو الصناعات واستيراد ما تحتاج إليه البلاد ، بل كانت تلعب دور الوسيط بين الشرق والغرب فكانت مخزنا للبضائع الشرقية والغربية تصدر منتجات الأسواق الشرقية إلى الأسواق الغربية وبالعكس . وهكذا كانت التجارة تلعب دورا هاما فى حياة مصر الاقتصادية .

ولم يغيّر الفتح العربى الدور التجارى الذى لعبته مصر منذ القدم ، فكما اهتم العرب باستغلال موارد البيئة المحلية بمصر ، اهتموا أيضا باستغلال الموقع الجغرافى العالمى لمصر . وكان أهم طرق التجارة بين الشرق والغرب قبل اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح (فى القرن ٩ هـ و ١٥ م) هو طريق البحر الأحمر . فقد كان هذا

الطريق يقلل ، إلى أدنى حد ممكن ، المصاعب والنفقات الطائلة التى يسببها النقل البرى .

ورغم الصعاب التى تكتنف الملاحة فى البحر الأحمر فإنه كان ولا زال قبلة الأنظار للتجارة وللمواصلات بين الشرق والغرب . وقد زاد فى أهميته فى العصر الحديث حفر قناة السويس التى تصل بينه وبين البحر الأبيض المتوسط .

ونلاحظ أن التجارة الشرقية كانت تنتهى فى الغالب عند ميناء رأس بناس أو القصير أو أبى شعر على البحر الأحمر . ومن هذه الموانى تتجه التجارة عن طريق وديان صحراء مصر الشرقية إلى قفط على النيل وتتخذ بعد ذلك طريق النيل حتى الإسكندرية ، ومن الإسكندرية تتصل التجارة الشرقية بأسواق الغرب عن طريق حوض البحر الأبيض المتوسط . وأحيانا كانت السفن التجارية تواصل السير فى البحر الأحمر إلى القلزم وهى السويس الحالية ، ثم تسير فى القناة النيلية التى تصل بين البحر الأحمر والنيل عن طريق البحيرات المرة ووادى طميلات ، تلك القناة التى اهتم بحفرها الفراعنة ثم البطالسة والرومان ، وبعد ذلك تصل السفن حتى الإسكندرية . وقد اهتم المصريون ، أو الذين حكموا الشعب المصرى فى العصور المختلفة منذ الأزمنة القديمة بالسيطرة على الطرق التجارية ليضمنوا سلامة استقلالهم السياسى والاقتصادى ، وليجعلوا مصر الطريق الرئيسى لمرور التجارة ، وكثيرا ما دفعتهم هذه الأهداف إلى ضم الشام ، للسيطرة على الطرق التجارية ولتأمين الحدود المصرية . كذلك اهتم العاملون من حكام مصر فى العصور المختلفة

بإصلاح الطريق الصحراوى الذى تمر فيه قوافل التجارة بين البحر الأحمر والنيل ؛ وبإقامة الحاميات فيه ، وبحفر الآبار على طول ذلك الطريق ، وبالقضاء على القرصنة فى البحر الأحمر والمحيط الهندى ، وبإنشاء الموانى على الشاطىء الغربى للبحر الأحمر فى أكثر المواقع صلاحية لرسوّ المراكب وللاتصال بالنيل ، وبشق طرق تجارية جديدة بين البحر الأحمر والنيل ، وبالاهتمام بالقناة التى تصل أحدهما بالآخر ، إلى غير ذلك من ضروب الاهتمام بالتجارة .

وقد زاد نشاط مصر التجارى بعد فتح العرب لها نتيجة لاهتمام العرب بالتجارة على الخصوص ، ولأن مصر وبلاد المغرب وسوريا وفلسطين وبلاد العرب أصبحت كلها جزءا من إمبراطورية واحدة .

وقد فطن المؤرخون المسلمون إلى ذلك الموقع الممتاز الذى تتمتع به مصر فكتبوا أن من فضائل مصر « أنها فرضة الدنيا يحمل من خيرها إلى سواحلها ، وذلك أن من ساحلها بالقلزم ينقل إلى الحرمين وإلى جدة وإلى عمان وإلى الهند وإلى الصين وصنعاء وعدن والشحر والسند وجزائر البحر ، ومن جهة تنيس ودمياط والفرما فرضة بلد الروم وأقاصى الإفرنجة وقبرص ، وسائر سواحل الشام والثغور إلى حدود العراق ، ومن جهة الإسكندرية فرضة إقريطش وصقلية وبلد الروم والمغرب كله إلى طنجة ومغرب الشمس ، ومن جهة الصعيد فرضة بلد النوبة والبجة والحبشة والحجاز واليمن » (١)

---

(١) النويرى : نهاية الأرب ج ١ ص ٣٤١ ، خطط المقريزى ج ١ ص ٢٨ .

وقد اهتم الخليفة عمر بن الخطاب بإعادة حفر القناة النيلية التى كانت تصل البحر الأحمر بالنيل شمالى الفسطاط ، وكانت هذه القناة قد اهملت قبل الفتح العربى حتى أصبحت غير صالحه للملاحة فى بداية القرن السابع الميلادى . وكان غرض عمر بن الخطاب من إعادة حفر القناة هو تسهيل حمل الغلال والطعام من مصر إلى الحجاز ، وبالتالى فقد أفاد حفرها التجارة والتجار ، وقد سميت هذه القناة باسم خليج أمير المؤمنين نسبة إلى عمر بن الخطاب وأهمل شأن هذه القناة بعد عهد الخليفة الأموى عمر بن عبد العزيز (٩٩ — ١٠١ ﻫ) إلا أن الطريق الرئيسى الذى كان يسلكه التجار طوال عصر الولاة ظل عن طريق القلزم وبرزخ السويس ومنها إلى الفرما على البحر الأبيض المتوسط بطريق القوافل ، أو من السويس إلى النيل على ظهر القوافل ثم تسير التجارة فى النيل حتى تصل إلى الإسكندرية .

وكان طريق السويس أو القلزم أكثر ارتيادا فى عصر الولاة من الطريق الآخر الذى يسير من موانى البحر الأحمر إلى النيـــل طريق وديان الصحراء الشرقية فى الوجه القبلى .

ويؤيد كلامنا هذا ما كتبه الجغرافى المشهور ابن خرداذبة [1] عن التجارة فى أواخر القرن الثالث الهجرى . فقد تحدث عن التجار اليهود الراذانية الذين يتكلمون بالعربيـة والفارسية والرومية والإفرنجية

---

(١) كتاب المسالك والممالك ص ١٥٣ — ١٥٤ ، والدكتور زكى محمد حسن : الرحالة المسلمون فى العصور الوسطي ص ٧ — ٩ .

والأندلسية والصقلبية ، وذكر أنهم يسافرون من المشرق إلى المغرب ومن المغرب إلى المشرق برا وبحرا، يجلبون من المغرب الخدم والجوارى والغلمان والديباج وجلود الخز والفراء والسمور (١) والسيوف ، ويركبون من فرنجة (٢) فى البحر الغربى فيخرجون بالفرما ، ويحملون تجارتهم على الظهر إلى القلزم وبينهما خمسة وعشرون فرسخا ثم يركبون البحر الشرقى من القلزم إلى الجار وجدة (٣) ثم يمضون إلى السند والهند والصين فيحملون من الصين المسك والعود والكافور والدار صينى وغير ذلك مما يحمل من تلك النواحى حتى يرجعوا إلى القلزم ، ثم يحملونه إلى الفرما ، ثم يركبون فى البحر الغربى ، فربما عدلوا بتجاراتهم إلى القسطنطينية فباعوها من الروم ، وربما صاروا بها إلى ملك فرنجة فيبيعونها هناك ، وإن شاءوا حملوا تجارتهم من فرنجة فى البحر الغربى فيخرجون بأنطاكية ويسيرون على الأرض ثلاث مراحل إلى الجابية ، ثم يركبون فى الفرات إلى بغداد ، ثم يركبون فى دجلة إلى الأبلة ، ومن الأبلة إلى عمان والسند والهند والصين ، كل ذلك متصل بعضه ببعض »

ويقال إن عمرو بن العاص فكر فى حفر قناة تصل ما بين البحر الأحمر والبحر الأبيض المتوسط رأسا، ويقال أيضا إن الخليفة هرون

---

(١) السمور حيوان برى يشبه ابن عرس وأكبر منه ، لونه أحمر مائل إلى السواد يتخذ من جلده فراء ثمينة ، وربما أطلق السمور على جلده والجمع سمامير .

(٢) يقصد بفرنجة هنا فرنسا .

(٣) الجار كانت ميناء المدينة المنورة ، أما جدة فهي ميناء مكة .

الرشيد فكر فى ذلك إلا أن ذلك المشروع لم يخرج عن حيز التفكير وفى ذلك يقول ابن خلدون[1] : إنه « ما زال الملوك فى الإسلام وقبله يرومون شق ما بين البحرين إلا أن ذلك لم يتم» ولم يتم تنفيذ تلك الفكرة إلا فى العصر الحديث حين تم حفر قناة السويس .

ولم يكن فتح العرب لمصر سببا فى قصر تجارتها على دول الشرق وضعف علاقاتها التجارية مع بلاد الغرب بل ظلت مصر طريقا للتجارة بين الشرق والغرب معا . وكذلك لم تفقد الإسكندرية مكانتها التجارية العالمية التى كانت لها قبل الفتح ، وإن كانت شهرة الإسكندرية قد تضاءلت قليلا بعد ذلك أمام شهرة بغداد التجارية إلا أنها احتفظت رغم ذلك بمركزها التجارى الهام .

وطبيعى أن طرق الحج وطرق البريد كانت أيضا مسلكا للتجار فى ذلك العصر لأن الخلافة كانت تهتم بعمارة هذه الطرق وبالعناية بها وبتوفير الراحة فيها . فعندما كان خليج أمير المؤمنين مستعملا لملاحة السفن كان بعض الحجاج يتخذون هذا الطريق أيضا للحج . وكذلك كان الطريق الصحراوى بين البحر الأحمر والنيل فى الوجه القبلى مسلكا للتجار والحجاج . وكان هناك طريق برى يرتاده الحجاج بكثرة وهو طريق أيلة التى كانت عند موضع العقبة الحالية . فكان الحجاج يسيرون من القلزم إلى أيلة وبعدها إلى الحجاز وكانت آيلة ملتقى الناس والتجارة ، وكانت بلاد الحجاز نفسها ملتقى للحجاج والتجار فكانت البضائع الشرقية تباع إلى الحجاج كما أنها كانت تصل إلى أسواق

---

(١) المقدمة ص ٣٩ (المقدمة الثانية فى قسط العمران من الأرض)

الغرب بواسطة التجار المصريين الذين يرافقون الحجاج فى عودتهم إلى مصر بالطريق البرى حول خليجى البحر الأحمر ، أو بواسطة التجار السوريين الذين يحملون هذه البضاعة فى اتجاه دمشق .

أما طرق البريد : فأولها الطريق المعروف الذى أتت منه الجيوش المغيرة على مصر فى العصور المختلفة مثل جيوش قمبيز والإسكندر الأكبر وعمرو بن العاص . وهذا الطريق يمر بالرملة بفلسطين ثم بمدينة غزة ورفح والعريش والفرما وبلبيس ثم الفسطاط . وهناك طريق آخر يخرج من الفسطاط إلى الإسكندرية ثم إلى برقة وإفريقية وبلاد المغرب وثالث يخرج من الفسطاط إلى المغرب دون أن يمر بالإسكندرية ولكنه يلتقى بالطريق الذى يخرج من الإسكندرية فى برقة .

كذلك كانت مصر تتبادل التجارة فى عصر الولاة مع النوبة والسودان وأواسط إفريقية ، وكانت علاقة مصر التجارية مع الجنوب إما عن طريق البحر الأحمر أو عن طريق النيل عند أسوان . وقد مر بنا أنه منذ الفتح العربى كانت هناك اتفاقية بين مصر والنوبة عرفت بالبقط كان من أهم نصوصها أن تستورد مصر الرقيق من النوبة وتصدر إليها القمح والعدس والحبوب .

ولا نعرف تماما ما الذى كانت تصدره مصر فى ذلك العصر وما الذى كانت تستورده ، لكننا نرجح فى الغالب أنه فضلا عن دور الوسيط الذى كانت تقوم به مصر بين الشرق والغرب ، كانت تصدر جانبا من القمح والحبوب بالإضافة إلى ما كانت ترسله سنويا إلى الحجاز . ولا نستبعد أن مصر كانت تصدر الكتان فى ذلك العصر لوفرة زراعته

بها فضلا عن الثياب الكتانية كما أننا نرجح أن أهم ما كانت تستورده مصر هو الأخشاب ، لندرة الأنواع الطيبة من الخشب فى مصر مما كان يلزم للبناء والسفن ، وكذلك المعادن . ويظهر أن تجارة الرقيق كانت رائجة فى ذلك العصر أيضا إذ كان هناك سوق للرقيق بمصر فى الفسطاط منذ أول عهد الفتح.

٤ — الحركة العلمية

تركزت الحركات العلمية فى كافة الأمصار الإسلامية فى صدر الإسلام فى الناحية الدينية ، وكان أكثر العلماء الذين ظهروا إذ ذاك علماء دين . أما العلوم الدنيوية والفلسفية فقد كان شأنها ضعيفا فى ذلك العصر وإن كانت قد بدأت فى النمو .

والمعروف أن الصحابة تفرقوا فى كافة البلدان التى فتحتها الجيوش الإسلامية ، بل انضم كثير منهم إلى الجيوش التى فتحت تلك البلدان ، وربما تعمد الخلفاء تفريقهم ليعلموا أهلها الدين الإسلامى . وقد اشترك فى فتح مصر كثير من الصحابة ، وأخذ الصحابة يفدون إليها بعد الفتح وشجعهم على ذلك ما رأوه من وفير الخيرات وسهولة العيش . وأخذ العالمون منهم بأمور الدين يقومون بمهمة تعليم الشعب المصرى أصول الدين الإسلامى ، وهؤلاء الصحابة العلماء كانوا أساس مدرسة مصر الدينية كما كان غيرهم من الصحابة أساس المدارس الدينية فى مختلف الأمصار .

وكان أشهر من علم بمصر من الصحابة بعد الفتح هو عبد الله بن عمرو ابن العاص الذى يعتبر بحق مؤسس مدرسة مصر الدينية . والمعروف أن عبد الله بن عمرو أسلم قبل أبيه وكان فاضلا عالما قرأ القرآن والكتب المتقدمة . وقد استأذن عبد الله بن عمرو النبي صلى الله عليه وسلم فى أن يكتب عنه فأذن له (١) .

ويذكر المؤرخون أن لأهل مصر عن عبد الله بن عمرو بن العاص قرابة مائة حديث . وقد توفى عبد الله بن عمرو فى مصر فى سنة ٦٥ هـ حينما قدم مروان بن الحكم إلى مصر لاستخلاصها من عامل ابن الزبير . ولم يستطع أحد أن يخرج فى جنازته إلى المقبرة لشغب الجند على مروان (٢) .

وقد أخذ عن عبد الله بن عمرو بن العاص كثير من أهل مصر وكانوا يكتبون عنه ما يحدّث .

وإن كان عبد الله بن عمرو هو المعلم الأول فى مصر فقد أخذت مصر دروسا دينية أيضا عن غيره من الصحابة وسمعت أحاديث نبوية من مختلف الصحابة الذين وفدوا إليها عقب الفتح . وسرعان ما أصبحت مصر بعد الفتح مركزا علميا دينيا فى الدولة الإسلامية . وكان الخلفاء

---

(١) انظر ابن عبد الحكم . فتوح مصر (طبعة تورى) ص ٢٥٤ ، ابن سعد : كتاب الطبقات الكبرى ج ٧ ص ١٨٩ ، ابن الأثير : أسد الغابة فى معرفة الصحابة ج ٣ ص ٢٣٣ ، ابن حجر ، الإصابة فى تمييز الصحابة ج ٤ ص ١١٢

(٢) الكندى : الولاة والقضاة ص ٤٦ وخطط المقريزى ج ٢ ص ٣٣٨ .

يوفدون علماء الدين إليها ليفقهوا أهلها وليكونوا مرجعا لهم فى أحكامه وكافة أموره. فمثلا نرى عمر بن الخطاب يبعث إلى أهل مصر حبان بن أبى جبلة ليفقههم[1] ويبعث الخليفة عمر بن عبد العزيز نافعا مولى ابن عمر فقيه أهل المدينة إلى مصر ليعلمهم السنن [2]

وقد تتلمذ على أيدى الصحابة بمصر التابعون الآخذون عنهم. ونلاحظ أن أكثر حملة العلم فى عصر الصحابة كانوا من العرب لأن أكثر الصحابة عرب، فلما قام علماء الصحابة بالتعليم فى الأمصار المفتوحة اشترك العرب وغيرهم فى تلقى العلم عنهم حتى إذا كان عصر التابعين وتابعيهم انعكست الآية فأصبح بعض حملة العلم عربا، وأكثرهم من الموالى وأبنائهم. ويدلنا على ذلك أن الخليفة عمر بن عبد العزيز جعل الفتيا بمصر إلى ثلاثة رجال: رجلان من الموالى ورجل من العرب، فأما العربى فجعفر بن ربيعة، وأما الموليان فزيد بن أبى حبيب وعبد الله بن أبى جعفر. وأظهر بعض العرب إنكارهم ذلك فقال عمر بن عبد العزيز: «ما ذنبى ان كانت الموالى تسمو بأنفسها صعدا وأنتم لا تسمون!»

وقد اشتهر بمصر كثير من العلماء والفقهاء والأئمة المجتهدين. وممن اشتهر بها يزيد بن أبى حبيب وهو أحد الثلاثة الذين فوض إليهم عمر ابن عبدالعزيز أمر الفتيا، وكان يزيد فقيه مصر وشيخها ومفتيها، ولد سنة ٥٢ هـ بمصر وقد أخذ عنه عبد الله بن لهيعة والليث بن سعد وآخرون

(١) السيوطي: حسن المحاضرة ج ا ص ٨١ — ٨٢.
(٢) المرجع نفسه ص ١١٩.

وتوفى يزيد بن أبى حبيب بمصر فى سنة ١٢٨ هـ. ومن علماء مصر ومحدثيها وفقهائها أبو عبد الرحمن عبد الله لهيعة المصرى المتوفى سنة ١٧٤ هـ. وقد ولى ابن لهيعة قضاء مصر عشر سنين (١٥٥ — ١٦٤ هـ) وترك لنا ابن لهيعة مجموعة مدونة من الحديث تعتبر أقدم مجموعة للآن، وهى ضمن مجموعة أوراق البردى بمدينة هيدلبرج.

ومن أشهر علماء مصر وأئمتها ومحدثيها فى صدر الإسلام الليث ابن سعد المصرى المتوفى سنة ١٧٥ هـ. وكان الليث يحسن القرآن والنحو ويحفظ الحديث والشعر وقد اشتغل بالفتوى فى زمانه، وكان يعتبر كبير الديار المصرية ورئيسها وأمير من بها فى عصره بحيث أن القاضى والنائب كانا من تحت أمره ومشورته. وقيل: إن الإمام مالك كتب إليه من المدينة «بلغنى أنك تأكل الرقاق، وتلبس الرّقاق، وتمشى فى الأسواق» فكتب إليه الليث بن سعد: (قل من حرّم زينة الله). وكان الإمام الشافعى يتأسف على فوات لقياه. وتذكر الروايات أن الشافعى قال: «كان الليث أفقه من مالك إلا أنه ضيعه أصحابه».

ومن أقدم علماء الحديث فى مصر أيضا عبد الله بن وهب بن مسلم المصرى المتوفى سنة ١٩٧ هـ وقد رحل ابن وهب إلى الإمام مالك وصحبه، وهو صاحب كتاب «الجامع فى الحديث» وقد عثر على نسخة بردية من هذا الكتاب ترجع إلى القرن الثالث الهجرى.

والمعروف أن أصحاب الكتب الستة المعتمدة فى علم الحديث وهم البخارى، ومسلم وأبو داود، والترمذى، والنسائى، وابن ماجة قد

زاروا مصر فيما زاروه من الأقاليم الإسلامية حوالى القرن الثالث الهجرى ، واعتمدوا على رواية كثير من المصريين ، وكان أحدهم وهو النسائى صاحب « السنن » على صلة وثيقة بمصر فقد عاش فيها فترة طويلة من عمره .

وكان للمصريين شأن واضح فى علم القراءات ، أى العلم الذى يبحث فى أساليب قراءة القرآن وتهجى كلماته وعدد آياته ، وإعجازه وبلاغته ، وقصصه وتاريخ التنزيل . ومن علماء مصر المشهورين حينذاك ورش المقرئ واسمه عثمان بن سعيد المصرى الذى تحدر من أصل قبطى وكان مولى لآل الزبير بن العوام ، وقد لقب بورش لشدة بياضه ، والورش شىء يصنع من اللبن ، وقيل بل ولقبه ورشان وهو طائر معروف . وقد انتهت إليه رياسة القراء بالديار المصرية وكان ماهراً فى اللغة العربية وتوفى سنة ١٩٧ هـ .(١)

ومن أئمة القراءات فى مصر أيضاً أبو يعقوب الأزرق يوسف بن عمرو المصرى وقد لزم أبو يعقوب ورشا مدة طويلة وأتقن عنه الأداء وخلفه فى الإقراء بالديار المصرية وانفرد عنه بتغليظ اللامات وترقيق الراءات . وتوفى أبو يعقوب حوالى سنة ٢٤٠ هـ .(٢)

وقد شعر كثير من التابعين فى الأمصار المختلفة بضرورة الانتقال

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٢ ص ١٥٥ ، والسيوطي : حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٠٧ .

(٢) السيوطي : حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٠٧ .

من جهة إلى أخرى للدرس وتحصيل العلم . فالصحابة العلماء الذين أخذ عنهم أهل الأمصار المختلفة كان بعضهم يزيد على الآخرين فى أشياء وينقص فى أشياء أخرى ، إذ كان بعض الصحابة يغيبون عن مجلس النبي عليه الصلاة والسلام فى بعض الأوقات التى يحضر فيها الآخرون وبالعكس فيفوت كل واحد منهم ما غاب عنه . فلما فتحت البلدان وتفرق الصحابة فى الأقاليم ، أصبح كل إقليم متأثراً بالصحابة الذين علموا فيه . فلما جاء عهد التابعين وتابعيهم شعر كثير منهم بالحاجة إلى التفقه على علماء الأقاليم الإسلامية الأخرى فكثرت الرحلة إلى الأمصار المختلفة . وقد تقابل العلماء فى مختلف الجهات وازدهرت فى ديار الإسلام مراكز عديدة للعلم يفد إليها الطلاب من مختلف الأقاليم الإسلامية . ويقال : إن أول من رحل من أهل مصر إلى العراق فى طلب الحديث هو أبو سعيد عثمان بن عتيق مولى غافق الذى توفى سنة ١٨٤ هـ . وتأثرت مصر بالمذاهب الإسلامية التى ظهرت فى العصر العباسى . ففى ذلك العصر امتزجت العقلية العربية بالعقلية الفارسية واليونانية وارتفع مستوى الثقافة بين العلماء بفضل تشجيع بعض الخلفاء للعلماء والفقهاء والأدباء والشعراء وإقبال نخبة من العلماء على تعريب الكتب الأجنبية ودراستها .

وقد نشأت فى العصر العباسى مذاهب انقرض بعضها فى العصر العباسى نفسه ، ولا يزال بعضها الآخر قائما حتى اليوم . والمعروف أن فريقا من الفقهاء كانوا يغالون فى اتباع الرأى ، وغالى فريق آخر فى اتباع الحديث ، وكان هناك فريق ثالث يتبع طريقا وسطا بين الاثنين . وأهم المذاهب التى ذاعت فى العصر العباسى ، والتى قدر لها البقاء إلى اليوم

مذهب الإمام أبى حنيفة النعمان بن ثابت الذى ولد بالكوفة وتوفى فى بغداد سنة ١٥٠ هـ . ويعد الإمام أبوحنيفة إمام أهل الرأى والقياس ، وكان أشهر من دوّن مذهبه تلميذه أبو يوسف يعقوب بن محمد القاضى (١١٣ — ١٨٣ هـ) [1]

وثانى أئمة المذاهب الأربعة هو الإمام مالك بن أنس الأصبحى الذى ولد بالمدينة المنورة وتوفى بها فى سنة ١٧٩ هـ ، ويمتاز مذهبه باعتماده على الحديث أكثر من أبى حنيفة، ويقال لأصحابه أهل الحديث .

وثالث هؤلاء الأئمة فى القدم الإمام محمدبن إدريس الشافعى القرشى الذى ولد بغزة وتلقى العلم فى مكة والمدينة وبغداد ثم أتى إلى مصر فى سنة ١٩٨ هـ وصنف بها كتبه وكون بها مذهبه الجديد وتوفى بها فى سنة ٢٠٤ هـ وقد جمع الإمام الشافعى بين مذهبى الحديث والرأى .

ورابع هؤلاء الأئمة هو الإمام أحمد بن حنبل الشيبانى الذى ولد ببغداد وتوفى بها سنة ٢٤١ هـ وكان ابن حنبل يغالى فى اتباع الحديث إذ كان يقول ضعيف الحديث أقوى من الرأى .

وبالرغم من أن مذهب أبى حنيفة هو أقدم المذاهب إلا أن مذهب مالك هو الذى دخل مصر أولا فى عصر الولاة وانتشر بها إذ قدم كثير من أصحاب مالك إلى مصر . وكان أول من قدم إلى مصر بفقه وعلم مالك هو عثمان بن الحكم الجذامى ، وعبد الرحمن بن خالد بن يزيد .

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٢ ص ٢١٨ وأحمد تيمور باشا : نظرة تاريخية فى حدوث المذاهب الأربعة ص ٨ — ٩ .

وقد توفيا بمصر سنة ١٦٣ هـ . وكان من أشهر فقهاء المالكية فى هذا العصر أبو عبد الله عبد الرحمن بن القاسم . وقد تفقه ابن القاسم على الإمام مالك وصحبه عشرين سنة وتوفى بمصر سنة ١٩١ هـ . ومن فقهاء المالكية فى مصر فى ذلك العهد أيضا عبد الله بن وهب بن مسلم المصرى الذى توفى فى مصر سنة ١٩٧هـ . ومن مشاهير الفقهاء المالكية فى عصر الولاة أشهب بن عبد العزيز المصرى الذى توفى فى سنة ٢٠٤ هـ بعد موت الإمام الشافعى ، وعبد الله بن عبد الحكم بن أعين بن ليث بن رافع المصرى الذى أفضت إليه رياسة الطائفة المالكية بعد أشهب ، وقد توفى سنة ٢١٤ هـ ودفن بجوار قبر الإمام الشافعى ، وقد أخذ عنه الفقه كثير من أهل مصر ، وممن أخذ عنه بنوه ، محمد بن عبد الحكم ، وعبد الرحمن بن عبد الحكم صاحب كتاب فتوح مصر الذى توفى سنة ٢٥٧ هـ .

أما المذهب الحنفى فيظهر أن أحدا من أهل مصر لم يذهب إليه فى عصر الولاة إلا من كان من قضاتها الذين ولتهم الخلافة . ورغم إيثار الخلفاء العباسيين للمذهب الحنفى إلا أن قضاة مصر فى العصر العباسى لم يكونوا كلهم ممن يتبعون المذهب الحنفى . وهكذا بقى المذهب الحنفى محصورا فى نطاق ضيق ، وظل المصريون يتبعون المذهب المالكى حتى قدم الإمام الشافعى إلى مصر وكون مذهبه الجديد بها . فعندئذ أخذ كثير من المصريين يتبعونه ، ولم يمض قرن من الزمان حتى أصبح المذهب الشافعى منافسا للمذهب المالكى فى مصر .

وكان من أبرز فقهاء الشافعية فى ذلك العصر أبو يعقوب يوسف ابن يحي البويطى . وقد سعى به قاضى مصر ابن أبى الليث الحنفى لدى الخليفة الواثق زمن المحنة بخلق القرآن فحمل البويطى إلى بغداد ولكنه امتنع عن القول بخلق القرآن فسجن ببغداد ومات فى السجن سنة ٢٣١ ه .

وكان من أبرز فقهاء الشافعية حينذاك الربيع بن سليمان بن داود الأزدى الجيزى الذى تتلمذ على الإمام الشافعى وقد توفى بالجيزة فى سنة ٢٥٦ه .

وهكذا! نرى أن المذهبين المالكى والشافعى قد أصبحا متعادلين فى مصر ،أما المذهب الحنفى فكان أقل شأنا منهما ولو أن الخلافة العباسية كانت تؤيده . ولم يكن للمذهب الحنبلى أو المذاهب الأخرى السنية أهمية كبيرة فى مصر الإسلامية . أما عن المذاهب التى لا تعد من مذاهب أهل السنة مثل الشيعة والخوارج وغيرهما من المذاهب فلم يكن لها أثرها إلا فى ظروف سياسية معينة إذ لم يقبل المصريون عليها ولم تعمر طويلا فى وادى النيل . وبالرغم من أنه حكمت مصر فى وقت ما ، دولة شيعية هى الدولة الفاطمية إلا أن التشيع لم يبق بمصر بعد زوال تلك الدولة .

وكان مركز الحركة العلمية الدينية فى مصر وقلبها النابض فى عصر الولاة جامع عمرو بن العاص، مثله فى هذا مثل الأزهر الشريف الآن . فكان جامع عمرو ملتقى العلماء والفقهاء والأئمة ، وإليه يلجأ الناس للاستفتاء ، وإليه يفد الطلاب لتلقى العلوم التى كانت تدرس فى ذلك

الحين ومنه يتخرج خيرة العلماء والفقهاء . وأصبحت مصر مركزاً علمياً هاماً خصوصاً فى أواخر عصر الولاة . فكان يفد إليها الطلبة لتلقى العلم وخاصة من إفريقية والمغرب والأندلس .

ومن علماء إفريقية الذين أخذوا عن المصريين البهلول بن راشد وقد أخذ عن الليث بن سعد وعن غيره من المصريين . وقد توفى البهلول فى سنة ١٨٣ هـ .

ومن علماء الأندلس الذين تلقوا العلم على الفقهاء المصريين فى عصر الولاة عيسى بن دينار إذ صحب ابن القاسم ، وقد انتشر به وبيحيي بن يحي مذهب مالك فى الأندلس . وتوفى عيسى سنة ٢١٢ هـ . فى طليطلة .

وكان لمصر سبق مذكور فى ميدان التصوف . إذ كان من مدرسة عصر الولاة أبو الفيض ثوبان بن إبراهيم المصرى أو الفيض بن إبراهيم المصرى المعروف بذى النون. وقد ولد ذو النون فى إخميم فى صعيد مصر وروى عن الإمام مالك والليث بن سعد وعبد الله بن لهيعة وغيرهم وكان أوحد وقته علماً وورعاً وأدباً وزهداً . ويعد ذو النون من أقطاب الصوفية ، وله فضل كبير فى وضع كثير من التعاليم الصوفية كما نعرفها الآن . وقد أنكر عليه أهل مصر وقالوا : أحدث علماً لم تتكلم فيه الصحابة وسعى به بعض أعدائه لدى الخليفة المتوكل فاستحضره الخليفة من مصر فلما دخل عليه وعظه فبكى المتوكل ورده مكرماً (١) وعاش

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص١٢٦ ، وأبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٣٢٠ — ٣٢١ ، والسيوطي : حسن المحاضرة ج ١ ص ١٢٨ ، والدكتور زكى محمد حسن : مصر والحضارة الإسلامية ص ٢٦ ، وآدم متز : الحضارة الإسلامية ج ٢ ص ١٥ .

ذو النون فى مصر وتوفى فى الجيزة فى سنة ٢٤٥ هـ / ٨٦٠ م ويقال : إنه أول شيخ أعلن اعتناقه العقيدة الصوفية .

وقد كان ذو النون زعيم مذهب الاتصال بالله ويعتبره أصحاب التصوف مؤسس العقيدة الصوفية ويعتبرونه من أقطابهم الأول ، وذلك لأن الصوفية أخذت على يده شكلها الدائم وقد أدخل إليها النظرية القائلة بأن الوجد ، وليس العلم ، هو السبيل الوحيد لمعرفة الله المعرفة الحقيقية .

* * *

وقد بدأت مصر منذ عصر الولاة بالاشتراك فى الحركة الأدبية العربية اشتراكا قويا ، ولا ريب فى أن انتشار اللغة العربية فى مصر ميزة للعرب على غيرهم من الفاتحين ، فإن الشعوب المختلفة التى توالت على مصر قبل العرب لم تستطع القضاء على لغة المصريين . ولم يقف الأمر عند انتشار اللغة العربية بل إننا نجد مصر فى أواخر عصر الولاة تشارك فى الحياة الأدبيه العربية مشاركة تبدو واضحة منذ أواخر القرن الثانى الهجرى فيظهر فيها من له شأن فى العلم باللغة العربية وآدابها . إذ نسمع حين قدوم الإمام الشافعى إلى مصر ، وهو الإمام فى العربية وعلوم الدين ، أنه التقى برجل من أهل مصر يعرف باسم « سرج الغول » وكان هذا الرجل حجة فى اللغة ، وكان الإمام الشافعى شديد الأنس به ، يقول لتلميذه الربيع بين حين وآخر : « ياربيع ادع لى سرجا » ، فيأتى به ويذاكره الشافعى ويناظره ويعجب بغزارة علمه حتى يقول بعد انصرافه :

« يا ربيع نحتاج أن نستأنف طلب العلم » .[1]

ومن نبغ فى مصر فى علوم اللغة والدين فى القرن الثانى الهجرى وبداية الثالث الهجرى أبو عبدالله أحمد بن يحي التجيبي ولاء ، المصرى ، الحافظ النحوى ، وكان من أعلم زمانه بالشعر والأدب والتاريخ وعلوم الدين .

* * *

وقد أنجبت مصر عدداً وافرا من المؤرخين فى العصور الوسطى كان فى طليعتهم فى أواخر عصر الولاة عبد الرحمن بن عبدالحكم الذى توفى سنة ٢٥٧ هـ والذى خلف لنا أقدم مؤلف كتبه مؤرخ مصرى مسلم فى مصر الإسلامية وهو كتاب « فتوح مصر وأخبارها » .

* * *

وكانت الإسكندرية عند الفتح العربى أهم مركز فى الشرق تشع منه الثقافة اليونانية الرومانية . ولسنا نستطيع أن نغفل الحديث عن أمر طالما كثر فيه الجدل ، ذلك هو حريق مكتبة الإسكندرية الذى نسبه بعض المؤرخين إلى عمرو بن العاص ، ونفى مؤرخون آخرون هذه التهمة عن القائد العربى وعن الخليفة عمر بن الخطاب الذى ينسب إليه أنه أمر عامله عمرو بن العاص بأن يحرق المكتبة . وأول من تحدث عن حريق هذه المكتبة هو عبد اللطيف البغدادى المتوفى سنة ٦٢٩ هـ

---

(١) السيوطي : بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة ص ٢٥٢ والأستاذ أمين الخولى : مصر فى تاريخ البلاغة ص ٨ (مجلة كلية الآداب — جامعة القاهرة — المجلد الثانى ج ١ سنة ١٩٣٤ م) .

(١٢٣١ م) فى كتابه « الإفادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر » فقد ذكر أن المكتبة أحرقت بأمر عمرو بن العاص ولكنه لم يذكر عن الحادث أى تفاصيل تجلى غوامضه أما الذى أتى على قصة طويلة فى مناسبة الكلام عن حريق المكتبة فهو أبو الفرج بن هرون الملطى المعروف بابن العبرى وهو مؤرخ ولد فى ملطية ودرس اليونانية والعربية والسريانية ثم اشتغل بالفلسفة واللاهوت ونصب بعد ذلك أسقفا وتوفى سنة ٦٨٥ هـ (١٢٨٦م) . وملخص القصة التى رواها ابن العبرى فى كتابه « تاريخ مختصر الدول » أنه فى زمن فتح العرب لمصر اشتهر فى البلاد رجل اسمه يحيى النحوى (يوحنا غراماطيقوس) وقد اتصل يحيى هذا بعمرو بن العاص بعد فتح الإسكندرية ، وأعجب عمرو بغزارة علمه فقربه إليه . ثم طلب يحيى من عمرو أن يسلمه كتب الحكمة الموجودة فى خزائن الروم ، فأرسل عمرو يستأذن عمر بن الخطاب وكان رد الخليفة : « وأما ما ذكرت من أمر الكتب فإذا كان ما جاء بها يوافق ما جاء فى كتاب الله ففى كتاب الله غنى عنه ، وإذا كان مافيها يخالف كتاب الله فلا أرب لنا فيه وتقدم بإعدامها » . وعندئذ أمر عمرو بن العاص بتوزيع الكتب على حمامات الإسكندرية فما زالوا يحرقونها فى مواقدها ستة أشهر .

وقد أشار إلى حريق مكتبة الإسكندرية أيضاً القفطى المتوفى سنة ٦٤٦ هـ / ١٢٤٨ م فى كتابه « إخبار العلماء بأخبار الحكماء » . وربما كان ابن القفطى وأبو الفرج بن العبرى أخذاها عن البغدادى .

وعلى كل حال فإن الشك فى صحة هذه الرواية قديم . وربما كان

الأفضل بنا الآن أن نلخص فى بضع نقط الجـــدل الذى دار حول هذه المسألة :

أولا : إن اتهام المسلمين بإحراق المكتبة لم يذكره المؤرخون إلا بعد أكثر من خمسمائة سنة مرت على فتح الإسكندرية . وإذا جاز لنا أن نتهم المؤرخين المسلمين المتقدمين أمثال ابن عبد الحكم والبلاذرى واليعقوبى والطبرى بأنهم أحجموا عن الإشارة إلى ذلك تعصبا منهم للمسلمين ــ فلسنا نجد شيئاً نفسر به عدم الإشارة إليها فى كتب المؤرخين المسيحيين مثل حنا النقيوسى الذى كان قريب العهد بفتح الإسكندرية ومثل سعيد بن بطريق (أوتيخا) المتوفى سنة ٣٢٨ هـ . (٩٦٠ م) .

ثانيا : أثبت الدكتور ألفرد بتلر مؤلف كتاب «فتح العرب لمصر» أن يحيي النحوى أحد أبطال هذه القصة مات قبل غزو العرب مصر بزمن طويل .

ثالثا : الواقع أن المكتبتين اللتين قد تشير القصة إلى واحدة منهما أو إليهما معا كانتا قد ضاعتا قبل الفتح العربى بزمن طويل ، فالأولى وهى مكتبة المتحف أتلفتها النار سنة ٤٨ ق. م فى الحريق الذى أحدثه يوليوس قيصر ليرد أعداءه عن أسطوله ، ويؤيد هذا القول المؤرخ اليونانى بلوتارك المتوفى سنة ١٢٥ م وغيره من المؤرخين . أما المكتبة الثانية وهى مكتبة السرابيوم فالعلماء غير متفقين فى أمرها ، ولا يمكن القول يقينا هل نقلت من السرابيوم قبل سنة ٣٩١ م وهى السنة التى اشتد فيها النزاع بين الوثنيين والمسيحيين وحكم الطرفان الإمبراطور

ثيودوسيوس فقضى للمسيحيين واستطاع هؤلاء أن يخربوا السرابيوم وكان حصن الوثنيين المنيع . بل الواقع أن نجاة الكتب غير معقولة بسبب تعصب المسيحيين الثائرين واعتبارهم هذه الكتب كتب الوثنية الضالة . فيمكننا إذن أن نجزم بأن هذه الكتب كان مصيرها الضياع ولاسيما أن أوراسيوس الذى كتب فى سنة ٤١٦ ميلادية ذكر أنه رأى الرفوف أو الصناديق فى السرابيوم فارغة ليس فيها شىء من الكتب ولم يشر إلى وجود أى مكتبة تستحق الذكر فى الإسكندرية .

رابعاً : إذا سلمنا جدلا بأن الإسكندرية كانت تحتوى وقت الفتح الإسلامى على مكتبة كبيرة فإن الهدنة التى عقدت بين المسلمين وأهل الإسكندرية كانت طويلة وكان فى استطاعة القوم أن ينقلوا كنوز هذه المكتبة . ونحن نعلم أن العرب أباحوا للروم نقل ما يريدون من متاع وأموال .

خامساً : إن عناصر القصة تدل على أنها خرافية ولا أثر للتماسك بين أجزائها المختلفة ، من ذلك تفريق الكتب على الحمامات المختلفة واتخاذها وقوداً مدة ستة شهور. فإن القائد الذى يأبى إعطاءها لصديقه ويريد حرق الكتب تنفيذاً لأمر الخليفة ، يحرقها حيث هى أو يشرف على هذه العملية على أقل تقدير ، ولا يدفع الكتب إلى الحمامات حيث يمكن أصحابها أن يبيعوها للناس بثمن بخس . ثم إن أكثر هذه الكتب كانت مكتوبة على الرق ، والرق لا يصلح للوقود وليس من المعقول أن يكفى الباقى مدة ستة أشهر وقوداً لأربعة الآلاف حمام التى زعم العرب وجودها فى الإسكندرية .

سادساً : إن الذين يؤيدون دعوى اتهام المسلمين بحرق المكتبة ، بأنهم حرقوا مكاتب الفرس عند الفتح لا يستطيعون أن يأتوا على هذا الزعم الثانى بأى دليل من المؤرخين الأقدمين .

سابعاً : إن الاحتجاج بأن رواية حريق المسلمين للمكتبة لم يذكرها ابن العبرى فقط ، وقد يطعن فى قوله بالتعصب ، بل رواها مؤرخان مسلمان هما عبد اللطيف البغدادى وابن القفطى ، هذا الاحتجاج ليس قوياً لأن هؤلاء المؤرخين عاشوا كلهم فى القرن السابع الهجرى (١٣م) ، ولعلهم ، ثلاثتهم ، أخذوا عن مصدر مشترك كان متعصباً ضد الإسلام ولم يصل إلينا . أو لعلهم صدقوا الروايات التى كانت تتناقلها الألسن والتى لم يكن الغرض منها إلا الطعن ضد المسلمين فضـــلا عن أن عبد اللطيف لم يشر إلى المسألة إلا عرضاً عند كلامه على عمود السوارى.

ثامناً : إن التعاليم الإسلامية تحترم الديانات السماوية وإن المسلمين لم يكونوا ليقدموا على هذا العمل ولا سيما أن من شروط الصلح أن تترك للمسيحيين الحرية الدينية وألا يتدخل المسلمون فى شئونهم ، وحرق المكتبة يعتبر خرقا لهذه الشروط لأنه لا شك فى أنها كانت تحتوى على كتب دينية كثيرة .

وهكذا ننتهى إلى أن مكتبة الإسكندرية حرقت منذ عهد يوليوس قيصر سنة ٤٨ ق . م ثم حرقت بعد ذلك بنحو أربعمائة سنة حين اشتد النزاع بين الوثنية والمسيحية ،وقضى الإمبراطور ثيودوسيوس بالقضاء على المعابد الوثنية .

ومع ذلك كله فإن فى التاريخ أمثلة عديدة تثبت أن إحراق الكتب لم يكن فى يوم من الأيام وقفا على شعب من الشعوب أو أتباع ديانة من الديانات ، فالصليبيون أحرقوا الكتب فى طرابلس الشام فى القرن الثالث عشر ، والأسبان أحرقوا الكتب العربية بعد أن طردوا العرب من الأندلس ،وكذلك أحرق الفرنسيون الكتب التى وقعت فى أيديهم عندما فتحوا مدينة قسطنطينة فى تونس ، وليس ببعيد أيضاً مافعله الألمان قبيل الحرب الأخيرة بالكتب التى ألفها اليهود أو الاشتراكيون أو الشيوعيون .

ومهما يكن من الأمر ، فإن الفتح العربى لم يقض على الحياة العلمية فى الإسكندرية ولا سيما فى العلوم العقلية ، وذلك بالرغم من أن معظم علماء الروم غادروها بعد الفتح . وحسبنا دليـــلا على النشاط العلمى فى الإسكندرية فى عصر الولاة ما ذكره ابن النديم فى الفهرست من أن خالد بن يزيد بن معاوية حينما أراد تعلم الكيمياء أمر باحضار جماعة من فلاسفة اليونانيين الذين كانوا يقيمون بمصر ولهم إلمام باللغة العربية وطلب إليهم نقل كتب الصنعة (الكيمياء) من اليونانية والقبطية إلى العربية ، فكان هذا أول نقل إلى العربية فى الإسلام .

كذلك ذكر ابن أبى أصيبعة[1] أنه كان فى الإسكندرية زمن الفتح طبيب اسمه ابن أبجر وكان يدرس بها ، وكان عمر بن عبد العزيز يعتمد عليه فى صناعة الطب حين كان أميرا وبعد أن صار خليفة . كذلك أرسل

---

(١) طبقات الأطباء (القاهرة سنة ١٢٩٩ هـ) ج ١ ص ١٦٦ .

الخليفة هارون الرشيد فى طلب بليطيان أحد علماء الإسكندرية المشهورين لتطبيب جارية له .

وقد احتذى حنين بن إسحق ، طبيب بغداد الذى عاش فى القرن الثالث الهجرى، حذو الإسكندريين فى التأليف . لكن يظهر أن مدرسة الإسكندرية أخذ شأنها يقل بعد ذلك ، فإن الأقباط لم يعنوا عناية كبيرة بدراسة الثقافة اليونانية الرومانية . أما العرب والأقباط الذين أسلموا فقد أقبلوا على دراسة العلوم الإسلامية الدينية . ولعل بعض المصريين المسلمين أقبلوا على دراسة الثقافة اليونانية ، فيذكر ابن النديم فى الفهرست أن ذا النون المصرى كان من الفلاسفة الذين تكلموا فى علم الصنعة (الكيمياء) .

والواقع أنه إن كان لمصر فى عصر الولاة نصيب فى حفظ تراث اليونان والمسيحية الشرقية أو نقله إلى الغرب ، فإنما هو فى تركها علماء الروم يغادرون مصر بمؤلفاتهم وكتبهم زمن الفتح ، وفى عدم تعرضها لمدرسة الإسكندرية أو للأديرة التى كانت مراكز الثقافة المسيحية فى مصر .



خاتمة فى عصر الولاة

تبوأت مصر مركزاً ممتازاً فى الدولة الإسلامية عقب الفتح العربى ذلك لثروتها وخيراتها الوفيرة ولموقعها العـــالمى الممتاز . وقد بلغ من اهتمام الخلفاء بأمرها أنهم كانوا يولونها أحياناً أبناءهم أو أخواتهم أو أفراداً من البيت الخليفى القائم بالحكم .

وقد كانت مصر كالمرآة تنعكس عليها الحركات السياسية والدينية التى تحدث فى دار الخلافة ، كما كانت قبلة أنظار الشخصيات الطامحة إلى منصب الخليفة .

وبالرغم من أنه نشأت فى مصر فتن وخلافات دينية عديدة منذ أيام دقلديانوس حتى الفتح ، وبالرغم من أنه نشأت فى الإسلام بدع ونحل وفتن دينية كثيرة ، إلا أن مصر بعد الفتح العربى أقبلت على اعتناق الإسلام خالصاً ، ولم يكن لأهل البلاد من المصريين يد فى إثارة الخلافات الدينية التى قامت فى العالم الإسلامى . وإن كان قد أثير فى مصر بعض الفتن فقد كان هذا نتيجة لتأثرها بحوادث الخلافة وسرعان ما كانت تعود الحياة ثانية إلى مجاريها .

ويشبه التقسيم الإدارى فى العصر الإسلامى التقسيم الذى كان معروفاً فى العصر الرومانى اليونانى ولكنه لم يكن مماثلا له كل المماثلة . كذلك نلاحظ أن النظام البيروقراطى ، وبعبارة أخرى النظام الديوانى الذى كان سائداً فى الإدارة المصرية قبل الفتح أثر فى العرب ، فكانت الإدارة مركزة فى دواوين الحكومة بالعاصمة وأهمها ديوان الخراج والأموال ، وديوان الرسائل والإنشاء ، وديوان الجند ، وديوان القضاء .

والمعروف أن الوثائق البردية العديدة التى اكتشفت حديثاً تقدم دليلا مادياً على وجود نظام بيروقراطى استمده العرب من البيزنطيين .

ويظهر أن مصر العليا ومصر السفلى كانا إقليمين منفصلين من الوجهة الإدارية ومع ذلك فإن أصحاب الكورات كانوا خاضعين مباشرة لوالى البلاد . والظاهر بوجه عام أننا نعرف عن كبار الموظفين فى العصر الإسلامى من الوجهة النظرية عامة أكثر مما نعرف عن حقيقة الأداة الحكومية الفعالة .

ونلاحظ أن الغرض الأساسى للإدارة كان ينطوى على جمع الضرائب واستثمار الأرض واستغلال الفلاح كما كانت الحال فى العهد البيزنطى .

وكان العامل على الصلاة ، والعامل على الخراج ، متساويين فى الحقيقة على الرغم من أن الأول كان رئيس الهيئة التنفيذية فى القطر بل حدث فى كثير من الأحيان أن كان صاحب الخراج أعظم نفوذاً من الوالى ، وأحياناً كان الوالى يجمع بين المنصبين ، وفى الواقع لم تكن سلطة الوالى مطلقة فى ولايته على مصر ، بل كان يحد منها نفوذ العامل على الخراج ، ونفوذ الجند ، ونفوذ الموظفين ، ونظراً لأهمية منصب العامل على الخراج فقد كان الوالى يسعى دائماً إلى أن يضاف إليه اختصاص هذا المنصب ليصبح والياً على الصلاة والخراج معاً ولم يكن فى الجمع بين هذين المنصبين بأس ما دامت الحكومة المركزية فى مقر الخلافة قوية مرهوبة الجانب . ولكن عندما تطرق الضعف إلى الخلافة العباسية أصبح الجمع بين هذين المنصبين أكبر عون على استقلال الوالى وتفكك الإمبراطورية ، فنرى ابن طولون يتنازع مع ابن المدبر

صاحب خراج مصر ، ولم يبدأ استقلاله إلا بعد تخلصه من ابن المدبر .

والظاهر أن العرب وجدوا فى مصر عند الفتح نظاما زراعيا وماليا لم يستطيعوا تركه تماما . وكان هذا النظام يبعدهم إلى حد كبير عن الاتصال بالفلاحين ودافعى الضرائب مباشرة . وكان قوام هذا النظام طائفة من الأعيان وكبار الملاك الذين كانوا يدفعون أو يضمنون دفع الضرائب عن مساحات زراعية كبيرة ، بينما كان الفلاحون أنفسهم مرتبطين بالأرض إلى حد كبير جداً ، وكانوا لا يغيرون مقرهم إلا بترخيص . ولسنا نعرف تماما هل أخذ الموظفون يحلون محل هؤلاء الملاك فى جمع الضرائب ، وإلى أى حد وبأية سرعة تم هذا التغيير . ومن الراجح أن هؤلاء ظلوا يضمنون دفع الضرائب ولكن أخذ العرب يحلون محلهم تدريجياً فى امتلاك الأرض وضمان الخراج ، وقد كان فلاحو القرية متضامنين فى الضرائب التى تفرض عليهم ، وكان لا يجوز لهم الهجرة من مقرهم إلا بإذن من الحكومة . وقد اتخذت الحكومة فى بداية العصر الإسلامى إجراءات شديدة لمنع الهجرة من كورة إلى أخرى ، ولكشف المهاجرين وإعادتهم ، أوالإذن لهم بالاستقرار فى مقرهم الجديد ضماناً لحسن سير فلاحة الأرض وجمع الضرائب ، كما كان لا يجوز نقل المحاصيل أو المنقولات من مكان إلى آخر إلا بتصريح ، ويدل على ذلك أمثلة عديدة فى أوراق البردى .

ويبدو من المصادر الإسلامية والمسيحية فى تاريخ عصر الولاة أن الهدف الرئيسى الذى كان يعنى به العرب هو الجزية التى كانوا يجمعونها من القبط . ويظهر أن الإدارة المالية كانت معقدة وأن الذين

كانوا يفهمونها أكثر من غيرهم هم الموظفون القبط . ويمكننا القول بأن دخل البلاد قبل الدولة الطولونية كان يذهب إلى بيت مال الخلافة أو جيوب الولاة وعمال الخراج بدون أن تفيد مصر نفسها شيئاً كثيراً . ولما كانت البلاد فى مصر فى عصر الولاة لا تحكمها أسرة تحرص على ازدهارها ، فلم تكن من الوجهة المالية إلا شبه مزرعة تستغل بدون كبير رعاية لازدهارها أو قدرتها على الإنتاج إذ كان غرض الخلافة الأساسى هو جباية أكبر دخل ممكن

وقد ترك العرب للمصريين أراضيهم وأمنوهم عليها وفرضوا عليها الخراج . ولم تكن أرض مصر فى بداية هذا العصر أرض خراج فحسب ، بل نشأت فيها أرض العشر ، إما قطيعة منحت لبعض المسلمين ، أو أرض حصلوا عليها من الحكومة أو القبط بطريق الشراء ، أو أرض موات احتلوها . كذلك كان القبطى الذى يعتنق الإسلام تصبح أرضه عشرية . ولكن نجد أنه بمضى الوقت أصبحت أرض مصر كلها يفرض عليها الخراج دون النظر إلى مالكها سواء أكان قبطياً أم مسلماً ، ولا نعرف متى كان هذا التحول بالضبط ، والراجح أنه كان فى العصر العباسى . وكان أول ثورة للعرب بسبب زيادة الخراج زيادة مجحفة زمن الخليفة العباسى المهدى (١٥٨ — ١٦٩ هـ) حين كان موسى بن مصعب الخثعمى واليـــا على مصر (١٦٧ — ١٦٨هـ)

ولا بد أن بعض ولاة مصر وعمال خراجها وبعض الموظفين فيهـا تمـكنوا من الإثراء وجمع الأموال الطائلة ، وخاصة فى العصر العباسى ،

حين كثر تولية العمال وعزلهم . ولا نعرف هل كان الولاة فى هذا العصر يلزمون بعض الموظفين والأثرياء بدفع ثرواتهم أو جزء كبير منها إلى خزانة الدولة ثانية ، كما كان يحدث فى عصر الطولونيين والإخشيديين ، رغم أن هذه السياسة كانت معروفة جداً فى مقر الخلافة فى القرن الثالث الهجرى ولا سيما فى حالة الوزراء حين عزلهم . وربما كانت مثل هذه المصادرات مألوفة فى عصر الولاة المستقلين من الطولونيين والإخشيديين رغبة منهم فى تنمية ثرواتهم الخاصة .

ولم يكن للمصريين فى عصر الولاة حق الاشتراك فى الجيش فكان رجال الجيش النظامى ورجال الأسطول من العرب . ولكن كانت هناك فرق غير نظامية مثل المطوعة ، وربما كان أغلبهم من المصريين . كذلك كان يجمع من أنحاء القطر مساعدون وأعوان وفقاً لنظام الالتزامات أو الليتورجيا . ولا ينفى هذا ما ذكرناه من أن المصريين لم يشتركوا فى صلب الجيش إذ كانوا يقومون بأدوار ثانوية ، كما أنهم لم يثبتوا فى ديوان الجند ولم يصرف لهم العطاء الذى كان يصرف للفرق النظامية . ونجد أن العنصر العربى فى الجيش والأسطول يقل ابتداء من العصر العباسى لإقباله على وظائف الإدارة أو على الزراعة والتجارة ، ويصبح قوام الجيش من الفرس أولا ثم الترك ثانياً حتى أتى المعتصم فى بداية القرن الثالث الهجرى فأمر بإسقاط العرب نهائياً من الديوان .

وكانت أهم ظاهرة تاريخية فى عصر الولاة هى ظاهرة تمصير العرب وتعريب مصر ونشر الإسلام فيها . ونلاحظ أن تعريب مصر وانتشار الإسلام فيها ليسا مترادفين . وقد ظل الإسلام ينتشر فى مصر إلى عصر

المماليك . وحدث فى عصر الناصر محمد بن قلاوون منذ سنة ٧٢٠ هـ (١٣٢٠ م) أن دخل المسيحيون أفواجاً فى الدين الإسلامى على أثر سلسلة من المشاغبات والفتن بين المسلمين والأقباط والظاهر أن حياد الحكومة نفسها وهدوء موقفها إزاء القبط لم يمنع الشعب نفسه من أن يسىء معاملة القبط فى بعض الأحيان . ونرى أن التضييق على أهل الذمة بالزام أنواع خاصة من الملابس ، وبتحريم ركوب الخيل أو إنشاء كنائس جديدة ، لم يكن يراعى إلا فترات قصيرة جداً ثم يهمل شأنه ، وربما كان غضب المسلمين بين حين وآخر لإهمال هذه الالتزامات هو الذى كان يدفع الحكومة إلى العمل على تنفيذها فى فترات معينة . والظاهر أن الدواوين كانت غاصة بالموظفين القبط إلى عصر المماليك مما كان سبباً فى قيام عدة ثورات فى هذا العصر (٨ هـ و ١٤ م) أشار إليها المقريزى فى خططه ، وكان المسلمون يهدفون بهذه الثورات إلى إخراجهم من الدواوين ، وكانت الحكومة نفسها تعمل على حماية أهل الذمة تمسكا بروح الدين وما يقضى به من التسامح ، وضماناً لحسن سير الأعمال العامة ، ولكنها كانت تضطر أحياناً إلى التقرب إلى بعض طبقات الشعب بالسكوت على بعض الحركات الاضطهادية ضد المسيحيين أو الاشتراك فيها .

وقد رأينا فى عصر الولاة أنه كان هناك مصانع حكومية للنسج (طراز الخاصة) ومصانع حكومية أو أهلية تراقبها الحكومة (طراز العامة) . وكانت الحكومة فى عصر الولاة بل وإلى العصر الفاطمى تحصل على معظم حاجتها من مصانعها الخاصة ، بينما أصبحت فى عصر

المماليك تعتمد على المصانع الأهلية العامة .

ولا نعرف إذا كانت التجارة الخارجية فى عصر الولاة مع أقاليم البحر الأبيض المتوسط ظلت على ما كانت عليه فى العصر الرومانى اليونانى ، أم أخذت فى النمو والزيادة تمهيداً للازدهار الذى وصلت إليه فى عصر الأيوبيين والمماليك . والظاهر أن تجارة الهند لم تصبح مصدراً كبيراً لثروة ذوى الأمر فى مصر إلا منذ الدولة الأيوبية . ويبدو أن المصريين أنفسهم لم يساهموا فى النشاط التجارى الخارجى إلا بقدر ضئيل ، ولعل هـذا يرجع إلى عدم إقبال المصريين بوجه عام على التجارة منذ العصور القديمة . ويرجح أن معظم التجار فى عصر الولاة كانوا من الخارج مثل أسرة الماذرائيين العراقية ، التى اشتهرت قبيل العصر الطولونى وظلت واسعة النفوذ ورفيعة المكانة إلى العصر الإخشيدى . وكان لليهود شأن عظيم فى التجارة فى ذلك العصر .

ولا نعرف إذا كانت مصر فى عصر الولاة قد عرفت نظام احتكار بعض البضائع أو الحاجيات ، اللهم إلا إذا استثنينا ما فعله ابن المدبر فى نهاية هذا العصر من الحجر على النطرون بعد أن كان مباحا لكل الناس ، كذلك أدخل ابن المدبر المراعى ، أى الكلأ الذى ترعاه الدواب ، فى الديوان ، وحرم على الناس أن يبيعوا المراعى أو يشتروها إلا من الديوان .

وقد احتفظت مصر فى هذا العصر من الناحية الفنية (العمارة والفنون الزخرفية) بكيانها الخاص ، وكان التحول إلى الروح الإسلامية فى هذه الفنون تحولا بسيطاً . ويعتبر عصر الولاة عصر الانتقال من الأساليب

الفنية القبطية إلى الأساليب الفنية العباسية التى سادت مصر فى العصر الطولونى .

ومن المدن التى اشتهرت فى عصر الولاة مدينة الفسطاط عاصمة مصر ومقر حكومتها ، ومدينة الإسكندرية عاصمة مصر الثانية وميناؤها الهام ومقر البطركية . ومن المدن الهامة أيضاً فى هذا العصر تنيس ودمياط وبورة وتونة ودميرة ودبيق وشطا وأهناسيا والبهنسا وأسيوط وأخميم والفيوم ، وكلها تدين فى شهرتها للصناعات وخاصة صناعة النسج . كذلك اشتهرت منطقة البشمور بثوراتها المتعددة وخاصة تلك الثورة التى انتهت بمجىء الخليفة المأمون إلى مصر .

وقد حدثت فى عصر الولاة مجاعات كالتى حدثت فى العصور التى تلتها مثل العصر الإخشيدى والفاطمى والأيوبى وعصر المماليك . ونلاحظ أن المجاعات التى حدثت فى مصر منذ العصور القديمة يرجع معظمها إلى نقص مياه النيل نقصاً يضر بالزراعة أو زيادته زيادة تضر بها ، ولما كانت ثروة مصر الرئيسية تتوقف على الزراعة ، كان يترتب على الإضرار بالزراعة غلاء ومجاعات . ولا نكاد نسمع أن المجاعات التى حدثت فى عصر الولاة ، والثورات القبطية ، والفتن الداخلية ، قد أثرت فى رخاء مصر وثروتها تأثيراً بليغاً ، ولعل ذلك راجع إلى خصوبة أرض مصر ، وإلى تباعد تلك الظروف ، فضلا عن أن المجاعات التى حدثت فى مصر لم تستمر مدة طويلة بحيث تؤثر فى كيان مصر الاقتصادى .

ونلاحظ أن مصر فى عصر الولاة أصبحت مركزاً علمياً هاماً فى

الدولة الإسلامية . وكان جامع عمرو بن العاص مقر العلوم الدينية الإسلامية فى مصر وملتقى العلماء . وكان علماء مصر أساتذة لعلماء إفريقية والأندلس بوجه خاص .

وقد رأينا أن الشعور الوطنى بين المصريين كان ضعيفاً فى عصر الولاة ، فلم يكن فى ثورات القبط ضد حكومة العرب عنصر وطنى بل كانت كلها بسبب الضرائب . ولعل ضعف هذا الشعور الوطنى كان أكبر عون للعرب للقضاء على حركات القبط وعلى دفعهم إلى اعتناق الدين الإسلامى وإلى استعمال اللغة العربية .

وقد كانت الحالة فى مصر بعكس إيران مثلا . فلا نعرف فى مصر حركة شعوبية كما كان فى شرقى العالم الإسلامى . ففى عهد الدولة العباسية التى قامت على أكتاف الفرس ، بدأ هؤلاء يتكلمون ويكتبون ويناقشون العرب ويعددون مزايا الفرس وقد عرفت هذه المناقشات الأدبية بين الشعراء والأدباء من العرب والعجم باسم حركة الشعوبية . فكان العجم يقولون بالتسوية بين المسلمين جميعاً ولذا عرفوا بالشعوبية أو أهل التسوية ، ولما اشتد الجدال بين العرب والعجم أصبح الشعوبى هو الذى يصغر من شأن العرب ولا يرى لهم فضلا على العجم . وهذه الحركة وإن كانت مناقشات كلامية ومساجلات أدبية بين العرب والعجم إلا أنها تعبر عن تمسك الإيرانيين بتراثهم الوطنى ، وعن ثورتهم على سيادة العرب التى قضت على ملك كسرى وقضت على استقلال الفرس وهم شعب ذو حضارة عتيدة ، كما أنها تشهد بأن الروح الوطنية بين الفرس لم تمت بفتح العرب لبلادهم . وعندما شعر الفرس بقوتهم منذ

قيام الدولة العباسية وبضعف العرب قاموا بحركات مختلفة تدعو الناس إلى اتباع نحل غريبة على الدين الإسلامى ، ولم تكن هذه الحركات فى الحقيقة سوى حركات سياسية دينية إيرانية ترمى إلى إقامة دولة فارسية تعود إلى التقاليد القديمة وتتخلص من العرب ولغتهم ودينهم . وقد قامت فى إيران حين ضعفت الدولة العباسية أسرات إيرانية مثل أسرة بنى طاهر بخراسان والأسرة الصفارية بإقليم فارس الذى يقع شرقى الخليج الفارسى ودولة بنى ساج فى آذربيجان والدولة السامانية فى إقليم ما وراء النهر .

أما فى مصر فإن الأسرات التى قامت فيها كانت أجنبية عنها مثل الطولونيين والإخشيديين والفاطميين والأيوبيين والمماليك . وقد ظل الروح الوطنى قائماً فى إيران حتى أمكن قيام شاعر وطنى مثل الفردوسى الذى نظم الشاهنامة باللغة الفارسية الحديثة فى القرن الرابع الهجرى ، بينما نجد فى مصر أن رجال الدين الأقباط اضطروا منذ القرن الرابع الهجرى إلى الكتابة باللغة العربية وإلى مخاطبة أبناء دينهم بها بعد أن أصبحت لغة التخاطب بينهم . وكانت مصر خاضعة خضوعا تاما للخلافة طالما كانت الخلافة قوية الجانب . ولكن بدأ الضعف يدب فى جسم الخلافة العباسية فى أثناء النزاع بين الخليفة الأمين وأخيه المأمون . وما لبث أن وضح ذلك الضعف بعد أن استعان الخليفة المعتصم فى حكم الدولة بالأتراك الذين تحكموا فى شئون الدولة المدنية والحربية حتى أصبح بيدهم منذ خلافة المتوكل على الله (٢٣٢ — ٢٤٧ هـ) انتخاب الخلفاء وعزلهم ولذا نجد أن النزعة إلى الاستقلال تظهر فى مصر واضحة جلية فى

أثناء النزاع بين الأمين والمأمون وكان يمثل هذه النزعة السرى بن الحكم وعبد العزيز الجروى وأولادهما .

على أن أحمد بن طولون الذى قدم إلى مصر فى سنة ٢٥٤هـ واليا على الصلاة من قبل باكباك صاحب أقطاعها ، وجد مصر ولاية إسلامية تامة التكوين ، ووجد الخلافة ضعيفة ، ولا سيما بسبب ثورة الزنج ، فسرعان ما تحدى سلطة الخلافة واستقل بمصر استقلالا فعلياً فى الواقع واسمياً فى الظاهر ، بل إنه نجح فى ضم سورية إلى مصر وفى تأسيس دولة طولونية دامت نحو ٣٨ عاما وكانت هذه أول مرة تستقل فيها مصر الإسلامية .



البحر الأبيض المتوسط

مصر السفلى

زمن الفتح العربي

الإسكندرية

البحيرة

قرطسا

سمنود

ثافوس

قناة سترابان

بحيرة التمساح

الفرما

عين شمس

منف

خليج السويس

نقلا عن كتاب الأمير عمر طوسون: Géographie de l'Egypte à l'Époque Arabe

مصر السفلى
في القرن الثالث الهجري

البحر الأبيض المتوسط

البرلس

بحيرة البرلس

الإسكندرية

البحيرة

قرطسا

الفرما

قناة تراجان

بحيرة التمساح

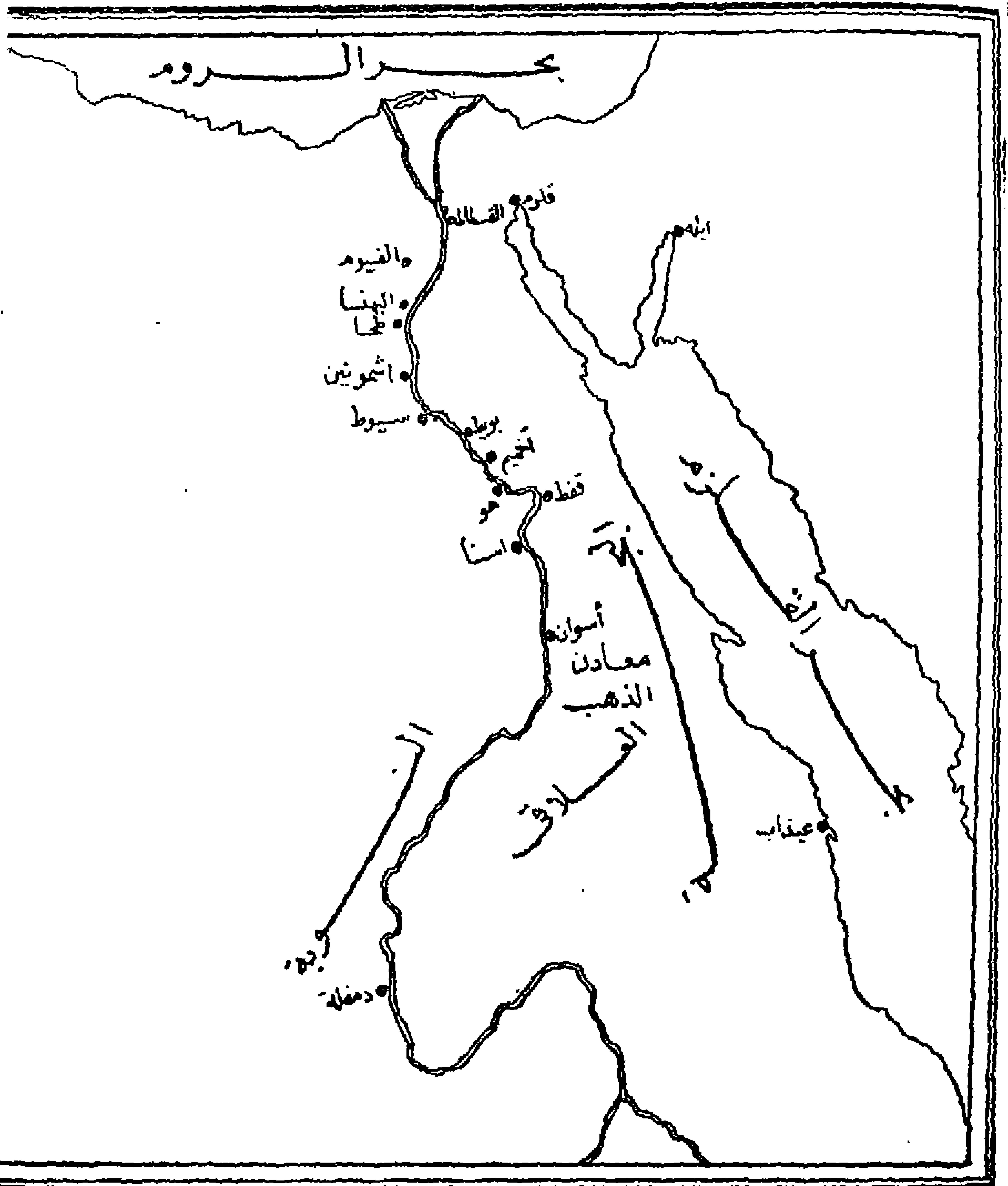
بلبيس

الفسطاط

خليج السويس

La Géographie de l'Égypte a l'Époque Arabe نقلا عن كتاب الأمير عمر طوسون

مصر العليا
في العهد العربي



المراجـــع

١ — المصادر القـديمة

١ — ابن الأثير (المتوفى ٦٣٠ هـ، ١٢٣٢ م): «الكامل فى التاريخ»، ١٢ جزءاً. ليدن ١٨٦٦ — ١٨٧٤ م.

٢ — ———— : «أسد الغابة فى معرفة الصحابة»، ٥ أجزاء. القاهرة ١٢٨٥ — ١٢٨٦ هـ.

٣ — الأزرقى (ت ٢٠٤ هـ / ٨١٩ م أو ٢١٩ هـ/ ٨٣٤ م أو ٢٢٣ هـ/ ٨٣٨ م):
«أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار» جزءان. المطبعة الماجدية بمكة المكرمة. ١٣٥٢: ١٣٥٧ م.

٤ — ابن أبى أصيبعة (ت ٦٦٨ هـ / ١٢٦٩ — ١٢٧٠ م):
«طبقات الأطباء» جزءان. القاهرة ١٢٩٩ هـ.

٥ — البلاذرى (ت ٢٧٩ هـ / ٨٩٢ — ٨٩٣ م): «كتاب فتوح البلدان» ليدن ١٨٦٦ م.

٦ — بيبرس الدوادار (ت ٧٢٥ هـ / ١٣٢٥ م): «زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة» الجزء الرابع مخطوط رقم ٢٤٠٢٧ بمكتبة جامعة القاهرة.

٧ — حاجى خليفة (ت ١٠٦٧ هـ / ١٦٥٧ م): «كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون» ٧ أجزاء. ليبزج - ليدن ١٨٣٥-١٨٥٨ م

٨ — ابن حجر العسقلانى (ت ٨٥٢هـ/١٤٤٨—١٤٤٩م) : «الإصابة فى تمييز الصحابة» ٨ أجزاء . القاهرة ١٣٢٣ — ١٣٢٥ هـ .
٩ — حنا النقيوسى (ت أواخر القرن الأول الهجرى/ السابع الميلادى). «تاريخ»

Chronique de Jean, évêque de Nikiou, Texte Ethiopien publié et traduit par M.H. Zotenberg (Notices et extraits des Manuscrits de la Bibliothèque Nationale et autres bibliothèques. t. 24. Paris 1883).

١٠ — ابن خرداذبة (ت حوالى ٣٠٠ هـ/ ٩١٢م) : «كتاب المسالك والممالك» (المجلد السادس من مجموعة المكتبة الجغرافية) . ليدن ١٨٨٩م .
١١ — ابن خلدون (ت ٨٠٨هـ/ ١٤٠٥ - ١٤٠٦م) : «العبر وديوان المبتدأ والخبر» ٧ أجزاء ، القاهرة ١٢٨٤ هـ .
١٢ — ———— : «المقدمة» . القاهرة ١٣٤٨ هـ - ١٩٣٠ م .
١٣ — ابن خلكان (ت ٦٨١ هـ/ ١٢٨١م): «وفيات الأعيان» جزءان القاهرة ١٢٩٩ هـ.
١٤ — ابن الداية (ت ٣٣٠ هـ/ ٩٤١ م أو ٣٣٤ هـ/ ٩٤٥م أو ٣٤٠هـ/ ٩٥١) : «سيرة أحمد ابن طولون» . برلين ١٨٩٤ م ، والسيرة فى المغرب فى حلى المغرب لابن سعيد الاندلسى نشر الدكتور زكى محمد حسن ، الجزء الأول من القسم الخاص بمصر . مطبعة جامعة القاهرة ١٩٥٣
١٥ — الشريف الأدريسى (ت ٥٦٠هـ/ ١١٦٤ - ١١٦٥ م) : «صفة المغرب وأراضى السودان ومصر والأندلس مأخوذة من كتاب نزهة المشتاق فى إختراق الآفاق» . ليدن ١٨٦٤ - ١٨٦٦ م .

١٦ ـ ابن دقماق (ت ٨٠٩ هـ / ١٤٠٦ — ١٤٠٧ م) : « كتاب الانتصار لواسطة عقد الأمصار » الجزء الرابع والخامس. بولاق ١٣٠٩ هـ.
١٧ ـ الدينورى (ت ٢٨١ هـ / ٨٩٤م أو ٢٩٠ هـ / ٩٠٣) : « الاخبار الطوال » . القاهرة ١٣٣٠ هـ .
١٨ ـ ابن رسته : « الأعلاق النفيسة » (الجزء السابع من مجموعة المكتبة الجغرافية) . ليدن ١٨٩١ — ١٨٩٢ م .
١٩ ـ ساويرس بن المقفع (ت أواخر القرن ٤ هـ/أواخر القرن ١٠م): سير الآباء البطاركة (الجزء الأول والخامس والعاشر من مجموعة Patrolgia Orientalis . باريس ١٩٠٧ ، ١٩١٠ ، ١٩١٥ .
٢٠ ـ ابن سعد كاتب الواقدى (ت ٢٣٠ هـ / ٨٤٥ م) : « الطبقات الكبير » ٨ أجزاء . ليدن ١٩٠٥ — ١٩٢١ م .
٢١ ـ سعيد بن بطريق : المعروف باسم أوتيخا (ت ٣٢٨ هـ / ٩٤٠م) « كتاب التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق» جزءان . بيروت ١٩٠٥ ، ١٩٠٩م .
٢٢ ـ السيوطى (ت ٩١١ هـ / ١٥٠٥ م) « تاريخ الخلفاء » : القاهرة ١٣٥١ هـ .
٢٣ ـ ———— : حسن المحاضرة : جزءان . القاهرة ١٣٢٧ .
٢٤ ـ ابن شاكر الكتبي (ت٧٦٤ هـ / ١٣٦٢م) : « فوات الوفيات» جزءان . القاهرة ١٢٩٩ هـ .

٢٥ - أبو صالح الأرمني : « تاريخ » المعروف بكنائس وأديرة مصر طبعة . Evetts . أكسفورد ١٨٩٥ م .

٢٦ - الاصطخري، « كتاب مسالك الممالك » : (الجزء الأول من المكتبة الجغرافية) ليدن ١٩٢٧ م .

٢٧ - ابن طباطبا المعروف بابن الطقطقي : « الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية » الطبعة الثانية — مطبعة المعارف بمصر .

٢٨ - الطبري (ت ٣١٠ هـ / ٩٢٢ م) : « تاريخ الأمم والملوك » ١١ جزءاً — الطبعة الأولى بالمطبعة الحسينية المصرية .

٢٩ - ابن عبد الحكم (ت ٢٥٧ هـ / ٨٧٠ - ٨٧١ م) : « فتوح مصر وأخبارها » طبعة توري Torrey ، نيوهافن ١٩٢٢م وطبعة هنري ماسيه Henri Massé المعهد العلمي الفرنسي . القاهرة ١٩١٤ م

٣٠ - ابن العميد المعروف بالمكين (ت ٦٧٢ هـ / ١٢٧٣ - ١٢٧٤ م) . تاريخ المسلمين » ليدن ١٦٢٥ م .

٣١ - أبو الفدا (ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣١ - ١٣٣٢ م) : « المختصر في أخبار البشر » ٤ أجزاء . الطبعة الأولى بالمطبعة الحسينية ١٣٢٥ هـ

٣٢ - ابن فرحون (ت ٧٩٩ هـ / ١٣٩٦ - ١٣٩٧ م) : « كتاب الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب » . القاهرة ١٣٢٩ هـ .

٣٣ - ابن الفقيه (ت أواخر القرن ٣ هـ / أوائل ١٠ م) : « مختصر كتاب البلدان » (الجزء الخامس من المكتبة الجغرافية) ليدن ١٨٨٥ م .

٣٤ ـ ابن قتيبة (ت ٢٧٠ هـ / ٨٨٣ م أو ٢٧٦ هـ / ٨٨٩م): « كتاب الامامة والسياسة . جزءان. القاهرة ١٣٢٥هـ .

٣٥ ـ قدامة بن جعفر (ت ٣١٠ هـ / ٩٢٢م أو ٣٢٠ هـ / ٩٣٢ م أو ٣٣٧ هـ / ٩٤٨ ـ ٩٤٩ م) : « نبذ من كتاب الخراج وصنعة الكتابة » . (الجزء السادس من المكتبة الجغرافية) ليدن ١٨٨٩م

٣٦ ـ القلقشندى (ت ٨٢١ هـ / ١٤١٨م) : « صبح الاعشى فى صناعة الإنشا » ـ ١٤ جزءاً المطبعة الاميرية بالقاهرة ١٩١٣ـ ١٩١٩م

٣٧ ـ الكندى (ت ٣٥٠ هـ / ٩٦١م) : « كتاب الولاة وكتاب القضاة» بيروت ١٩٠٨ م Gibb Memorial Series

٣٨ ـــ الماوردى (ت ٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ م) : « الأحكام السلطانية » القاهرة ١٢٩٨ هـ .

٣٩ ـــ أبو المحاسن ابن تغرى بردى (ت ٨٧٤هـ/١٤٦٩ ـــ ١٤٧٠) : « النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة » الجزء الأول والثانى. طبعة دار الكتب المصرية ١٩٢٩ م ، ١٩٣٠ م .

٤٠ ـــ المقدسى : أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم . ليدن ١٨٧٧ م .

٤١ ـــ المسعودى (ت٣٤٦هـ/٩٥٧م) : « مروج الذهب ومعادن الجوهر فى التاريخ » جزءان ـــ طبعة القاهرة ١٣٤٦ هـ ، ٨ أجزاء طبعة Barbier de Meynard ـ باريس ١٨٦١ ـــ ١٨٧٤ م .

٤٢ ـــ ـــــــ : « التنبيه والإشراف» (الجزء الثامن من المكتبة الجغرافية) ليدن ١٨٩٣ ـــ ١٨٩٤ م .

٤٣ ــ المقريزى (ت ٨٤٥ هـ / ١٤٤١ ــ ١٤٤٢ م) : « المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار » . جزءان . بولاق ١٢٧٠ هـ .

٤٤ ــ ــــــ : « البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب » القاهرة ١٣٥٦ .

٤٥ ــ ــــــ : « شذور العقود فى ذكر النقود القديمة والإسلامية » المعروف باسم النقود الإسلامية . القسطنطينية ١٢٩٨ هـ .

٤٦ ــ ــــــ : « إغاثة الأمة بكشف الغمة » طبعة الدكتور محمد مصطفى زيادة والأستاذ الشيال . القاهرة ١٩٤٠ .

٤٧ ــ ابن النديم (ت ٣٨٣ هـ / ٩٩٣ م) : « الفهرست » . ليبزج ١٨٧١ م .

٤٨ ــ النويرى (ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣١ ــ ١٣٣٢ م) : « نهاية الارب فى فنون الأدب » ١٣ جزءاً ـ طبعة دار الكتب المصرية والباقى مخطوط بدار الكتب المصرية . الجزء الأول طبعة دار الكتب الثانية ١٩٢٩ م ـ والجزء ٢٩ مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٥٥٤ « معارف عامة » .

٤٩ ــ ياقوت الحموى (ت ٦٢٦ هـ / ١٢٢٩ م) : « معجم البلدان » ٦ أجزاء . ليبزج ١٨٦٦ - ١٨٧٣ م .

٥٠ ــ يحيى بن آدم القرشى : « كتاب الخراج » ليدن ١٨٩٥ - ١٨٩٠ .

٥١ ــ اليعقوبى (ت ٢٨٤ هـ / ٨٩٧ م) : « كتاب البلدان » (الجزء السابع من مجموعة المكتبة الجغرافية) ليدن سنة ١٧٩٢ .

٥٢ — ——— : « تاريخ » . جزءان . طبعة هوتسما Houtsma .
ليدن ١٨٨٣

٥٣ — أبو يوسف صاحب أبي حنيفة (ت ١٨٢ هـ / ٧٩٨ م) :
« كتاب الخراج » . بولاق ١٣٠٢ هـ .

٥٤— Becker (C. H. : Neue Arabische Papyri des Aphroditofundes (Der Islam. II. Strassburg 1911).

٥٥— Bell : H. I. Translations of the Greek Aphrodito papyri in the British Museum. (Der Islam. Band II. III, IV, XVII. 1911, 1912, 1913, 1928).

٥٦— Van Berchem : Max : Matériaux pour un Corpus inscriptionum Arabicarum
a) L'Egypte (Mémoires publiés par les membres de l'Institut Français de Caire — 1894).
b) Jérusalem Ville (Mémoires .. 1920 — 1922).

٥٧— Combe. Et., J. Sauvaget, G. Wiet : Répertoire Chronologique d'épigraphie Arabe. t. I, II. Le Caire 1931.

٥٨— Crum : W. E, Coptic Ostraca. London 1902.

٥٩— Grohmann Adolf : Arabic Papyri in the Egyptian Library vols. I, II, III,. Cairo 1934, 1936, 1938.
الجزء الأول نقله المؤلف إلى العربية بالاشتراك مع الأستاذ الدكتور حسن إبراهيم حسن بعنوان : « أوراق البردى العربية بدار الكتب المصرية » القاهرة ١٩٣٤ م .

٢ — المراجع الحديثة

ا — المراجع العربية

٦٠ — الأستاذ أحمد أمين بك : فجر الإسلام ج ١ ـ القاهرة ١٩٢٨ م

٦١ — ـــــ : ضحى الإسلام ج ٣ ـ القاهرة ١٩٣٦ م .

٦٢ — أحمد تيمور باشا : نظرة تاريخية فى حدوث المذاهب الأربعة . القاهرة ١٣٥١ هـ .

٦٣ — أحمد تيمور باشا : التصوير عند العرب ، أخرجه وزاد عليه الدراسات الفنية والتعليقات الدكتور زكى محمد حسن ـ القاهرة ١٩٤٢ .

٦٤ — أحمد لطفى السيد : قبائل العرب فى مصر ـ ج ١ ـ القاهرة ١٩٣٥ م .

٦٥ — ادولف جروهمان : أربع محاضرات عن الأوراق البردية العربية تعريب الأستاذ توفيق اسكاروس ـ دار الكتب المصرية ـ القاهرة ١٩٣٠ م .

٦٦ — الياس بك الأيوبى : تاريخ مصر الإسلامية ـ ج ١ ـ القاهرة ١٩٣٢ .

٦٧ — الأستاذ أمين الخولى : مصر فى تاريخ البلاغة (مجلة كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول ، المجلد الثانى ، الجزء الأول القاهرة ـ مايو ١٩٣٤ م .

٦٨ ـ الأب انستاس الكرملي : النقود العربية وعلم النميات . القاهرة ١٩٣٩ م .
٦٩ ـ الدكتور حسن ابراهيم حسن . تاريخ عمرو بن العاص . القاهرة ١٩٢٦ م .
٧٠ ـ ـــــ : تاريخ الإسلام السياسى . ج ١ ـ القاهرة ١٩٣٥ م .
٧١ ـ الدكتور زكى محمد حسن : الفن الإسلامى فى مصر . ج ١ ـ القاهرة ١٩٣٥ م ،
٧٢ ـ ـــــ : كنوز الفاطميين ـ القاهرة ١٩٣٧ م .
٧٣ ـ ـــــ : فى مصر الإسلامية مع البكباشى عبد الرحمن زكى وآخرين : القاهرة ١٩٣٣ م .
٧٤ ـ ـــــ : الفنون الإيرانية فى العصر الإسلامى . القاهرة ١٩٣٩ م .
٧٥ ـ ـــــ : بعض التأثيرات القبطية فى الفنون الإسلامية (فى مجلة جمعية الآثار القبطية) القاهرة سنة ١٩٣٧ م .
٧٦ ـ ـــــ : مصر والحضارة الإسلامية ـ القاهرة ١٩٤١ م .
٧٧ ـ ـــــ : الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى . القاهرة ١٩٤٥ .
٧٨ ـ الدكتور سليم حسن بك : أقسام مصر الجغرافية فى العهد الفرعونى (المجمع المصرى للثقافة العلمية . الكتاب السنوى الثالث عشر) . القاهرة ١٩٤٢ م .
٧٩ ـ الدكتورة سيدة اسماعيل كاشف : مصر فى فجر الإسلام . القاهرة ١٩٤٧ .

٨٠ ـ ـــــ : مصر فى عصر الإخشيديين . القاهرة ١٩٥٠ م .
٨١ ـ الدكتور عبد الحكيم الرفاعى : الاقتصاد السياسى . الجزء الأول ـ القاهرة ١٩٣٦ م .
٨٢ ـ الدكتور عبد العزيز الدورى والأستاذ ناجى معروف : موجز تاريخ الحضارة العربية . بغداد ١٩٥٢ م .
٨٣ ـ على بك بهجت : حفريات الفسطاط . القاهرة ١٩٢٨ م .
٨٤ ـ الأستاذ محمد كامل حسين : فى الأدب المصرى الاسلامى من الفتح الاسلامى إلى دخول الفاطميين . القاهره ١٩٣٩ م .
٨٥ ـ الدكتور محمد كامل مرسى بك : الملكية العقارية فى مصر وتطورها التاريخى من عهد الفراعنة حتى الآن ـ ١٩٣٦ م .
٨٦ ـ الدكتور محمد سامى جنينه : القانون الدولى العام . القاهرة ١٩٢٣ م .
٨٧ ـ يوسف اليان سركيس : معجم المطبوعات العربية والمعربة . القاهرة ١٩٢٨ - ١٩٣٠ م .

ب ـ المراجع الأفرنجية

٨٨ ـ Ali Bey Bahgat : Les Manufactures d'Etoffe en Egypte au Moyen Age, (Bulletin de l'Institut Egyptien Quatrième Série — 6 Avril 1903 — Le Caire 1903).

Amélineau E. : Etude sur le Christianisme en Egypte au Septième siecle. Paris 1887. —٨٩

Arnold Th. : The Preaching of Islam. London 1935. —٩٠

Becker C.H. : The Expansion of the Saracens (The Cambridge Medieval History, vol. 11 Cambridge 1913. —٩١

—— : Art. Egypt (The Encyclopaedia of Islam vol. 11. Leyden — London 1927). —٩٢

—— : Art. Cairo (The Encyclopaedia of Islam vol. 1. Leyden — London 1913). —٩٣

—— : Historische Studien über das Londoner Aphroditowerk. (Der Islam Band 11. 1911). —٩٤

—— : Islamstudien. Leipzig 1924. —٩٥

Van Berchem, Max, La Proprieté territoriale et l'impôt foncier sous les Premiers Califes. Genève 1886. —٩٦

—— : Une Page Nouvelle de l'histoire d'Egypte (Journal Asiatique. Dixième série — Tome IX Paris. Janvier Février 1907). —٩٧

Brockelmann, Carl : Geschichte der Arabischer Litteratur, 2 vols. Weimar, Berlin 1898 — 1902,2 Suplementband — Leiden 1937 — 1938. —٩٨

Butcher Mrs. E. L. : The Story of the Church of Egypt. 2 vols. London 1897. —٩٩

تعريب اسكندر تادرس بعنوان « تاريخ الأمة القبطية وكنيستها »
في ثلاثة أجزاء . القاهرة ١٩٠٠ ، ١٩٠١ ، ١٩٠٦ م

١٠٠— Butler Alfred J. : The Arab Conquest of Egypt. Oxford 1902.

تعريب الأستاذ محمد فريد أبو حديد بك بعنوان « فتح العرب لمصر »
القاهرة ١٩٢٣ م

١٠١— ——— : The Ancient Coptic Churches of Egypt. 2 vols. Oxford 1884.

١٠٢— ——— : The Treaty of Misr in Tabari. Oxford 1913.

١٠٣— ——— : Islamic Pottery. London 1929.

١٠٤— Caetani, Leone : Annali dell' Islam. vols. IV, V. Milano 1911, 1912.

١٠٥— Creswell (K. A. C.) ; Coptic Influences on-Early Muslim Architecture (Extrait—Bulletin de la Société d'Archéologie Copte. Tome V 1939. Le Caire).

١٠٦— De Castries, Henri : L'Islam, Impression et Etudes. Paris 1896.

تعريب أحمد فتحي زغلول باشا بعنوان « الإسلام . خواطر وسوانح »
مطبعة السعادة بالقاهرة

١٠٧— De Sacy, Silvestre : Recherches sur la nature et les Révolutions du droit de propriété territ-

oriale en Egypte (Bibliothèque des Arabisants Français, t. II (Institut Français d'Archéologie Orientale, le Caire 1923).

—— : Traité des monnaies Musulmanes. Le —١٠٨
Caire 1905.

Devonshire, Mme R. L. : L'Egypte Musulmane —١٠٩
et les Fondateurs de ses Monuments. Paris 1926.

Dozy : Histoire des Musulmans d'Espagne.3 tomes. —١١٠
Leyde 1932.

—— : Supplément aux Dictionnaires Arabes, —١١١
2 vols (Leyden 1881).

—— : Dictionnaire détaillé des noms des —١١٢
vêtements chez les Arabes. Amsterdam 1845.

Georgy Sobhy Bey : The Survival of Ancient —١١٣
Egypt. (Extrait du Bulletin de la Société d'Archéologie Copte. T. IV. Le Caire 1938).

Heyd : Histoire du commerce du Levant au —١١٤
Moyen Age. 2 vols. Leipzig 1885-1886.

Johnson Allan Chester : An Economic Survey —١١٥
of Ancient Rome vol. II Roman Egypt. Baltimore. 1936.

Jouguet Pierre : L'Egypte Gréco Romaine (Précis —١١٦
de l'histoire d'Egypte. t. 1).

Kammerer Albert : La Mer Rouge. Tome —١١٧
Premier. Le Caire 1929.

١١٨— Lamm Carl Johan : Cotton in Mediaeval Textiles of the Near East. Paris 1937.

١١٩— Lammens : Un gouverneur Omaiyade d'Egypte; Qorra ibn Sarik d'après les papyrus Arabes (Bulletin de l'Institut Egyptien. 5e. Série. Tome 11. Le Caire Décembre 1908).

١٢٠— Lane-Poole Stanley : A History of Egypt in the Middle Ages. London 1925.

١٢١— Lewis, Bernard : The Arabs in History. London 1950.

نقله إلى العربية بعنوان « العرب فى التاريخ » الأستاذان نبيه أمين فارس ومحمود يوسف زايد — بيروت ١٩٥٤ .

١٢٢— Macmichael : A History of the Arabs in the Sudan. 2 vols. Cambridge 1922.

١٢٣— Marcel : Egypte, dépuis la conquête des Arabes jusqu'à la domination Française. Paris 1848.

١٢٤— Massignon : Annuaire du Monde Musulman. Paris 1925.

١٢٥— Mez Adam : Die Renaissance des Islams. Heidelberg 1922.

نقله إلى العربية فى جزئين الأستاذ محمد عبد الهادى أبو ريدة بعنوان « الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى » القاهرة ١٩٤٠ م .

Milne J. Grafton : A History of Egypt Under Roman Rule. London 1924. —١٢٦

Mohammed Ben Cheneb : Classes Des Savants de l'Ifriqiya, Alger 1920. —١٢٧

Munier Henri : L'Egypte Byzantine (Précis de l'hist, d'Egypte t. II. 1932). —١٢٨

Le Prince Omar Tousson : La Géograpgie de l'Egypte à l'Epoque Arabe. Tome Premier - Le Caire 1926. —١٢٩

Pedersen : Art. Masdjid (The Encyclopaedia of Islam vol. III. Leiden. London 1936). —١٣٠

Quatremère Et. : Mémoires Géographiques et Historiques 2 tomes. Paris 1811. —١٣١

—— : Recherches Citiques et Historiques sur la Langue et la Littérature de l'Egypte. Paris 1808. —١٣٢

Sauvaire M. H. : Materiaux pour servir à l'histoire de la Numismatique et de la Metrologie Musulmanes (Extrait du Journal Asiatique, 7 eme Série t, XIV. XV, XVIII, XIX. Paris 1879). —١٣٣

Wiet Gaston : L'Egypte Musulmane (Précis de l'histoire d'Egypte t. II). —١٣٤

—— : L'Egypte Arabe (Histoire de la Nation Egyptienne. t. IV). —١٣٥

١٣٦— ——— : Les Communications en Egypte au Moyen Age.

نقلها إلى العربية محمد وهبى بعنوان « المواصلات فى مصر فى العصور الوسطى » ونشرت فى كتاب « فى مصر الإسلامية » أخرجه الدكتور زكى محمد حسن والبكباشى عبد الرحمن زكى .

١٣٧— Zaky Mohamed Hassan : Les Tulunides. Paris, 1933.



فهرس الموضوعات

الصفحة

الصفحة

كشاف

(ا)

(خ)

(د)

(ش)

(ص)

(غ)



مطابع دار القلم
١٨ شارع سوق التوفيقية بالقاهرة

أهداف هذه المجموعة

✡ تكوين مكتبة عربية متكاملة، يجد فيها القارىء العربى كل ماهو بحاجة إليه من المعلومات فى شتى الموضوعات ، معروضة عرضا سهلا ، يتقبله القارىء العادى ، ويجد فيه المتخصص الحقائق والنظريات والآراء المبسوطة بغاية الدقة ، متمشية مع آخر ما وصل إليه العلم فى تلك الموضوعات .

✡ نشر هذه المكتبة فى أوسع نطاق ممكن وذلك بتخفيض السعر قدر الإمكان ، وإشراك أكبر عدد من الناشرين فى نشرها .

✡ النهوض بالكتاب العربي من حيث الشكل والموضوع .

✡ تشجيع عادة اقتناء الكتب وقراءتها .

✡ الإفادة بصورة عملية من جهود العلماء والأدباء فى شتى الأمم ، باتاحة الفرصة أمام القارىء العربي للاطلاع الواسع على ما عندهم .

✡ افساح المجال أمام الشباب الطامح إلى الاشتغال بالعلم والأدب للمساهمة بصورة إيجابية فى النهضة العلمية والأدبية .

✡ تشجيع الناشرين فى مصر والدول الشقيقة على الإقبال عل
نشر كتب العلم والثقافة العالمية ، وتعويضهم تعويضا مجزيا

✡ تجديد النشاط الفكرى فى العالم العربي عن طريق الك
القيمة التى تحمل إليه العلم والمعرفة .



الثمن ١٧٥ مليم

مطابع دار القلم